الأديب الكبير

أبو القاسم محمّد كرّو

تكريم وتحية

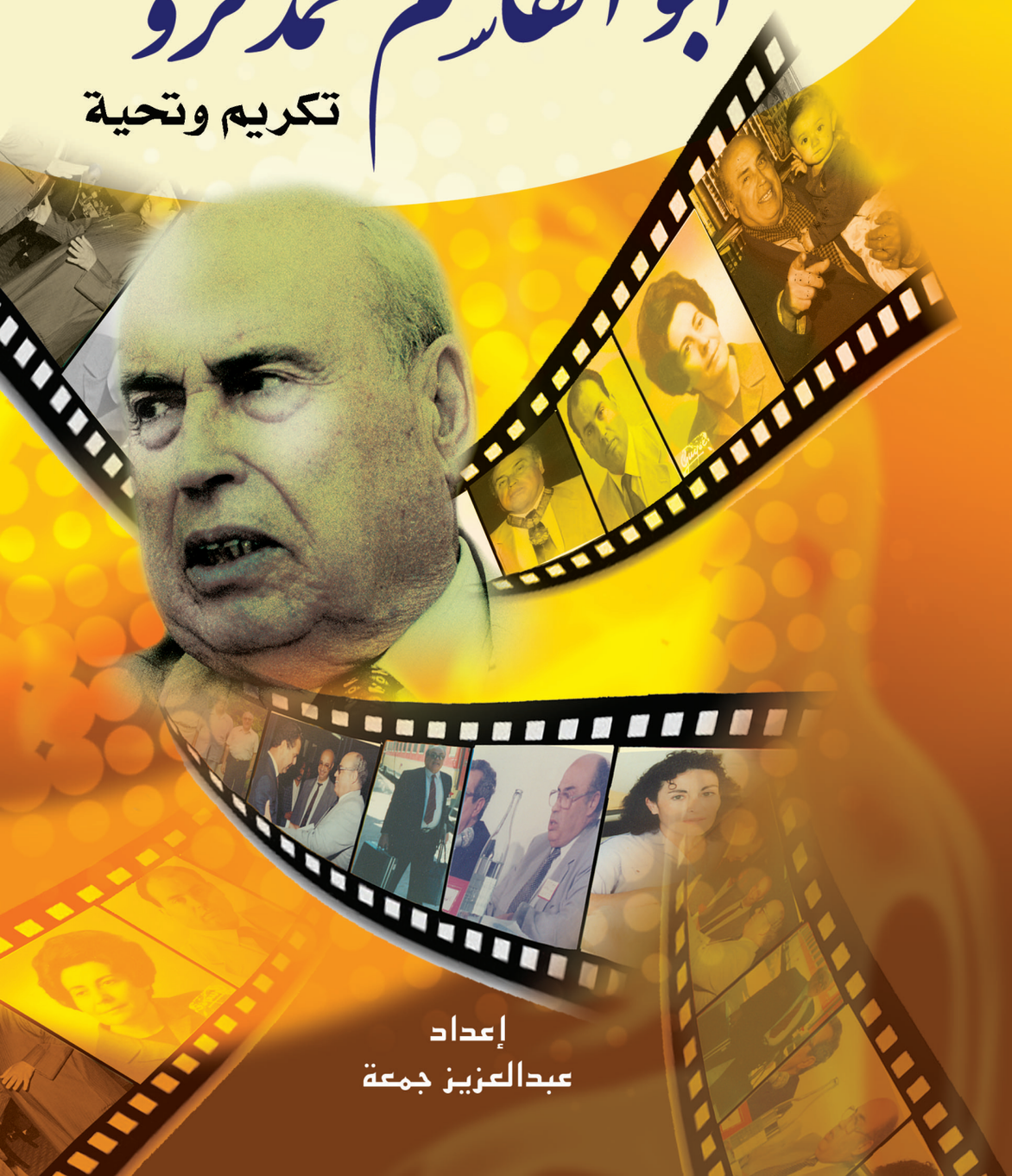

إعداد
عبدالعزيز جمعة

الأديب الكبير

أبو القاسم محمّد كرّو

تكريم وتحيّة

الناشـــر
مؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري
الكويت 2008

الأديب الكبيـــر

أبوالقـــاســـم محـمـد كرّو

تحيـــة وتكريـــم

إعـــداد

عبدالعزيز جمعة

الكويـت

2008

راجعـــه الباحثان بالمؤسسة

عبدالعزيز محمد جمعة

محمود البجالي

الصـف والتـنـفيـذ

قسم الكمبيوتر في الأمانة العامة للمؤسسة

تصميـم الغـــلاف

محـمـد عبدالوهاب

فهرسة مكتبة الكويت الوطنية أثناء النشر

1961. 928 مؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري.

أبوالقاسم محمد كرو: تحية وتكريم / إعداد: الأمانة العامة للمؤسسة . ط1. – الكويت: المؤسسة، 2008

376 ص : صور: 24 سم

ردمك: 7 – 49 – 72 – 99906 – 978

1 – أبوالقاسم محمد كرو 2. الأدباء التونسيين

أ – العنوان ب – مؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري. الكويت (ناشر)

ردمـــــــك: **ISBN : 978 - 99906 -72 - 49 - 7**

رقم الإيداع **Depository Number: 127 / 2008 :**

حقوق الطبع محفوظة

هاتف: 2430514 فاكس: 2455039 (00965)

E-mail : kw@albabtainprize.org

التصديـــــــر

جمع الأستاذ الكبير أبوالقاسم محمد كرو عدة صفات جعلته يتبوأ مكانة مرموقة في عالم الأدب والثقافة بل وصنع الثقافة والريادة فيها. وكان رسول المغرب العربي الكبير بكامله لا رسول تونس فحسب، إلى المشرق العربي، في وقت كان وطننا العربي في أربعينيات القرن الماضي يمور بحركات التحرر في مشرقه ومغربه، فكانت معظم أقطار المشرق قد نالت استقلالها بشكل أو بآخر. وكانت بنيتها التعليمية في معظمها غير واقعة تحت وصاية الدول الاستعمارية أو توجيهاتها وأوامرها وسياساتها التي كانت تصب في صالح استمرار الاستعمار.

من هذا المنطلق – إضافة إلى صفات شخصية طموحة وخلاقة في شخصه – يمَّم أبوالقاسم وجهه شطر المشرق، واطلع على أحواله، ونهل العلم من دار المعلمين العالية في بغداد، بدءًا من العام ١٩٤٨ ذلك العام الذي شهد أكبر النكبات العربية المعاصرة.

لم يعد أبوالقاسم إلى تونس خالي الوفاض بل نال الشهادة العالية، وكانت فترة دراسته، وقبلها فكرة توجهه إلى المشرق العربي، بداية ريادة له في هذا المجال، فكانت السنين الأربع التي قضاها في العراق، من أخصب سنيِّ عمره المديد بالنضال في كل معانيه: نضال لاستكمال الدراسة، ونضال ليبين حقائق الأوضاع المؤلمة في أقطار المغرب العربي، وكان خير ممثل للمغرب العربي بعامة ولوطنه تونس بخاصة في المشرق، فلم تخمد له جذوة، ولم يهتز له يقين بعدالة قضية تونس وبقية أقطار المغرب، وبقي محاربًا في سوح النضال بقلمه ولسانه وفكره وقدرته التنظيمية طوال فترة وجوده في المشرق، ونقل هذه الجذوة وهّاجة حارة إلى تونس وما جاورها.

لقد أحب أبوالقاسم المشرق ونافح عنه بقلمه وعلمه، بقدر ما عشق المغرب ونافح عنه بكل غالٍ ونفيس، ولما عاد إلى تونس ثابر وبكل جهد وجد وعلو همة على خدمة ثقافتها وتاريخها وأدبها وشعرائها والمبرزين من أبنائها قديمًا وحديثًا، كما هو مبين في سيرته التي تتصدر هذا الكتاب.

وكان من حسن حظ هذه المؤسسة ويمن طالعها ولصدقية أهدافها وتجردها عن الإقليمية والمصالح الفردية، أن استعانت بالأستاذ الكبير أبي القاسم محمد كرّو ليكون مديرًا لمكتبها في تونس والأقطار المغاربية، وكأن القدر قد هيّأ هذا العملاق الثقافي الكبير ليكون على ميعاد مع مولد هذه المؤسسة، فأفادت من غزير علمه، ومن تمرسه الواسع بالشؤون الثقافية مشرقًا ومغربًا، مما كان له أكبر الأثر في التعريف بالمؤسسة وأهدافها ونشرها في المغرب العربي الكبير.

ونزولاً عند رغبته في التقاعد رغم تمسكنا به، قبلت منه المؤسسة ما اقترحه لنفسه من رغبة أكيدة في الركون إلى الراحة التي يحتاج إليها في هذه المرحلة العمرية، وعزاؤها باقٍ في ما قدمه الأستاذ الكبير لها من خدمات بنفس الروح والمنهج الذي اختطه قبل الالتحاق بها منذ بداياتها.

وإذ أستذكر بكل التقدير ويستذكر معي مجلس أمناء المؤسسة وكل العاملين ممن التقوا أبا القاسم أو عايشوه، نستذكر معًا، أفضال هذا المناضل الثقافي الفريد، ندعو له بالعمر المديد المقرون بالصحة والسعادة.

ونرى هذا الكتاب التكريمي أقل واجب ممكن تأديته نحو من جمع عشق جناحي الوطن العربي الكبير، فكان سفير المغرب في المشرق برهة، ثم سفير المشرق في المغرب بعد ذلك وإلى يومنا، وبذلك يكون شخصه الكريم أوضح مثالٍ على وحدة هذا الوطن وتكامله.

لقد حرصنا على استكتاب مجايليه وتلامذته وأصدقائه من كافة أرجاء الوطن العربي، حتى يكون الكتاب وعاء وفاءٍ لرجل وفيٍّ يستحق الوفاء والإجلال والتكريم.

والله ولي التوفيق...

عبدالعزيز سعود البابطين

الكويت 23 محرم 1429هـ

الفاتح من فبراير 2008م

****

ترجمة ذاتية

لمحات عن حياته وأعماله العلمية :

- أبوالقاسم محمد كرّو.
- من مواليد مدينة قفصة (الجنوب الغربي من الجمهورية التونسية) عام ١٩٢٤.
- حصل على الإجازة في الآداب العربية (دار المعلمين العالية) بغداد ١٩٥٢، ثم المرحلة التحضيرية من الدكتوراه - في جامعة الجزائر ١٩٧٥.
- من مؤلفاته: له أكثر من ستين كتابًا مطبوعًا وعشرين مخطوطًا.
- من المؤلفات التي اشترك فيها ٣٣ كتابًا.
- له من المؤلفات الصغيرة: ٨ كتيبات.
- له أكثر من مائة دراسة وبحث، نُشرت في كتب مشتركة وفي المجلات التونسية والعربية.
- له حوالي ألف حديث إذاعي وألف مقالة منشورة في الصحف والمجلات التونسية والعربية.

المهام الوظيفية العامة:

- أستاذ بمعاهد التعليم ببغداد وطرابلس وتونس مدة عشر سنوات (١٩٥٢ - ١٩٦٢).
- مكلف بإدارة الآداب بوزارة الثقافة من ١٩٧١ إلى ١٩٧٤.
- مدير المركز الثقافي التونسي بطرابلس (ليبيا) من ١٩٧٤ حتى ١٩٧٦.
- مدير عام الدار العربية للكتاب من ١٩٧٦ حتى ١٩٧٧.
- رئيس دائرة الملتقيات بوزارة الثقافة من ١٩٧٨ - ١٩٨٢ ثم ١٩٨٥ - ١٩٩٧.
- مدير المركز الثقافي التونسي بطرابلس (ليبيا) من أكتوبر ١٩٨٢ إلى ١٩٨٥.

- مستشار لوزير الثقافة بمرسوم رئاسي (مايو ١٩٩٢).

المجالس الإدارية:

- شغل العضوية في مجالس إدارية لجمعيات ودور نشر عديدة أهمها: الشركة القومية للنشر والتوزيع (١٩٦١ - ١٩٦٣م)، والدار التونسية للنشر (١٩٧٤ - ١٩٧٧)، والدار العربية للكتاب (١٩٧٤ - ١٩٧٧)، وجمعية حقوق المؤلفين (١٩٧٢ - ١٩٧٤).

الهيئات العلمية:

- عضو مراسل لمجمع اللغة العربية في القاهرة من ١٩٧٢.
- عضو مراسل لمجمع اللغة العربية في الأردن من ١٩٨٠.
- عضو مراسل للمجمع العلمي العراقي من مارس ١٩٨٩.
- عضو مراسل لمجمع اللغة العربية بدمشق من ١٩٩٣/٦/٩.
- باحث في مركز البحث الجامعي بتونس (١٩٧٣ - ١٩٧٥).
- عضو اللجنة الاستشارية العليا لمعهد المخطوطات العربية (١٩٧٧ - ١٩٨٩).
- عضو الجمعية السورية لتاريخ العلوم (من سنة ١٩٨٨) (مقر الجمعية معهد التراث العلمي العربي - جامعة حلب).
- عضو مجلس الأمناء لمؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري (من مارس ١٩٩٢ - إلى نهاية ١٩٩٧).
- مدير مكتب مؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري في تونس وأقطار المغرب العربي من سنة ١٩٩٢ - إلى ٢٠٠٦/١٢/٣١ حيث استقال لشيخوخته.
- عضو مجلس أمناء جائزة الشاعر حسن فقي التابعة لمؤسسة معالي الشيخ أحمد

زكي يماني الثقافية من سنة ١٩٩٣.

الجمعيات الثقافية:

- أسس وترأس جمعية شباب ابن منظور بقفصة (١٩٤٥ - ١٩٤٨م).
- ساهم وأشرف على ملتقياتها العلمية (١-٢-٣-٦-٨).
- كاتب عام جمعية الثقافة العربية ببغداد (دار المعلمين العالية) (١٩٥٠ - ١٩٥٢).
- عضو برابطة الأدب الحديث - القاهرة ١٩٥٤.
- عضو نادي القلم - تونس ١٩٥٥.
- عضو مؤسس وعامل في اتحاد الكتّاب التونسيين من ١٩٧٠.
- عضو بالجمعية التونسية للتاريخ والآثار.
- عضو الجمعية التونسية للمعجمية العربية (تونس) من ١٩٩٠.
- الرئيس الشرفي لجمعية صيانة قفصة (تونس) منذ سنوات.

المؤتمرات العلمية والأدبية:

- شارك في عديد المؤتمرات الأدبية والثقافية والعلمية، وهي تزيد عن المائة ومن أهمها:
- مؤتمر الأدباء العرب بدمشق ١٩٥٤.
- حلقة توحيد الأرقام في البلاد العربية - تونس ١٩٦٣.
- حلقة توحيد الشهور القمرية للبلاد العربية - تونس ١٩٦٣.
- مؤتمر أدباء المغرب العربي - طرابلس ١٩٦٩.
- المؤتمر الثامن للأدباء العرب - دمشق ١٩٧١.

- مهرجان السياب الدولي في البصرة عام ١٩٧١.

- مهرجان المربد الثاني - البصرة ١٩٧٢.

- المؤتمر التاسع للأدباء العرب - تونس ١٩٧٣.

- ملتقى الفكر الإسلامي - الجزائر ١٩٧٣.

- ملتقى المفكرين العرب في القاهرة - سبتمبر ١٩٧٣.

- ملتقى الذاتية الثقافية والضمير القومي (داخل المجتمع التونسي) - تونس ١٩٧٤.

- المؤتمر الحادي عشر للأدباء العرب - طرابلس ١٩٧٧.

- مؤتمر دولي حول إسهام تونس في الحضارة الإنسانية بمناسبة مرور ٢٨ قرنًا على تأسيس قرطاجة ١٩٨٦.

- المؤتمر الأول للوثائق والمخطوطات في ليبيا - مايو ١٩٨٨.

- مؤتمر حول المغرب العربي - آفاق ٢٠٠٠. افتتح في فاس وختم في طنجة ودارت جلساته في رحلة بحرية على الباخرة مراكش (سفينة الوحدة) انطلاقًا من طنجة ورجوعًا إليها ومرورًا بمراسي ومدن الجزائر - تونس - طرابلس ١٩٨٩.

- مئوية ميلاد طه حسين - تونس ١٩٨٩/يناير ١٩٩٠.

- أيام دراسية عن شخصية وفكر عبدالله كنون - طنجة، فبراير ١٩٩٠.

- مؤتمر دولي حول طنجة في التاريخ المعاصر (١٨٠٠ - ١٩٥٦) - طنجة أكتوبر ١٩٩٠.

- ملتقى دولي حول التراث المغربي الأندلسي (التوثيق - القراءة) - كلية الآداب - تطوان - أبريل ١٩٩١م.

- الندوة العالمية الخامسة لتاريخ العلوم عند العرب، انعقد في غرناطة بإشراف جامعتها وجامعة حلب.. مارس/ أبريل ١٩٩٢.

- أكثر من مائة ندوة ومؤتمر أدبي أو علمي أو قومي أو وطني بتونس والبلاد العربية والأوروبية.

إضافات:

- أقيمت على شرفه حفلات تكريم عديدة زهاء عشرين حفلة في تونس والبلاد العربية أبرزها اثنتان كبيرتان جدًا: إحداهما قام بها «نادي القلم» عام ١٩٥٤ بفندق «سان جورج» إثر عودته لتونس بعد غياب دام سبعة أعوام.

- والثانية: حفلة تكريم الجامعة التونسية (كلية الآداب) بضاحية: (منوبة) عام ١٩٩٩ بحضور ممثل الرئاسة وإشراف وحضور وزير التعليم العالي الدكتور المرحوم الدالي الجازي وخطابه التكريمي العميق؛ ودامت الحفلة بحضور الوزير أربع ساعات.

- تُرجمت بعض أعماله للفرنسية والإنكليزية والإسبانية والروسية والألمانية.

- متزوج وله ثلاثة أولاد.

- حاصل على: وسام الجمهورية (الصنف الثالث) ١٩٦٩، ووسام الاستحقاق الثقافي (الصنف الأول) ١٩٨٩، ووسام الجمهورية (الصنف الثاني) ١٩٩٠م، وجائزة الدولة التقديرية في النقد ١٩٩٠، والجائزة المغاربية للثقافة سنة ٢٠٠٣، وبالإضافة إلى جوائز وميداليات عديدة.

- حصل في شهر جوان من العام ٢٠٠٨ بمناسبة اليوم الوطني للثقافة على الصنف الأكبر من وسام الجمهورية التونسية.

- المراحل النضالية والوطنية (١٩٤٢ - ١٩٦١م) يوجد مجملها في كتابه «حصاد العمر» مجلد ٦ - القسم الأخير.

المؤلفات:

- ماي شهر الدماء والدموع في المغرب العربي - بغداد ١٩٥١.
- الشابي: حياته وشعره - بيروت ١٩٥٢.

- كفاح وحب - بيروت ١٩٥٢.
- حصاد القلم - القاهرة ١٩٥٤.
- كفاح الشابي، أو الشعب والوطنية في شعره - بيروت ١٩٥٤.
- دفاعنا نحن - تونس ١٩٥٥.
- نداء للعمل - تونس ١٩٥٥.
- التعليم التونسي، بين الحاضر والمستقبل - تونس ١٩٥٥.
- شوقي وابن زيدون في نونيتيهما - تونس ١٩٥٦.
- العرب وابن خلدون - تونس ١٩٥٦.
- هيئة الأمم المتحدة - تونس ١٩٥٦.
- صوت الجزائر - تونس ١٩٥٦.
- الشهيد أحمد رضا حوحو - تونس ١٩٥٧.
- الطاهر الحداد - تونس ١٩٥٧.
- حديث رمضان - تونس ١٩٥٨.
- شخصيات أدبية (من المشرق والمغرب) - تونس ١٩٥٨.
- خير الدين التونسي - تونس ١٩٥٨.
- دروس التاريخ - ج١ - تونس ١٩٥٩.
- دروس التاريخ - ج٢ - تونس ١٩٦٠.
- هتاف للجمهورية - بيروت ١٩٦١.
- آثار الشابي وصداه في الشرق - بيروت ١٩٦١.
- كرباكة: شاعر الغناء والمسرح - تونس ١٩٦٥.
- دراسات عن الشابي - تونس ١٩٦٦.
- ابن هانئ الأندلسي - تونس ١٩٦٧.

- الشابي من خلال رسائله - بغداد ١٩٧٠.
- محمد الخضر حسين - تونس ١٩٧٣.
- عصر القيروان - تونس ١٩٧٣.
- مستدرك الفهرس التاريخي للمؤلفات التونسية - بيروت ١٩٨٨.
- طريق النهضة - تونس ١٩٨٩.
- كلمات إلى الشباب - تونس ١٩٨٩.
- دراسات في التاريخ والتراث - تونس ١٩٩١.
- من أعلام تونس في الثلث الأول من القرن العشرين - تونس ١٩٩١.
- دراسات عن تاريخ قفصة وأعلامها - تونس ١٩٩١.
- نثر الشابي ومواقفه من عصره - تونس ١٩٩٤.
- الشابي في مرآة معاصريه - بيروت ١٩٩٤.
- رسائل حول الشابي - بيروت ١٩٩٤.
- دليل الباحثين عن الشابي - بيروت ١٩٩٤.
- الشابي: صور وكلمات - بيروت ١٩٩٤.
- شعراء المغرب للشابي (تحقيق) - بيروت ١٩٩٤.
- حصاد الكفاح (٣ جـ) - بيروت ١٩٩٨.
- أعلام منسيون - بيروت ١٩٩٨.
- شاعرات عراقيات - بيروت ١٩٩٨.
- في الشعر والشعراء - بيروت ١٩٩٨.
- دفاعًا عن الثقافة العربية - بيروت ١٩٩٨.
- مواقف إسلامية - بيروت ١٩٩٨.
- مدن وأعلام - بيروت ١٩٩٨.

- كتب ومؤلفون - بيروت ١٩٩٨.
- محاضرات ومقالات لم تنشر - بيروت ١٩٩٨.
- قضايا وردود - بيروت ١٩٩٨.
- محطات في حياتي - بيروت ١٩٩٨.
- همس الحب (مع الترجمة الفرنسية) - بيروت ١٩٩٩.
- عبقرية الحداد - بيروت ١٩٩٩.
- الشهيد الحبيب ثامر - سوسة ١٩٩٩.
- عبدالوهاب البياتي - سوسة ٢٠٠٠.
- طه حسين والمغرب العربي - بيروت ٢٠٠١.
- حوار وشعراء - بيروت ٢٠٠١.
- سليمان الحرائري: (رائد تونسي) - بيروت ٢٠٠١.
- ابن منظور: مؤلف لسان العرب - بيروت ٢٠٠٢.
- الأميرة نازلي فاضل: رائدة النهضة في مصر وتونس - بيروت ٢٠٠٢.
- أبعاد الأب جان فونتان - بيروت ٢٠٠٢.
- أبحاث ومقالات - بيروت ٢٠٠٢.
- أحمد التيفاشي القفصي - بيروت ٢٠٠٤.
- شعراء قفصة الإسلامية - تونس ٢٠٠٤.
- تراجم قصيرة - تونس ٢٠٠٤.
- ذكرى ابن خلدون - تونس ٢٠٠٦.
- مدن وأعلام تونسية (منقحة ومزيدة) - تونس ٢٠٠٧.

معد للطبع:

- وفيات وصور معاصرة.

- مسيرة حياة.. (ذكريات).
- شهادات ورسائل (كتاب تكريمي).
- من رسائلهم (نشرت حلقات كثيرة منه في تونس).
- هكذا عرفتهم (نشرت حلقات منه في كتبه الأخيرة).
- خلفيات حول كتبي (نشرت حلقات منه في تونس).
- كشاف مقالاتي (نشرت حلقات منه في تونس).
- المغاربيون في معجم السفر (تحقيق).
- مغاربيون في دستور الأعلام لابن عزم التونسي.
- رسائل مرتضى الزبيدي (تحقيق).
- أعلام من قفصة (جملة كتب متلاحقة).
- إسماعيل الصفائحي (وما يقتضيه حال الزمان).
- الأميرة نازلي فاضل (في الصحافة التونسية) (١٨٩٩ - ١٩١٤).

موسوعات ألفها أو شارك فيها:

- موسوعة الشابي، ط١، ١٩٩٤، (٦ مجلدات) وط٢ (١٩٩٩) (١٢ مجلدًا).
- معجم البابطين للشعراء العرب المعاصرين، ط١، الكويت ١٩٩٥، (في ٦ مجلدات)، وط٢ الكويت ٢٠٠٢ (٧ مجلدات).
- موسوعة حصاد العمر في ٦ مجلدات ٣٤٠٠ ص، ط ١٩٩٨.

كتب اشترك فيها ببحث:

- ذكرى الرصافي (جماعة من المؤلفين) - بغداد ١٩٥٠.
- ذكرى الشابي وأحمد أمين (جماعة من المؤلفين) - تونس ١٩٥٥.
- تاريخ قفصة وعلمائها (جماعة من المؤلفين) - تونس ١٩٧٢.
- علي مصطفى المصراتي (نجم الدين الكيب) - طرابلس ١٩٧٣.

- دراسات في اللغة والأدب والتاريخ (جماعة من المؤلفين) - تونس ١٩٧٤.
- دراسات في اللغة والحضارة (جماعة من المؤلفين) - تونس ١٩٧٥.
- الذاتية الثقافية والضمير القومي (جماعة من المؤلفين) - تونس ١٩٧٧.
- التعريف بالأدب التونسي (رضوان إبراهيم) - تونس ١٩٧٥
- محمد الصباغ بأقلام النقاد والأدباء (جماعة من المؤلفين) - الدار البيضاء ١٩٨٠
- الإسلام والأمة الوسط (جماعة من المؤلفين) - تونس ١٩٨١.
- ساعة صفاء (ن. د. مع؛ م. ح. س) - تونس ١٩٨١.
- دور التعريب في تطور اللغة العربية (جماعة من المؤلفين) - تونس ١٩٨٤.
- مظاهر الحضارة في تونس (جماعة من المؤلفين) - تونس ١٩٨٤.
- قضايا في النثر العربي المعاصر (أ. ط. و ج . خ) - سيول ١٩٨٥.
- دليل الكتاب التونسي (جماعة من المؤلفين) - تونس ١٩٨٦.
- أمة اجتمعت في إنسان (جماعة من المؤلفين) - سوسة ١٩٨٩.
- عبدالله كنون بين التكريم والتأبين (ع. العشاب) - طنجة ١٩٩١.
- طنجة في التاريخ المعاصر (١٨٠٠ - ١٩٥٦) (جماعة من المؤلفين) طنجة ١٩٩١.
- أبحاث وأعلام: عبدالله كنون (جماعة من المؤلفين) - المغرب ١٩٩١.
- سفينة الوحدة المغاربية (جماعة من المؤلفين) - فاس ١٩٩٢.
- الإمام محمد الخضر حسين (جماعة من المؤلفين) - دمشق ١٩٩٢.
- أعمال المؤتمر الأول للوثائق والمخطوطات في ليبيا (جزآن) (جماعة من المؤلفين) - حلب ١٩٩٢.
- مئوية ميلاد طه حسين (جماعة من المؤلفين) - تونس ١٩٩٣.
- التراث المغربي والأندلسي (جماعة من المؤلفين) - الدار البيضاء ١٩٩٣.
- عبدالله كنون: شخصيته وفكره (جماعة من المؤلفين) - المغرب ١٩٩٤.

- آثار الشيخ محمد النخلي (ابنه. والساحلي) - بيروت ١٩٩٥.
- محمد بن تاويت الطنجي (إعداد: أحمد الطريبق) - طنجة ١٩٩٨.
- سعيد أبوبكر (جماعة من المؤلفين) - تونس ١٩٩٩.
- أبوالقاسم كرو تكريمه بإهدائه مكتبته (جماعة من المؤلفين) - بيروت ١٩٩٩.
- علي مصطفى المصراتي بأقلام عربية: إعداد عبدالله مليطان - طرابلس الغرب ٢٠٠١.
- عبدالعزيز السريع: تكريم وتحية - الكويت ٢٠٠٢.
- عبدالكريم غلاب: ضوء يشرق من المغرب (جماعة من المؤلفين) - بيروت ٢٠٠٣.
- ابن الطواح (جماعة من المؤلفين) - بيروت ٢٠٠٤.

نشريات أخرى:

- محمد الحليوي - ط. تونس ١٩٧٨ - ٣٢ ص.
- محمد المرزوقي (بالاشتراك) - ط. تونس ١٩٨١ - ٣٢ ص
- الهادي العبيدي - ط. تونس ١٩٨٥ - ٣٢ ص
- ناجية ثامر - ط. تونس ١٩٨٨ - ٤٠ ص
- الهادي المدني - ط. تونس ١٩٩١ - ٤٠ ص
- صور تاريخية - ط. تونس ١٩٩٢ - ٤٨ ص
- محمد اليعلاوي - ط. تونس ١٩٩٢ - ٢٤ ص
- محمد اليعلاوي (تكريم واحتفاء) (جمع كلمات التكريم وقدّم لها وشارك فيها) - ط بيروت ١٩٩٣ - ٨٦ص.

سلسلتان جديدتان:

■ الأولى - روّاد منسيون:

- سليمان الحرائري (أول صحافي تونسي بباريس ق ١٩م ط ٢٠٠١).

- ابن منظور (مؤلف لسان العرب) - ط٢٠٠٢.
- الأميرة نازلي فاضل (رائد النهضة في مصر وتونس) ط ٢٠٠٢.
- أحمد التيفاشي القفصي (أول موسوعي عربي) ط ٢٠٠٤.

■ الثانية: أعلام من قفصة:

- الشيخ الطيب قلنزة (وأرجوزته برواية قالون).
- صالح محمد كرو (اصطلاحه: طغرى الاستقلال)
- المهدي بن الناصر: (نشيد الحرية...)
- رجب العجمي الشاعر (يمجد انتصارات تركيا).
- شعيب الحريفشي (وكتابه الروض الفائق..)
- آل ابن عقيبة: (بين الشعر والتصوف).

****

القسم الأول

شهادات في أبي القاسم كرو

في هذا القسم وردت الشهادات وفقًا للترتيب الألفبائي دون أية اعتبارات أخرى

أبوالقاسم كرّو في محراب الثقافة العربية

أ. د. إبراهيم السعافين(*)

عرفت الأستاذ (أبوالقاسم محمد كرّو) من كتبه قبل أن أراه رأي العين في أول جلسة عقدها مجلس أمناء مؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري في تشكيلته الثانية في مطلع عام ١٩٩٥ في القاهرة، وكان اسمه قد اقترن بقوة باسم شاعر تونس الكبير (أبوالقاسم الشابي)، وقد خلَّف تراثًا من الإنتاج الفكري والثقافي والأدبي الغزير الذي يشهد له بسعة الاطلاع والبحث والانخراط في قضايا الأمة وهمومها والبحث عن آفاق مستقبلها، وعلى انشغاله بشاعرنا الكبير، واهتمامه بالمنجزات الثقافية والفكرية والأدبية في قطره الصغير، فقد انشغل بهموم الأمة التي كانت شغله الشاغل، مما جعله يخوض في سبيلها المعارك التي ولَّدت جدلاً خصبًا بينه وبين الخصوم.

والذي يعرف الأستاذ كرّو عن قرب لا يحتاج إلى وقت طويل ينفقه لكي يزيل الحواجز الاجتماعية والنفسية، فما أن تجالسه أول مرة حتى تألفه ويألفك وتصبحا صديقين حميمين، فالرجل يتميز بالبساطة والرهافة والكبرياء، ويتميز بالصدق والأريحية والكرم والشهامة، ومن أحب الأشياء إلى نفسه أن تنتدبه لعمل يستطيع القيام به، إذ سرعان ما يلبي الطلب في حماسة وطلاقة وجه، وأذكر أن أستاذنا وصديقنا الراحل إحسان عباس كلفني، بعد أن اتفقنا – إحسان عباس وشقيقه الصديق الراحل بكر عباس وأنا – على إعادة تحقيق كتاب الأغاني، الحصول على بعض نسخ مخطوطة الكتاب من دار الكتب المصرية، وذكر لي اسم الدكتور أيمن فؤاد السيد، الذي كانت تربطه بوالده صداقة قديمة، وكنت، حتى ذلك الوقت، لم ألتقِ الصديق أيمن فؤاد السيد، وحين ذكرت

(*) أكاديمي وناقد أردني من مواليد الفالوجة عام ١٩٤٢ يعمل في جامعة الإمارات العربية المتحدة، له العديد من المؤلفات، عضو سابق بمجلس أمناء مؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري.

الأمر للأستاذ (أبوالقاسم كرّو) أبدى استعدادًا منقطع النظير وأصر، على أن نزور دار الكتب والوثائق المصرية سويّاً، وبالفعل قدمني إلى الدكتور أيمن السيد، وقضيت المهمة حسب الأصول المرعية في الدار.

وكان الأستاذ كرّو يحتفي بأصدقائه، دائم السؤال عنهم مثلما كان موضع الحفاوة منهم أيضًا، فطبيعته الاجتماعية لا تعرف الانعزال أو الانطواء، فما رأيته إلا مقبلاً على الناس، تقطر عباراته بالدفء والمودة والأنس والمرح الجميل. وقد استطاع في فترة عمله في المؤسسة أن يقيم صلات قوية تقوم على الاحترام والتقدير والحماسة بين المثقفين والأكاديميين والمبدعين في مغرب الوطن والمؤسسة؛ مما أدى بالتالي إلى تقوية الصلات والروابط العميقة بين مشرق الوطن ومغربه، فـ (أبوالقاسم كرّو) محب ينشر طاقة الحب بين من يتصل بهم ويتصلون به، فكان خير سفير للثقافة المغاربية في مشارق الوطن العربي الذي ينتمي إليه أبوالقاسم بكل جوارحه.

يعد الأستاذ (أبوالقاسم محمد كرّو) من أعلام الفكر والثقافة في تونس والوطن العربي، وقد ارتبط اسمه، كمّاً، باسم شاعر تونس الكبير «أبوالقاسم الشابي»، إذ كانت دراسته الصادرة في أوائل الخمسينيات من القرن الماضي «الشابي حياته – شعره» وتوالت دراساته عن الشابي «دراسات عن الشابي» و«كفاح الشابي» و«آثار الشابي وصداه في الشرق»، ولقد جاءت موسوعته «آثار الشابي» في ستة مجلدات، وكأن (أبوالقاسم كرّو) سخَّر حياته لخدمة هذا الشاعر العربي الكبير الذي أصبح مفخرة عظيمة لتونس، وقد عبَّر عن هذا الاعتزاز حين قال: «إن الشابي لتونس كالمتنبي للعراق، وكالمعري لسوريا، وجبران للبنان وشوقي لمصر.. إنه بدء تاريخ وقاعدة مجد.. ستظل الأجيال تذكره في هالة من التمجيد والإكبار.. ما بقيت الحياة وكان للإنسان تاريخ وضمير».

ويعبر الأستاذ كرّو عن هذا الإعجاب بشاعر تونس الكبير بعبارات مفعمة بالتقدير العظيم الممتزج بالحب والامتنان لمن كتب اسم تونس في سجل الأوطان التي أنجبت عباقرة الشعراء، إذ يقول مفاخرًا ومباهيًا بشاعر تونس الخالد: «كيف يمكن أن يموت من علَّمنا

أغاني الحياة، وأنار طريق الحياة بالشباب والحبِّ والنضال، لا وألف مرَّة لا، إن الشابي لم يمت يوم ٩ أكتوبر ١٩٣٤ وإنما ولد من جديد».

ويمكن القول إن الأستاذ كرّو قد كرَّس حياته للكتابة عن الشابي والاهتمام بإنتاجه باعتباره شاعر تونس بل شاعر المغرب الأكبر في الثلث الأول من القرن العشرين وربما لعقود كثيرة تالية، وقد مكَّنت شهرة الشابي وذيوع اسمه في المشرق العربي بانتسابه إلى جامعة أبولو ولا سيما بالنشر في مجلة أبولو لباحثين متحمسين لهذه الظاهرة الشعرية الشابية لأن يجند قلمه في خدمة أدبه، والانطلاق إلى غاية ربما أبعد وهي إنصاف مغرب الوطن العربي من مشارقه، إذ كان المغرب يعاني من تجاهل أو جهل بحقيقة إنجازاته الفكرية والثقافية، وكأنه كان إذ ذاك يقع في دائرة الهامش في مقابل المركز الذي كان يقع بصورة خاصة في مصر والشام. يقول في كلمته الاحتفالية بالشابي التي عنوانها «ما يجب نحو الشابي»: «عندما زرت جناح العرب الشرقي، وتعرفت إلى إخواننا فيه، وعشت بينهم سنوات عديدة، لمست مقدار الغموض والأخطاء التي تكتنف كل شيء يصل لهم عنا. عن المغرب العربي كله. بكل سكانه، وبكل ما فيه من ألوان الحياة، وأنواع التاريخ، وطبيعي أن يدفعني انتسابي إلى مغربنا العربي واعتزازي بذلك الانتساب إلى أن أحاول إزالة ما يمكن إزالته من ذلك الغموض وتلك الأخطاء[1]، ويبدو أنه كان لا يستثني من المشرق العربي طرابلس الغرب آنذاك، وهو يعترف بحب الناس في المشرق «في بغداد ودمشق وعمان والقدس وبيروت والقاهرة وطرابلس الغرب وغيرها من المدن العربية» وسؤالهم بشوق عن أحوال المغرب ولاسيما الشعراء والأدباء «ليمنع به وحدة الأمة العربية»، فيعزو ذلك إلى ما صنعه الستار الحديدي الذي فرضه الاستعمار.

ولعل ما كان يحزُّ في نفس الأستاذ كرّو أن أبا القاسم الشابي هو الشاعر الوحيد الذي عرفه الأدباء في الشرق «ولكن أكثرهم لم يكن يعرف إلا اسمه وبلده، وأبياتًا من شعره، وعندي عشرات من الرسائل والمقالات التي كتبت عنه، أو جاءتني من أصحابها

(١) أبوالقاسم كرو، دراسات عن الشابي، ط٢ الدار العربية للكتاب، تونس، ١٩٨٤.

حوله.. وكلها تدل على مقدار الغموض الذي يحيط بحياته وشعره.. بل إن الغموض والخطأ عنه، عن حياته وأدبه.. ما يزالان موجودين إلى اليوم رغم صدور عدد من الكتب عن حياته وشعره[1] ويستشهد في هذا الصدد برسالة من الأديب الكبير ميخائيل نعيمة يشير فيها آنذاك من أنه لا يكاد يعرف من شعر الشابي غير بيته ذائع الصيت:

إذا الشعب يومًا أراد الحياة

فلا بدَّ أن يستجيب القدر

وقد بين الأستاذ كرّو، وهو يتأمل إهمال تراث الأدباء والشعراء ما يجب أن تقوم به اللجنة التي ستعنى بتراث الشابي، فالأستاذ كرّو بين أنه لا يخشى موت الأدباء والشعراء ولكنه يخشى أن يضيع تراثهم ويذهب مع الريح.

وليس هدف ما سقناه هنا هو الحديث عن حضور الأدب والثقافة في المغرب العربي في مشرق الوطن العربي، بقدر ما هو بيان لحماسة الأستاذ كرّو للتعريف بالثقافة والأدب والفكر في مغرب الوطن وتكريس جهده الدؤوب في هذا المنحى النبيل، ولعل ما أعرفه شخصيّاً – وأنا واحد من جيلٍ تربى على المنهاج الأردني في التربية والتعليم – من شعر أبي القاسم الشابي يزيد على أصابع اليد الواحدة وكان شعره متداولاً بين أيدي تلاميذ المدارس، ولعل دورة أبي القاسم الشابي التي عقدتها مؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري في مدينة فاس بالمملكة المغربية عام ١٩٩٤، وما صاحبها من طبع المجلدات التي تتناول ديوانه ونقده ورسائله وصوره، وما كتب عنه، وكان للأستاذ كرّو الدور الفاعل في التحضير والإعداد، أرضت الرغبة الدفينة في أعماقه واستجابت لطموحه في التعريف بهذا الشاعر العربي الكبير، وشدَّت من روابط الألفة والمحبة والفهم المتبادل بين أبناء الوطن العربي الكبير الذي كان الأستاذ كرّو من دعاة وحدته وقوته ومنعته.

---

(١) كرو، دراسات عن الشابي ص٨٣.

وإذا كانت نشأة (أبوالقاسم كرّو)، قد بدأت نشأة قومية، فقد درس في دار المعلمين العالية ببغداد وأصهر إلى لبنان، فإنه ظل يفخر بوطنه تونس أشد الافتخار، وقد عزا ما كان لطه حسين من فضل إلى الشيخ عبدالعزيز جاويش الذي يتحدر من أصل تونسي، وليس غريبًا أن تجتمع في شخصيته الوطنيةُ والقومية، فهو محب لوطنه تونس عمل على خدمة ثقافتها بكل ما أوتي من طاقة، ومن يقرأ مقدمة كتابه «عصر القيروان»، تلفته تلك الحماسة المتقدة للمغرب عامة ولمدينة القيروان خاصة، تلك التي حفل تاريخها بالأمجاد المتعاقبة من خلال ما سطره زعماؤها وقادتها وشعراؤها وأدباؤها ونقادها ومفكرّوها من صفحات مضيئة في تاريخ العرب والمسلمين، إذ يقول في المفتتح: «لم يلمع في تاريخ المغرب العربي اسم مدينة من مدنه، ولا ازدهر عصر من عصوره بعد الفتح الإسلامي كما لمع اسم مدينة القيروان وازدهر عصرها الذهبي أربعة قرون كاملة، ابتدأت على يد عقبة بن نافع سنة خمسين للهجرة[1] ليذكر أسماء المعز لدين الله الفاطمي والمعز بن باديس الصنهاجي، وابن هانئ الأندلسي وابن رشيق والحصري القيرواني وابن شرف وغيرهم.

وهو في هذه الحماسة النادرة للبحث في ثقافة مغرب الوطن العربي والعمل من أجل نشرها وذيوعها لا ينسى قضايا وطنه العربي ويكرس نفسه في خدمة أمته العربية، ولعل المعركة التي أثارها كتابه «العرب وابن خلدون» حول اتهامه طه حسين بالتعصب والإقليمية ينبع من هذه النزعة القومية، بغض النظر عن صحة التأويل ودقة الاستنتاج. ولعل تأثره بساطع الحصري من الدلائل المبكرة على اتجاهه القومي الممتد من أمد طويل.

لقد أغنى (أبوالقاسم كرّو) المكتبة التونسية والمغربية بمؤلفاته وبحوثه التي تناولت كثيرًا من حقول الثقافة والمعرفة، فقد كان غزير الإنتاج تسنده حماسة متقدة، ظهرت في المهمات الثقافية التي قام بها في غير موقع، وفي المؤسسات والجمعيات والمجامع والهيئات التي رأسها أو كان عضوًا فيها محليّاً وقوميّاً وفي الصلات الممتدة مع نخبة من أعلام الأمة وفي المؤتمرات المحلية والقومية والعالمية التي شارك فيها، كل ذلك بإيمان منقطع النظير وبعزم لا يلين.

---

(١) أبوالقاسم كرو، عصر القيروان، طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، د. ت ص٥.

وقد سلم الأستاذ أبوالقاسم محمد كرّو أخيرًا إلى مؤسسة الأرشيف الوطني التونسية أرشيفه الخاص في شكل هبة تامة دون مقابل ومن دون شرط. وتتضمن هذه الهبة مخطوطات أصول مؤلفاته ومراسلاته وعدة كتب ومقالات منشورة إلى جانب ٧٤ بكرة من الميكروفيلم تحتوي على نسخ من مخطوطات نادرة ونصوص أصيلة بخط عدد من أدباء تونس قدمت في حفل تأبين الشاعر (أبوالقاسم الشابي)، وتم تجميع هذه المادة على قرابة ستين سنة.

وإذا كان أبوالقاسم كرّو ينتمي بكل صدق وإخلاص إلى الثقافة العربية الإسلامية فإنه حاول أن يعرِّف بالثقافة والفكر والإبداع في تونس وسائر أقطار المغرب والأندلس، مصورًا عناية الكتّاب والنقاد والمبدعين بأدب المشرق، متابعًا أدباء الأندلس في إنحائهم باللائمة على أولئك الذين لا يرون إلا صورة الأدب المشرقي، فنرى الأستاذ كرّو يضع نصب عينيه أبا القاسم الشابي، ويلفت النظر إلى أعلام الثقافة المغربية في القديم من مثل الحصري وابن رشيق وابن خلدون إلى جانب أعلام الأندلس الكبار.

وليس من شك في أن جهود (أبوالقاسم محمد كرّو) تستحق التكريم، وقد سعت جهات متعددة لتكريمه، فنال لقاء ما يستحق الأوسمة والجوائز وحفلات التكريم اعترافًا بمكانته وتقديرًا لخدماته الجليلة في حقول الثقافة والفكر والمعرفة، فقد حصل عام ٢٠٠٣ على الجائزة المغاربية للثقافة.

وإذا كان من كلمة تقال في هذا المجال فإن كتابه «حصاد العمر» الذي يقع في عدة مجلدات أسهمت مؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري بدعم نشرها، يضع أصابعنا على مكمن الأمل والألم عند الأستاذ (أبوالقاسم كرّو)، يقول الأستاذ كرّو في هذه المقدمة: «يضم (حصاد العمر) المقالات وبعض الكتب والكتيبات التي نشرتها في حياتي من عام ١٩٤٦ حتى الآن والتي لها علاقة مباشرة بموضوعه.. وهو في الدرجة الأولى كفاحي من أجل استقلال تونس أولاً.. والمغرب العربي ثانيًا.. ووحدة العرب ثالثًا»[١].

(١) أبوالقاسم كرو، حصاد العمر، ط١، دار المغرب العربي، تونس ١٩٩٨.

وهو يرى أن هذه الأهداف التي وضع من أجلها هذا العمل، وكل أعماله التي نشرها من قبل، أصبحت تزداد بعدًا بدل أن تقترب أو تتحقق، إذ يعترف وهو الذي كرّس حياته مناضلاً في سبيل وطنه والمغرب العربي والأمة العربية، أن آماله لم تر النور، فهو وإن اعترف بأن أحد أهدافه العامة في الحياة قد تحققت وهو استقلال وطنه تونس، وأن هدفين لم يتحققا هما وحدة المغرب ووحدة الأمة العربية، فإن جوهر الكلام يشير إلى أن الهدف الأول لم يتحقق هو الآخر أو ظل منقوصًا في الأقل، لأنه يرى أنه لا استقلال لوطن عربي بمعزل عن وحدة عربية منيعة تقف سدًا منيعًا في وجه الغزاة والطامعين.

أطال الله عمر الأديب الكبير الصديق (أبوالقاسم محمد كرّو)، ومتعه بالصحة والسعادة، وحقق آماله، وجعل ثمار جهوده دانية في وقت ليس ببعيد.

****

في معنى الانتماء

أ. أنس الشابّي(*)

خلال سبعينيات القرن الماضي عندما كنت طالبًا، وقعت بين يدي بعض مقالات الأستاذ أبي القاسم محمد كرو التي قرأتها، فأعجبني أسلوبه الطلي في الكتابة واليسر في انتقاله بالقارئ من فكرة إلى أخرى ومن معنى إلى آخر ووضوح العبارة وحسن اختيار موقعها، وأذكر أني سألت الوالد رحمه الله عنه، فأجابني بأنه من نبهاء الزيتونيين الذين ارتحلوا إلى المشرق للدراسة، وأنه عاد إلى تونس ولم يجد حظّه فيها.

تلك هي أول صورة ارتسمت في ذهني قبل معرفة الرجل ومعاشرته، بقيت منذ ذلك الوقت متابعًا لما ينشر الأستاذ كرو وكنت أراه في باب سيدي عبدالسلام. وهو في طريقه إلى بيته يقود سيّارته البيجو (٥٠٤).

وفي سنة ١٩٩٠ ألحقت للعمل بوزارة الثقافة في عهد الأستاذ أحمد خالد الذي عينني في العديد من اللجان. بعضها كان الأستاذ كرو عضوًا بها، وقد مكنتني الجلسات التي كنت أحضرها صحبته من معرفة أكثر بالرجل إنسانيّاً وعلميّاً. ذلك أن تساؤلات كانت تراودني حول الأسباب التي لأجلها يهمّش الأغزر معرفة ويطرح جانبًا الأثرى تجربة، في حين يصعَّدُ الأدنى والأقلّ والأحطّ.

ولماذا لم يبق الأستاذ كرو سوى سنة واحدة على رأس الدار العربية للكتاب رغم أنه صاحب خبرة في النشر والكتابة؟

ولماذا لم يكلّف إلا بوظائف هامشية تخللها إبعاده إلى طرابلس مديرًا للمركز الثقافي بها؟

للإجابة على هذا السؤال تجدر بنا العودة إلى:

١ – طبيعة النظام الثقافي والتعليمي الذي أرساه الرئيس بورقيبة في تونس بعد

(*) كاتب تونسي متخصص في الشؤون الإسلامية.

الاستقلال: وهو نظام يقوم على ربط تونس بالغرب وبفرنسا تحديدًا، خصوصًا على مستوى اللغة، وقد كلّف بهذه المهمة أحد عتاة المسخ محمود المسعدي الذي ألغى التعليم الزيتوني وقضى على نحبه إما بالإبعاد إلى دواخل الوطن أو بالتكليف بوظائف ثانوية، ولم يسلم من ذلك حتى المنتسبون للحزب الدستوري الحاكم[1].

كما همشت اللغة العربية وانحصر تعليمها في بعض المواد التي تقوم على التلقين كالنحو والصرف والعروض والتربية الإسلامية، أما المواد التي تربّي في الانسان ملكة النقد والبحث والمقارنة والموازنة فقد كانت تدرّس بالفرنسية.

بجانب هذا عمل النظام يومها إلى نحت شخصية الزعيم الأوحد والمجاهد الأكبر والمحامي الأول، وذلك عن طريق إغفال ذكر المناضلين وتهميش الأدوار التي قاموا بها والتهوين من شأن الشخصيات التي قدمت وهو أمر – في تقديرنا – لا يرفع قيمة الزعيم بورقيبة ولا يضيف له شيئًا بقدر ما يسيء إليه وينبئ عن جهالة المحيطين به ممّن كلفوا بالإشراف على الأجهزة التربوية والثقافية والإعلامية.

٢ – طبيعة المشروع الثقافي للأستاذ أبي القاسم محمد كرو الذي بشَّر به، وروّج له، وهو مشروع نقيض لمشروع بورقيبة الذي أشرنا إليه أعلاه، هذا المشروع يقوم على ركيزتين:

أولاهما – الدفاع عن اللغة العربية وإشاعة استعمالها والترويج لها والإصرار على ذلك واستغلال كل المنابر أيًا كانت حدود تأثيرها، فعبر آلاف الأحاديث الإذاعية وآلاف المقابلات والمقالات وعشرات الكتب استطاع الأستاذ كرو أن يكون في طليعة الذين حافظوا على جذوة الانتماء الحضاري المتمسك بالهوية الوطنية والذاتية التونسية فـ«عداوة بورقيبة للعروبة والعرب لا أقبلها ونددت بها، ولعلي الوحيد في الإذاعة أيام كنتُ منتجًا بها أستخدم كلمة العروبة والعرب والعربي»[2] كما ذكر الأستاذ كرو في حديث له.

ورغم أن النظام البورقيبي كان في عز قوته إذ خرج منتصرًا على صالح بن يوسف وحقق الاستقلال واستطاع القضاء على ما كان يسميه مؤامرات ضده، فإنه لم يتمكن من

(١) مذكرات المناضل علي المعاوي: نشر المعهد الأعلى لتاريخ الحركة الوطنية، تونس ٢٠٠٧.

(٢) حصاد العمر، ٦، ١٨٤.

بناء شخصية وطنية متزنة وهو ما سيظهر لاحقًا في تيارات سياسية وإيديولوجية بعضها وصل إلى حد استعمال العنف والإرهاب وذلك لأن الشعوب التي تريد أن تبني شخصيتها الوطنية لا تبنيها على هذه الاعتبارات المتحولة والزائلة، بل تبنيها على الثوابت ومن الثوابت اللغة الوطنية[1] لهذا السبب بالذات تتنزّل الأهمية التاريخية لصدور سلسلة (كتاب البعث) في إطار التأكيد على الهوية الوطنية.

كتب المؤرخ الثبت محمد الصالح المهيدي في مقال له مؤرخ في ١٥ ماي ١٩٦٣ ولم ينشر للآن، وعثرنا عليه في أرشيفه بدار الكتب الوطنية متحدثًا عن ظروف نشأة (كتاب البعث): «.. كان جماعة نادي القلم ومن بينهم المطوي وكرو في حاجة إلى مجلة ينشرون على صفحاتها ما تجود به أقلامهم بعد توقف (الندوة) عن الصدور، لكن جماعة النادي انضم إليهم مدرسون تخرجوا من معاهد فرنسية وجمعتهم زمالة التعليم في مدرسة العلوية الثانوية بتونس، وكان من بين هؤلاء محمد المزالي وكان هؤلاء الأخيرون يعتقدون في قرارة أنفسهم أنهم أجدر من الزيتونيين بالقيام بمهمة التأليف والطبع والنشر، إلى جانب ذلك كانوا يدعون أيضًا بأن الزيتونيين الذين تخرجوا من المعاهد العالية بالشرق ليس لهم من المؤهلات حتى في ميدان التعليم ما يجعلهم يقفون إلى جانبهم في الميادين التربوية والثقافية، لذلك تسلل المدرسون في صف النادي بزعامة المزالي وقرروا أن ينشئوا مجلة شهرية، أما قضية إصدار الكتاب الشهري فقد عدَلوا عنها لأن أحد أعضاء النادي قال في جلسة من الجلسات التي عرض فيها المشروع على الجماعة وهو الأستاذ كرو أن باستطاعته أن يقوم بالمشروع وحده مهما كلّفه ذلك، وكان من نتيجة هذا التسلل بروز مشروعين كل واحد منهما له استقلاله، أحدهما بروز مجلة الفكر بداية شهر أكتوبر سنة ١٩٥٥ واستقلّ بها المزالي. وثانيهما بروز (كتاب البعث) الذي قام على كاهل الأستاذ كرو وحده حيث صدرت الحلقة الأولى منه في نفس التاريخ الذي صدر فيه العدد الأول من مجلة الفكر.

ومن الجدير بالملاحظة أن العدد الأول من (كتاب البعث) صدر في ظرف تستعد فيه البلاد لنيل سيادتها حاملاً عنوانًا هو في الأصل شعار الخطوة الأولى لبناء دولة

(١) حصاد العمر، ٦ / ١٥٩.

الاستقلال فـ«نداء للعمل» وإن كان عنوان كتاب إلا أنه كذلك عنوان يؤشر على طبيعة المهام الواجب إنجازها في مرحلة تاريخية يستعد فيها الشعب للأخذ بيده مقاديره بنفسه وهو ما دأب النظام الجمهوري الجديد على تسميته بالجهاد الأكبر.

ولا يفوتني في هذا الإطار الإلماع ولو بإيجاز إلى ما يفصل بين البعث الحزب والسياسة والبعث الكتاب والمضمون، فرغم أن للأستاذ كرو سابقة الانخراط التنظيمي والتأسيسي في حزب البعث، إلا أن السلسلة التي أسسها وحملت نفس الاسم لم تكن ملفقة ولا مروجة لمفاهيم وأطروحات إيديولوجية.

والناظر في قائمة كتاب (البعث) ومنشوراته التي بلغ عددها ٣٧ مؤلفًا يلحظ بجلاء أنها تناولت فنونًا ومعارف شتى (التاريخ، النقد الأدبي، الاقتصاد، القانون..) بأقلام كتّاب مختلفي المشارب الفكرية والانتماءات السياسية: (الطاهر معز، عثمان الكعاك، منير شماء، محجوب بن ميلاد، محمد المزالي، أحمد رضا حوحو، سليمان مصطفى زبيس، محمد المرزوقي..) تناولوا فيها كبرى المشاكل المطروحة إلى الآن على مجتمعاتنا: (المرأة، الديمقراطية، العلاقة مع الآخر: فرنسا مثلاً، الانتقال إلى المرحلة الصناعية، ضبط المفاهيم وتحديدها منعًا لانتشار البلبلة وأوهام السوق..) بعد بناء مغرب عربي لحمته الثقافية وسداه التنوع.

لكل ما ذكر نرجح أن (كتاب البعث) يستمد تسميته من جذره الثلاثي (ب. ع. ث) الذي يعني من بين ما يعني، الإيقاظ والحمل على الفعل وحل العقال والهبَّة والاندفاع والنهوض والتواصي وهي دلالات تجد لها ما يسوغها في السلسلة ومنشوراتها.

ولعل دراسة أكاديمية حول هذه السلسلة وظروف نشأتها ومضامينها وكتابها.. كفيلة بتمكيننا من رؤية أدق وأشمل لتاريخنا الثقافي.

لم يتوقف نشاط الأستاذ كرو في ميدان النشر باللغة العربية عند حدود السلسلة المشار إليها، بل أصدر مجلة «الثقافة» التي لم تكتب لها الحياة، لأن صاحب مجلة الفكر بما كان يمتلك من سلطة سياسية وقرب من أصحاب القرار حارب كل المجلات الثقافية، واستعمل كل الحيل والألاعيب للقضاء عليها بحيث لم يبق في البلاد سوى مجلته هو فقط، ومن النوادر أن الحزب الاشتراكي الدستوري الحاكم حاول إصدار مجلة ثقافية، إلا أنه لم

يُمكّن من ذلك بعد توزيع العدد الصفر منها.

ذاك هو الوضع الذي كان عليه النشر الثقافي في بلادنا وتلك هي الظروف التي كان الأستاذ كرو يتعامل معها للمحافظة على اللغة العربية التي هي قاطرة الهوية الوطنية والذاتية التونسية.

وثانيتها إشاعة الانتماء للوطن وذكر رجاله. فالوطن ليس قطعة من التراب، بل هو جماعة بشرية بالأساس ترتبط فيما بينها بوشائج نسجها التاريخ وصاغها الرجال، لذا فالروح الوطنية ليست علَمًا يرفع ولا نشيدًا يغنى ولا قصيدًا يتلى، بل هي الارتباط الوثيق بصانعي تاريخه والحاملين عبء النهوض به والمنافحين عن ذاتيته والمدافعين عن مصالحه، هذا الارتباط وسمُه إن شئت الالتحام لا يتأتى إلا بواسطة الإشادة بذكر كل من قدّم عملاً صالحًا للوطن وكل من ساهم في إحياء روح الانتماء والاعتزاز بأهله.

في هذه الرؤية لم يتوقف الأستاذ كرو عن التعريف بالمغمورين من أبناء الوطن وإحياء ذكرهم بنشر المقالات والكتب عنهم، ولا عجب في ذلك إن وجدناه أول من كتب كتابة علمية عن الطاهر الحداد الرائد المغبون، وهو فضل يذكره له الباحث المرحوم نور الدين سريّب الذي ذكر في مقاله أن أول من عرفه بالحداد هو الأستاذ كرو[1].

وقد تتالت الدراسات لتتناول أهم رموز النهضة الفكرية والاجتماعية في تونس كخير الدين باشا وعلي الورداني والخضر حسين وعبدالرزاق كرباكة وسليمان الحرائري وابن منظور والتيفاشي والحبيب ثامر.. وغيرهم، وبالطبع لم يغفل الأستاذ كرو مسقط رأسه قفصة وأعلامها فخصّها وخصّهم بدراسات تندّ عن الحصر.

ويهمنا في هذا الإطار الإشارة إلى نقطتين:

أ – عناية الأستاذ كرو بأبي القاسم الشابي حيث نشر عنه موسوعة في ستة مجلدات هي حصيلة أربعين سنة من الجمع والبحث والجهد المتواصل الذي لم يترك

(١) تاريخ المجتمع المحلي وثقافته، الجنوب التونسي نموذجاً دورتا ٢٠٠٠ – ٢٠٠١، ندوة تحت إشراف د. سالم لبيض، منشورات

شاردة ولا واردة عن الشاعر المذكور إلا أشار إليها وأوردها.

وللحقيقة فإن هذه الموسوعة إن كان مركزها أبو القاسم الشابي فإنها لا تخصّه وحده، بل هي موسوعة عن الحياة الفكرية والثقافية في تونس في النصف الأول من القرن العشرين لا غنى عنها لأي باحث أو دارس.

ب – الاهتمام برواد النهضة الفكرية في المشرق العربي وتأثيرها في المدرسة التنويرية التونسية. ولعل دراسة الأستاذ عن (نازلي هانم) تتنزل ضمن هذا التصور فقد كانت هذه الأميرة قطب الرحى في صالونها في مصر، حيث نبتت أهم الأفكار التي ستلعب دورًا أساسيًا في الحياة السياسية والثقافية، وحملها رواد من جُلاَّس صالونها كقاسم أمين ومحمد عبده وسعد زغلول... وهي كذلك في تونس لما قدّمت وتزوجت خليل بوحاجب ابن المصلح الكبير سالم بوحاجب وأحد أعضاد خيرالدين باشا، فقد جمعت الأميرة المصرية في صالونها في تونس البشير صفر وعبدالجليل الزاوش وعلي بوشوشة وعبدالعزيز الثعالبي والطاهر ابن عاشور.. أي أنها أثّرت في المجموعة التي عنها صدرت جرائد كالحاضرة والتونسي.. وغيرهما وأسّست جمعية الشبان التونسية والحزب الحر الدستوري التونسي وروّجت لإصلاح التعليم الزيتوني.

وهو في بحثه هذا يثبت لكل ذي عينين أن فصل تونس عن إطارها الحضاري واللغوي والتاريخي ليس إلا حرثًا في الماء ومآله إلى زوال طال الزمان أو قصر لأن: «العروبة ليست هدفًا استراتيجيّاً ولكنها موجودة في الشعور وفي الفكر»[1].

أما غزارة الإنتاج ودقته وتنوعه قد يعجز المرء عن الإحاطة به ولكن كلمة الوفاء ضرورة أخلاقية وسياسية عرفانًا بالجميل لمن استطاع بقلمه وبلسانه أن يحافظ على السند العلمي في هذه الأرض الطيبة.

قال الشيخ الطاهر القصار في وصف حال من لا ينتظر جزاءً ولا شكورًا.

والمـــــرءُ تَـــــرْفَعُ ذكـــــرَه آثـــــارُهُ
فـــيـــعـــيشُ بـــين مُـــمـــجّـــدٍ ومـــعـــظّمِ

(١) حصاد العمر ٦/ ١٠٦.

****

(*) أكاديمي ليبي من مواليد مدينة طرابلس عام ١٩٣٠ يكتب في مجالات الشعر والقصة والترجمة والنقد

هذا الرجل

أ. د. خليفة محمد التليسي(*)

هذا الرجل النبيل، هذا الأستاذ الكبير، هذا الصديق العزيز ربطتني به صداقة كريمة نبيلة توشك أن تبلغ في عمر الزمن نصف قرن، وجمعتنا هذه الصداقة الكريمة النبيلة على أجمل ما يجتمع عليه الأصدقاء من الود والصفاء والإجلال والتقدير المتبادل، وإني لأرجع اليوم بالذاكرة إلى بدايات هذه الصداقة وامتداداتها وما ترتب عليها في حياتنا الثقافية العربية، فأجد أنه قد تحقق لنا ولهذه الثقافة مكاسب كبيرة وعديدة يحتاج المرء في استعراضها والتذكير بها إلى دراسة مطولة يستدعي فيها الذكريات المشتركة، فلا تكفي فيها كلمة قصيرة خصصت أصلاً للتحية والتقدير.

وأدير بصري في الرقعة الواسعة التي هي الوطن العربي شرقيّه وغربيّه لأجد شخصية تشبه شخصية أبي القاسم كرّو في ما تحدد لشخصيته من خصائص، وما عرف به من صفات ثقافية، فلا أرى أحدًا ممن عرفت قد توافرت له هذه الخصائص التي تمثلت في مرجعيةٍ ثابتة راسخة لا ينكرها عليه أحد في التاريخ الثقافي التونسي قديمه وحديثه، ثم تنتقل هذه المرجعية وتتوسع وتجد امتداداتها وصلاتها وجذورها في التاريخ الثقافي المغاربي قديمه وحديثه، ثم تنتقل هذه المرجعية إلى دائرة أوسع هي دائرة علاقاته وصلاته الشخصية المباشرة بالحركة الثقافية العربية في قديمها وفي حديثها الذي تتحرك فيه، في إطار من الوشائج والصلات والعلاقات الثقافية الشخصية بأعلام الفكر والأدب والشعر وكل ما يتصل بشؤون الثقافة العربية في العصر الحديث. هذه الأطر الثلاثة التي تحركت فيها بطلاقة وسماحة شخصية أبي القاسم كرو فصنعت له هذا الحضور المشهود المذكور بكل تقدير واعتراف وإجلال من جميع من عرفوه وتحركوا معه وبرفقته في هذه الدوائر الهامة. فهو في هذا الباب شخصية فريدة حقًا استطاع أن يوفق بنجاح نادر بين

اهتماماته بالمغرب العربي واهتماماته بالمشرق العربي وهو أمر لم يتحقق إلا لقلة قليلة يأتي في طليعتها بلا جدال أبوالقاسم كرو.

عرفت الرجل في أول لقاء لنا بطرابلس بعد عودته من العراق متخرجًا من دار المعلمين العليا التي جمعته في رحابها إلى كثير من أعلام الحداثة الشعرية العراقية. وقد عمل الأستاذ أبوالقاسم كرو مدرسًا في مدارس طرابلس الثانوية. وكانت طرابلس في تلك الفترة تعجُّ بالمناضلين التونسيين الذين اتخذوا منها قاعدة لعملهم السياسي والنضالي لتحرير تونس. وكانت قضية استقلال تونس وبلدان المغرب قضية رئيسية شاغلة للأذهان والوجدان، باعثة على العمل الوطني، وكان واضحًا لدينا أن الأستاذ أبوالقاسم كان منخرطًا في العمل السياسي إلى جانب العناصر الوطنية التونسية التي اتخذت من طرابلس قاعدة لعملها. وكان إلى جانب هذا العمل الوطني الذي يقوم به في حماس كبير ونكران للذات يقوم بنشاطه الثقافي المعتاد في التعريف بالحركة الثقافية التونسية.

وكان في عشقه للشابي ومتابعته لمريديه والعاشقين له قد علم بأن هناك شابًا اسمه خليفة التليسي كان قد ألقى عن الشابي في سنة ١٩٥٠ في الموسم الثقافي الذي نظمته رابطة المعلمين حينذاك محاضرة عن الشابي، داخلة في إطار التعريف بهذا الشاعر وإذكاء الحماس لقضية تحرير المغرب العربي التي كانت الشغل الشاغل لنا كبلد مجاور. وكنت قد التقيت وحدي بشعر الشابي للمرة الأولى وأنا فتى في مطالع الشباب، فيما وقع في يدي من أعداد مجلة أبوللو كانت موجودة بمكتبة الأوقاف إلى جانب قصائد أخرى حصلت عليها من بعض المجلات المصرية والتونسية مثل الهلال والرسالة ومجلة الثريا التونسية وجريدة الأسبوع التي كان ينشرها نورالدين بن محمود. وقد جمعت لدي مجموعة من القصائد حفظت بعضها حفظًا في الذاكرة مثل إرادة الحياة وصلوات في هيكل الحب والنبي المجهول ونشيد الجبار، فكانت من نتيجتها تلك المحاضرة التي مثلت انطلاقتي الأدبية الأولى وأسست للعلاقة الوجدانية بيني وبين تونس الحبيبة، كما كانت الهيكل الذي أقيمت عليه من بعد دراستي المعروفة باسم «الشابي وجبران» وقد جمعنا حب الشابي

وتقدير عبقريته في مناسبات عديدة منها أربعينية الشابي التي شاركت فيها بدراسة عن (الشابي ناقدًا) وخمسينية الشابي التي أعلنت فيها رأيي المعروف في قضية الشعر العربي في بلاد المغرب العربي وقلت فيها إن الشابي هو أول من أسكن الشعر في بلاد المغرب العربي.

وقد كان الشابي على الدوام محورًا رئيسيًا في أحاديثنا الأدبية. ولم يحدث في تاريخ الأدب العربي الحديث ولا القديم أيضًا أن تخصص أديب واحد في شاعر واحد يعكف عليه يدرسه ويتتبع تراثه وآثاره وأعمال الدارسين له من عرب وأجانب كما فعل الأستاذ أبوالقاسم مع سميه الشاعر أبي القاسم الشابي، وهذه ظاهرة حضارية متقدمة على عقلية بعض المتخلفين الذي يرون في مثل هذا التخصص محدودية في الأفق.

وهو أمر لا يحسن تقديره، إلا من يعرف أن التخصص في فرد أي فرد عبقري، هو تخصص في الكيان الفكري الشامل الذي أنتجه بعصوره المتقدمة عليه، وعصره الذي يعيش، وأثره في العصور التالية له، وهو أمر قد يتجاوز أحيانًا عمر الفرد الواحد وجهد الفرد الواحد، ومن هنا نكرر القول بأن جهد أبي القاسم الأدبي النقدي التاريخي البيبلوغرافي يفوق جهد المؤسسات المتخصصة التي لن تقوم به إلا بتكاليف باهظة ولجان إتكالية.

وقد توج هذا الجهد بذلك العمل الموسوعي الذي ضم كل أعمال الشابي الشعرية والنثرية ورسائله وبعض ما كتب عنه، وبيبلوغرافية علمية نادرة شاملة نشرتها مؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، وكان من وراء هذا العمل الضخم أبوالقاسم كرو الذي أقام نصبًا تذكاريّاً في المكتبة العربية للعبقرية الشعرية التونسية ممثلة في أبي القاسم الشابي العظيم. وهذا العمل وحده يدل على نضال أبي القاسم كرو والمكاسب التي يحققها لتونس من وراء تمثيله لها في الساحات العربية ويستحق فيه بصدق انحناءة تقدير من كل التونسيين المنصفين المقدرين لجهود هذا الرجل المحب المخلص في حبه ووفائه لبلاده. وأشهد أني ما جلست إليه مرة وما سمعته متحدثًا أو

محاضرًا، إلا وكان التعريف بتونس وحركتها الثقافية وأعلامها هو شغله الشاغل، وقد رأيته في أكثر من مناسبة يفتح الصدر ويفسح المجال ويعرف بأعمال وإبداع بعض من لا يلتقي معهم فكريّاً، ولكن تونسيته وديمقراطيته وتقديره للحرية الفكرية تكسبه هذه الرحابة التي يتمتع بها في التعامل مع كافة التيارات والاتجاهات.

لقد كان الشعراء القدامى يعيشون في رواتهم الذين يروون عنهم بما يحقق لهم الامتداد والتواصل والخلود، ولولا الدور الذي قام به الرواة كذاكرة شعرية حافظة، لما وصل إلينا هذا الرصيد الحضاري الضخم. وقد قام أبوالقاسم كرو بدور (الحافظ) لتراث الشابي. وقد كان الشابي محظوظًا في أبي القاسم كرو الذي أحبه وأخلص له بصورة لم تتحقق لأي شاعر عربي معاصر، فقد عاش إلى جانب الشابي شعراء عرب كبار وبعضهم مات مثله في غضارة الشباب مثل فوزي المعلوف ولكن أحدًا لم يُعنَ بهم عناية أبي القاسم كرو بشاعره الخالد العظيم.

ولم يقتصر جهد أبي القاسم كرو على التعريف بالشابي والعناية بتراثه، فإنَّ سجلَّ مؤلفاته يكشف عن شخصية ثقافية متعددة الاهتمامات، متنقلة بجدية ومنهجية بهذه الاهتمامات إلى أعلام النهضة الحديثة وأعلام الثقافة التونسية، إلى اهتمام بالتراث القديم وتحقيقه ودراسات لغوية ومشاركات متعددة مختلفة لا تقع تحت الحصر معروفة للجميع، إلى مشاركات إبداعية ومتابعات فكرية للواقع المعاصر في تونس يكشف عن عقلية متحررة تعيش عصرها في غير تزمت ولا انغلاق تأخذ عنه وتعطيه في غير ما عقد أو أحكام مسبقة تصده عن التفاعل مع التيارات الفكرية الحديثة. على أن هذا الجهد التأليفي المتعدد الجوانب والاختصاصات لا يكفي وحده في الحكم على شخصيته، ولا بد للمنصف من أن يذكر بأن الجهد العظيم الذي قام به أبوالقاسم كرو فردًا، أي وحده، تعجز عن القيام به مؤسسات من ورائها الدعم المعنوي والمال الوفير. لقد كان أبوالقاسم كرو في نظر المنصفين لجهوده، المقدرين لها مؤسسة ثقافية وحده في نهوضها بأعباء التعريف بتونس

الثقافية في الداخل والخارج والدفاع عن الوجود الثقافي العربي فيها وفي المغرب العربي. ويومَ تُنصِفُ هذه الأمة رجالَ الثقافة وتقدر معنى النضال في سبيل الثقافة العربية، فإن مكانًا في الصدارة ينتظر أبا القاسم كرّو بحق وجدارة وكفاءة نادرة.

أقول لن يتحقق له حجمه الكامل إلا باستحضار ذلك الجهد النشيطي الضخم الذي قام به أبوالقاسم على الساحة التونسية ثم الساحة العربية، والذي يتمثل في ذلك النشاط الثقافي العام الذي قاده أو شارك فيه أو كان أحد منظميه، من مؤتمرات وندوات ومحاضرات وملتقيات يعترف له الجميع فيها بقدرته التنظيمية الفائقة، يضاف إلى ذلك تلك الدائرة الواسعة من العلاقات التي تهيأت له بسبب هذا النشاط مع أعلام الأدب والفكر العربي المعاصر في الوطن العربي، فليس هناك بلد عربي لم يعرف لأبي القاسم كرو مشاركة له في نشاط، وما من علم أدبي أو فكري إلا وقامت له صلة به، وأقدر أنه يتوافر في مكتبته على عديد من رسائل أعلام العصر إليه، وهو يذكرنا بأعلام النهضة العربية الحديثة في علاقاتهم الحميمية الودية التي تبدو عبر المراسلات والزيارات الأمر الذي افتقدته البيئات العربية الحديثة. وما من شك في أن هذه المراسلات إضافة إلى الذكريات تجعل من أبي القاسم كرو سجلاً ثقافيًا ضخمًا لا بالنسبة إلى تونس وحسب، بل وللبلدان العربية قاطبة. وليس من المبالغة في شيء، ولا من الإفراط في المجاملة أن تقول إنه جاءت فترة لم يكن المثقفون يعرفون تونس إلا من شعر الشابي العظيم، ومن جهود أبي القاسم كرو في التعريف بهما معًا أي بالشابي وتونس. وإذ كان من طبيعة الأشياء أن تشعر الأجيال الجديدة بقدرتها على تجاوز الأجيال القديمة وأن تسعى الآن لرفع أعلام تونس الثقافية في كل مكان، فإن من طبيعة الأمور أن لا تنسى أولئك النفر الذين عملوا لكي يضعوا خطوها على الطريق القاصد وهيأوا لها المكان الذي يمكن أن يركزوا فيه أعلامهم عالية خفاقة.

وفي هذا الباب فإن تقديرًا خاصًا ينصرف إلى أبي القاسم كرو، هذا التونسي المغاربي العربي الإنساني الذي يتطابق عمله التأليفي مع نشاطه وتنشيطه، ليصب كله في

مصب واحد هو خدمة الثقافة العربية والغيرة عليها وتوثيق صلة الأجيال بها واحتضان مواهب هذه الأجيال من رجالية ونسائية. وفي هذا الباب تبرز شخصية أبي القاسم كقوة دفع واحتضان لهذه المواهب التي أخذ بيدها من حيث المشاركات أو التشجيع على النشر، وله تلاميذ في كل مكان يذكرون فضله عليهم ورعايته لهم.

أما علاقته بليبيا فقد كانت وما تزال من أقوى العلاقات. ويحفظ له أدباء ليبيا ومثقفوها أجمل الذكريات عن الفترات التي أقامها بينهم سواء في الفترة الأولى التي وفد فيها على ليبيا مدرسًا في مدارسها الثانوية أو الفترات التالية التي عمل فيها مديرًا للمركز الثقافي التونسي، وقد كانت فترة قيامه على هذا المركز من أحفل الفترات بالنشاط الثقافي وقد كانت شخصية أبي القاسم كرو شخصية محورية يجتذب إليها المثقفين. وقد كانت صداقاته وحدها كافية لأن تملأ المركز بالمترددين عليه المداومين على نشاطه كما شغل الأستاذ أبوالقاسم منصب المدير العام للدار العربية للكتاب لمدة سنة، وكان عضوًا بمجلس إدارتها لمدة سنتين في المرحلة الأولى، كما كان عضوًا في لجنة المفاوضات من أجل إنشائها، فهو مشارك فعال في التأسيس لهذه الدار التي ما تزال قائمة كمؤسسة ثقافية فريدة ومشتركة بين البلدين.

وقد كان أبوالقاسم رفيقًا لي في المرحلة الأولى من بناء الدار، كما كان رفيقًا لي في أكثر الاجتماعات والمؤتمرات والملتقيات والندوات واللجان المشتركة التي كانت تعقد بين البلدين، كلما اتجهت النية إلى التعاون والتنسيق الثقافي، فهو في هذا كله من أصدقاء العمر ورفقاء الخندق الواحد.

إن أبا القاسم كرو قيمة ثقافية عالية وشخصية أدبية راقية، وباحث موضوعي جاد، ومسؤول ملتزم، وهو رجل يمثل أقصى درجات الانضباط فيما يلقى عليه من مسئوليات أو فيما يأخذ على نفسه من التزام، إلى قلب ودود يفتح نفسه لكل الناس، وذهن منفتح يعي عصره ويعيش في واقعه، وعقلية مستنيرة فيما تتصدى له من قضايا اجتماعية تبدو في كثير من مقالاته التي يرصد فيها الواقع الاجتماعي التونسي، أو العربي، وهو إلى جانب

ثقافته العربية الطاغية على تكوينه، يحفظ للثقافات العالمية مكانها من نفسه، ويتفتح عليها في غير خوفٍ ولا عقدٍ ولا تحفظٍ ويدرك من جوهرها الحضاري ما لا يدركه الذين يلوكون بعض الكلمات الأجنبية يدارون بها جهلهم، وهو في ذلك يلتزم النهج الذي التزمه شيخه الصغير الكبير أبوالقاسم الشابي.

ماذا أقول؟ كان بودي أن أتناول جانبًا واحدًا من جوانب شخصية هذا الصديق، فوجدتني مأخوذًا بالحديث الشامل عنه، آخذ شخصيته وأعماله جملة واحدة، وأنا واثق من أي جانب تأخذ في شخصيته المتعددة إنما تنتقل فيه من الجانب الغني إلى الجانب الأغنى وأنت في جميع الأحوال الرابح الغانم.

ألم أقل لكم في بداية المقال أني أقلب بصري في هذه الساحة العربية لأجد صدرًا موشحًا بالأوسمة كصدر أبي القاسم في معاركه ونضاله واستماتته وانخراطه والتزامه بقضايا الثقافة العربية فلا أرى أحدًا. ربما وجدت من ينافسه على صعيد الاهتمام المحلي، كأن يهتم العراقي بالعراق والسوري بسوريا والمصري بمصر والليبي بليبيا، أما أن تجد هذه الشخصية في احتضانها لتاريخ الحركة الثقافية العربية في حديثها خاصة كهذا الاحتضان الذي نلقاه عند أبي القاسم والذي يوفق فيه ببراعة نادرة بين اهتمامه بتونس ثم بلدان المغرب، وبلدان الساحة العربية، فأنا لم ألتق به في غير هذه الشخصية النادرة التي هي شخصية أبي القاسم كرو. لقد كان أبوالقاسم تونسيّاً كأجمل وأعرق ما تكون الصفة التونسية، كما كان مغاربيّاً بأوسع ما تدل عليه هذه الكلمة من معنى، وهو فوق هذا وذاك عربي بأكثر ما تعني كلمة عروبة من أصالة وجذور عريقة.

وفي سيرة أبي القاسم كرو أمثلة من العصامية والقدرة على تجاوز الظروف الصعبة في سبيل التكوين الثقافي وبناء الشخصية يصح أن توضع نموذجًا لكثير من الشباب، يتأسون بها في كفاحهم من أجل تحقيق شخصيتهم وتأكيدها، ولو عكف الأستاذ أبوالقاسم على كتابة سيرة ذاتية، لقدم لنا عملاً يضاف إلى أعماله الأخرى ليكتمل إطار الصورة التي عاشتها هذه الشخصية متشابكة ومتداخلة ومندمجة في أحداث عصرها

السياسي والثقافي والفكري والأدبي في الدوائر الثلاث التي تحركت فيها شخصيته الثقافية أي التونسية والمغاربية والقومية، وما من شك في أنه يتوفر على ذخيرة كبيرة من الذكريات التي تكون مادة حية لهذه السيرة، فما من أديب أو مفكر عربي مرّ بتونس إلا وكان لأبي القاسم كرو معه لقاء وحوار، وما من أديب أو فنان من هؤلاء إلا ووضع في ميزان أبي القاسم كرو بما يعطيه حقّه من التقييم، فلم يعرف عنه الانبهار بالأسماء اللامعة قدر انبهاره بالعبقريات اللامعة والمواقف المتألقة والشخصيات النادرة في علمها وسلوكها. وخزينته من الصور الذهنية والفوتوغرافية عامرة تسعفه بأن يقدم إلينا عملاً من أعماله الفائقة وإنا لمنتظرون.

أطال الله في عمر الصديق العزيز ومتعه بالصحة والعافية، وشكرًا على ما قدم لنا جميعًا من أعمال جليلة. يذكرها أحبابه وتلاميذه بعرفان عظيم، وتحية من القلب إلى هذا الرجل الكبير القلب.

****

(*) شاعر وكاتب وخبير إعلامي عراقي.

أبوالقاسم محمد كرو

ذلك الفتى العربي: شهادة صديق

أ. د. زكي الجابر(*)

إذن هو مِثْلُنا يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ويعشق، إنه ذلك الفتى المطوق بياسمين تونس، يطوف أبهاء دار المعلمين العالية ببغداد، يحمل كتبه، ويستمع، ويناقش إنه مثلنا. إنه حديثنا.. وحديثهن.

لقد كان أبوالقاسم محمد كرو مِثْلنا، ولكنه مختلف. هو مِثْلنا في الهم العربي، والعمل السياسي، وتذوق الأدب، ولكنه يختلف بقامته الفارهة وبثقافة آتية من هناك تحمل رذاذ المتوسط، وإيقاعات أبي القاسم الشابي.

واعتركتنا دار المعلمين العالية طلابًا يافعين نحلم بصناعة مستقبل عربي يتسع لأحلام المتعبين ويحيلها خبزًا ووروداً وقصائد. وإذا ما تساءلت عن هذه الدار فأجيبك إنها تلك التي تمخضت عبقريتها عن عبقريات بدر السياب ونازك الملائكة وسليمان العيسى وعبدالوهاب البياتي.. وكانت «ساعة يوم الإثنين» فيها مشهودة حيث ينتصب على منصة قاعتها العريضة صفوة أهل الفكر يطرحون آراءهم للنقاش والمساءلة في جو يختلط فيه لهيبان: الحماس السياسي والحماس الأدبي. وفي هذه الدار ولدت جمعية الثقافة العربية، التي كان من أقطابها أبوالقاسم محمد كرّو.

ولم تكن تلك الجمعية غير تجمع عربي قومي، ينتمي إليها ويتفاعل في أنشطتها ومعها أولئك الفتية الذين تشغلهم قضايا العرب في مشرق الوطني الكبير ومغربه، أولئك الذين يعيشون تطلعات الجزائر وتونس وفلسطين وغيرها من أقطار العرب. وما هذه التطلعات إلا تشوقاتهم ونضالاتهم لتحقيق الوحدة العربية، والتخلص من التبعية والعيش تحت رايات الكرامة والعدالة الاجتماعية.

لقد كان أبوالقاسم محمد كرو في المعركة يمسك بيده جمرة العشق العربي، ويتردد على جريدة «اليقظة» المسائية البغدادية، يحمل إليها نشاطات الشباب القومي العربي الفكرية والسياسية لتُسطَّر على صفحات تلك الجريدة لتتناقلها بعد ذلك الألسنة في مقاهي بغداد ومنتدياتها، ومن ثم إلى التجمعات العربية الوحدوية في كل أرجاء الوطن العربي وخارجه.

وإذا ما قلت إن أبا القاسم كان في المعركة، فإنني أعني في الصميم منها لا حواشيها وأطرافها. أما مَثَله الذي يسير في كينونته مسرى الدماء، فقد لقنه عن أستاذه الدكتور محمد مهدي البصير، لقد حرم الله البصير نعمة البصر، ولكن وهبه نفاذ البصيرة، وصدق السريرة، وحاسة الذوق الأدبي الرفيع، والإلقاء الجميل، وبهذه الصفات المتميزة انغمر في ثورة العشرين العراقية ضد الإنجليز، فكان شاعرها وخطيبها وقائدًا من قادتها. وفي كتابه «خطرات» ذهب إلى القول بأن من السهل أن تكون شاعرًا ممتازًا، أو أديبًا بارعًا، وسياسيًا ماهرًا، ولكن من الصعب أن تكون رجلاً. لقد لقن أبوالقاسم ذلك وعاشه، فكان رجلاً بكل ما تحمل الرجولة من معاني المروءة والشهامة والإيثار والثبات على المبدأ والدأب على النضال والصبر على الشدائد.

لست أنسى ذلك اليوم الذي كان فيه على أبي القاسم محمد كرو أن يلقي محاضرة عامة عن أبي القاسم الشابي حين وافاه النبأ الفاجع، نبأ وفاة والده بتونس. فلم يستطع الاحتمال، وهو الأديب المرهف، السيطرة على مشاعره، فدفن رأسه بين كفيه في حديقة «الدار» ليخفي دموعه التي لم تكن تخفى على أصدقائه وأحبابه. وظل على هذه الحال ساعات الصباح وشطرًا من المساء حتى إذا حان وقت المحاضرة، ارتشف دمعه، ومسح وجهه وارتقى المنصة بكل حيويته ورونقه ليحاضر لمدة تجاوزت الساعتين متحدثًا عن حياة الشابي وشعره مستشهدًا مترنمًا بأكثر من قصيدة لم تكن قد طرقت بعد آذان متتبعي الشعر التونسي في العراق. ولقد كان للمحاضرة صداها وجدواها، حتى أنك لا تجد بعد ذلك أحدًا من متتبعي الأدب وعشاقه إلا وهو يردد بعضًا من رائية الشابي: «إذا الشعب

يومًا أراد الحياة...»، أو داليته: «عذبة أنت كالطفولة...،» أو سينيته: «أيها الشعب ليتني كنت حطابًا...» وربما لم يكتف البعض بترديد السينية مع نفسه، بل هتف وغدا على تهيؤٍ لكي يهوي بفأسه على الجذوع!

لقد كانت جمعية الثقافة العربية مدرسة قومية عربية وكان كاتبها العام، ذلك الفتى أبوالقاسم محمد كرو، يعكس إيمانه بأمته ونضالاته من خلال أنشطتها، ومن خلال ممارساته بين صفوف الشباب العربي. ولقد تقدم السن بذلك الفتى ولقيته خلال الثمانينيات في تونس فوجدته كما عهدته في تلك الجمعية في الخمسينيات يحمل الهم ذاته، ويحلل مشكلات الأمة بما اكتسب مع السنين من حكمة التجربة، ودقة التبصر، ورشادة القراءة. وما أعجبني فيه هو أن الحماس ما زال ذلك الحماس وما زال ماسكًا على جمرة العشق العربي. وإلى كل ذاك فقد وجدته وعلى محياه ذلك الإقبال على الحياة، وعلى ثغره تلك الابتسامة الساخرة. لقد كان أبوالقاسم مثلنا.. ويختلف عنا.. واختلافه كان وسيظل مثار حديثنا.. وحديثهن، وإني لأراه من بعيد يهمس إلينا وإليهن قول شاعر إنسان:

لا تسألوا عمَّن حبيبي بينكم فإذا سألتم، كلكم أحبابي!

****

(*) شاعر سوري من مواليد بانياس عام ١٩٢٨، له العديد من الدواوين والمؤلفات، وفاز بعدد من الجوائز منها جائزة أفضل ديوان عام ١٩٩٨ من مؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري.

ليست رسالة وداع!..

أ. شوقي بغدادي(*)

ليست رسالة وداع يا أبا القاسم، فلأنت في حنايا الوجدان كما نسمة الحياة، لا تتخلَّى عن نزهتها في جنباتها حتى يهمد الجسد همدته الأخيرة. أتذكرك الآن كما أتذكر طفولتي وشبابي.. فما أبعد، وما أحلى!..

دعني إذن أحدث الناس قليلاً عنك كما عرفتك، أنا الدمشقي، وأنت التونسي، فكيف صار والتقينا؟.

في أوائل الخمسينيات أو في أول عام منها تحديدًا كما أذكر وكنت وقتئذٍ ما أزال طالبًا على مقاعد كلية الآداب قبل تخرّجنا بعام على ما أذكر، وصلتني رسالة من بغداد، ولم أكن أعرف أحدًا فيها معرفة شخصية، فقرأت أول ما قرأت اسم المرسل وكان: «أبوالقاسم محمد كرّو». وكان العنوان: الدار العليا للمعلمين – العراق – بغداد. فمن كان صاحب هذا الاسم الغريب؟!

قرأت الرسالة، فإذا صاحبها طالب تونسي يتخصص في الدار العليا للمعلمين في بغداد، يقول لي فيها إنه قرأ بعض كتاباتي في الصحف والمجلات – اللبنانية على الأغلب مثل مجلة «الآداب» المعروفة والتي بدأت بالنشر فيها شعرًا وقصصًا قصيرة وأنا بعد طالب جامعي – ، فقرر مراسلتي بهدف إنشاء علاقة مودة وصداقة بين طالبين عربيين نشيطين؛ واحد من دمشق والآخر من تونس – وانسجامًا مع أفكاره القومية العربية كما فهمت فيما بعد.

لم أعد أذكر محتويات تلك الرسالة بالتفصيل غير أنني أذكر أفكارها ومشاعرها الأساسية التي كانت تعبر بوضوح عن شخصية إنسان طيب، مثقف، طموح، ذي روح قومية أصيلة.

كانت الرسالة بالنسبة لي آنذاك مفاجأة طريفة مُبهجةً تدعو إلى الاعتزاز حقًا، فأجبته

عليها برسالة مماثلة. وهكذا نشأت صداقة من بعيد لبعيد بين طالبين لا يعرف أحدهما الآخر معرفة شخصية، وكانت بداية لعلاقة نادرة بالفعل كنت معتزًا بها كل الاعتزاز.

وبعد أقل من عام حدثت المفاجأة التالية حين أخبرني صديقي التونسي «أبوالقاسم محمد كرو» أنه قادم إلى دمشق ضمن وفد من زملائه وزميلاته بدعوة من جامعة دمشق. وحضر الوفد فعلاً، وتلاقينا، ويا له من لقاء!.

كان أبوالقاسم محمد كرو كما تخيلته من حيث المضمون، بل ومن حيث الشكل أيضًا، شابًا أسمر اللون، ممتلئ الجسم قليلاً، لطيفًا، دقيقًا في تعامله مع الناس يفهم آداب السلوك الاجتماعي – أصول الأتيكيت – جيدًا ويصر على تطبيقها في كل مجال وبخاصة على المائدة عند الأكل والشرب، بل لقد كان ينتقد غيره من الزملاء الذين لم يكونوا يراعون هذه الأصول تمامًا، كان واضحًا أنه شخص جِدِّي، مجتهد، متتبع لأمور الثقافة والسياسة في الوطن العربي كله حتى لقد بدا لي أكثر نضجًا مما كنت أتصوره، وبالتالي أكبر سنًا مما كان عليه فعلاً.

قضينا إذن معًا فترة إقامة الوفد العراقي في دمشق، وزرنا معًا معظم معالم المدينة التاريخية والشعبية، فازددت معرفة وإعجابًا به، وحين طلب مني الأستاذ المشرف على النشاط الجامعي عندنا آنذاك وكان اسمه على ما أذكر الدكتور نعيم اليافي – المشاركة في الحفل الخطابي ممثلاً عن طلاب الجامعة بقصيدة من نظمي وافقت على الفور. وكنت وقتها شاعرًا معروفًا في الأوساط الجامعية، وخارجها بعض الشيء، وحين خلوت إلى نفسي للكتابة أذكر أن شخص صديقي التونسي كان الأبرز في خيالي الشعري وبخاصة في أبياتها الأولى:

فـي فـــؤادي نـــزلتَ أكـــرمَ زائـــرْ
يـــا أريـــجًـــا من مـــاء دجـــلـــةَ عـــاطِـــرْ
فـــاسْـــتَـــرحْ يـــا أخي ووسِّـــد ضـــلـــوعي
ســـمـــرةَ الخَـــدِّ وائـــتلاقَ المحـــاجـــر
أنـــفـــضتَ الـــغـــبـــارَ، أم لـــيس في ثـــو

بكَ شيءٌ منه كأن لم تُسافِر
وكأن لم تغيّر الناس فينا
وكأنْ في دمشق نفسَ المناظِر
وكأنَّ الصحراءَ لم تكُ إلا
جَنّةً، والطَّريقَ نزهةُ عابر

حتى لكأنني كنت في هذه الأبيات أتوجه إلى شخص بعينه، بل حتى ليمكن القول إنه ما كان ممكنًا إنجاز تلك القصيدة بهذه السهولة في أقل من يومين، وبتلك الروح الحميمة المؤثرة لولا تلك العلاقة الفريدة من نوعها التي كانت تربطني بأحد أفراد ذلك الوفد الشقيق ألا وهو: أبوالقاسم محمد كرو. والطريف في الأمر كما أراه الآن أن ذلك الصديق كان تونسيّاً، وليس عراقيّاً، ومنذ تلك الأيام تعلمت بفضل تلك العلاقة الجميلة ميدانيّاً كيف نحس ونفكر بعمق أننا عرب بقدر ما نحن سوريون مثلاً أو تونسيون أو عراقيون..

سافر الوفد، وعاد أبوالقاسم إلى جامعته في العراق، غير أن حرارة المحبة ظلت تدفىء وتؤنس قلبيْنا عبر رسائلنا المتبادلة، ثم عرفت فيما بعد أنه عاد إلى بلاده بعد تخرجه للعمل هناك، ثم فاجأني بإهدائي نسخة من ديوان أبي القاسم الشابي «أغاني الحياة» المنشور عام ١٩٥٥ بسبب معرفته أنني كنت من محبي شعر الشابي والمعجبين به من دون أن يكون لدي ديوانه. ثم وصلتني بعدها بعض الكتب التي صدرت في تلك الأيام ضمن سلسلة ثقافية أصدرها أبوالقاسم تحت اسم «كتاب البعث»، وكانت كتبًا طريفة مثيرة بالنسبة لزمانها، ويومًا بعد يوم عرفت أن أبا القاسم يواجه بعض الصعوبات في بلاده بسبب أفكاره القومية، وأن سلسلة (كتاب البعث) قد توقفت عن الصدور، غير أن أبا القاسم لم يتوقف عن متابعة نشاطه الثقافي بأشكال متنوعة بين التأليف والتحقيق والمحاضرة ولم نلتق بعدها إلا بعد ما يقارب العشرين عامًا حين زرت تونس لأول مرة في حياتي عام ١٩٥٤ على ما أذكر ضمن وفد الكتّاب السوريين المشاركين في أول مؤتمر للكتّاب العرب يعقد في تونس.

هناك التقيت من جديد بالصديق الذي صار قديمًا، وفاجأني مرة أخرى بأنه هو

الذي روَّج قصيدتي التي كتبتها مستلهمًا الأحداث العتيقة التي جرت في تونس خلال معارك التحرير من الاحتلال الفرنسي في أواسط الخمسينيات وكنت قد نشرتها وقتئذٍ، ولم أكن واثقًا أنها وصلت إلى تونس، فإذا بي أعرف أن أبا القاسم محمد كرو قد طبع القصيدة إياها على الآلة الكاتبة وسحب عليها عددًا من النسخ وزعها على بعض معارفه كي يساعد في التعريف بي للقراء التوانسة الذين لا يعرفونني، ومن جديد لمست روح الوفاء لدى ذلك الصديق الأصيل وأدركت أن علاقتي به لم تضعِْ سُدًى بالرغم من السنين الطويلة التي مرّت على افتراقنا.

عدت إلى تونس بعدها زائرًا أكثر من مرّة، وكان بعض تلك الزيارات قد تم بفضل التدخل الشخصي لأبي القاسم لدى المراجع المسؤولة. وفي كل زيارة كان أبوالقاسم يتعمد أن يشير إلى قصيدتي المسماة «تونس» والتي تبدأ بهذين البيتين:

من هنا ألمحُها خضراءَ غَشَّاها الدَّمُ
ضجّةٌ، يعتصرُ الأرضَ صداها الملهِمُ

وبعدها صرنا لا نتلاقى إلا في بعض المؤتمرات الثقافية العربية التي كنا ندعى إليها معًا، أو حين كان يزور دمشق في مهمة من المهمات الثقافية الكثيرة التي كان أبوالقاسم يملأ بها حياته دون كلل أو ملل كما يقولون.

وحين زرت تونس في أواخر العام الماضي ١٩٩٦ بدعوة من كلية آداب – منوبة في العاصمة، خابرته هاتفيّاً فرد عليَّ مرحبًا ولكن بلهجة حياديّة جدًا فاستغربت لهجته، وصمته عن الاتصال بي في فندقي، وحين عدت إلى دمشق وصلتني بعد فترة قصيرة رسالة صغيرة منه يشرح لي أسباب عدم اتصاله بي معتذرًا عن تقصيره بسبب مرضه «القاتل» إذ تعمد ألا يخبرني بالحقيقة حتى لا يفسد عليّ إقامتي على حد قوله!..

يا إلهي!.. لكم تأثرت من تلك الرسالة الصغيرة الموجعة!.. هكذا إذن يا أبا القاسم..

لقد أردت أن تُعاني وحدك وألا تخبرني بذلك حتى لا تفسد عليّ إقامتي.. وأية إقامة هذه وأنت تعاني ما تعانيه من عذاب وأنا لا أعرف شيئًا ولا أسهم بمواساتك!..

☆☆☆☆☆

هذا هو «أبوالقاسم محمد كرو».. الإنسان الذي وهب حياته لخدمة الثقافة العربية على وجه العموم، والتونسية على وجه الخصوص، وكان دائمًا مثالاً للثقافة في العمل، والنظام والمثابرة بالرغم من كل المتاعب والمصاعب التي كانت تعترضه وما أكثرها!. ويكفيه فخرًا أنه أول من نشر كتابًا هامّاً عرف فيه بالشاعر التونسي الموهوب «أبي القاسم الشابي» مع مختارات من شعره ونثره تحت عنوان: «الشابي: حياته وشعره» والذي ظهرت طبعته الأولى عام ١٩٥٤، أي قبل صدور ديوان «أغاني الحياة» بعام كامل – صدر ذلك الديوان عن «دار الكتب الشرقية» في تونس وطبع في مصر ونشر سنة ١٩٥٥ – ثم توالت كتبه حول الشابي مثل: «كفاح الشابي: الشعب والوطنية في شعره» والذي صدر عام ١٩٥٤ أيضًا، وتوّجت أخيرًا هذه الجهود في إسهامه الكبير بتحرير وإنجاز المجموعة الكاملة لإنتاج «الشابي» وطباعتها كأجمل ما تطبع به المجلدات في موضوعات أخرى متنوعة وعشرات المحاضرات التي قدمها على المنابر الثقافية العربية المختلفة وكان فيها دائمًا صاحب الهم الوطني والقومي العظيم، والتوجه الثقافي الأوسع والأعمق!

☆☆☆☆☆

ها أنذا الآن أستعيد ذكراه كما رأيته لأول مرة في دمشق قبل ما يقارب النصف قرن، شابًا دمثًا، أنيسًا، حاضر الابتسامة، مهذبًا دقيقًا في كل ما يصدر عنه من حديث أو سلوك، وفيّاً لأصدقائه، محبّاً لهم، كما هو للقضايا الكبيرة التي شغل بها حياته.

أستعيد هذه الذكرى، عبر شريط السنين الطوال، وقد هَرِمنا معًا، واقتربت نهايتنا، دون أن نحقق ما راودنا من أحلام جميلة، وما نذرنا له أنفسنا من طموحات كبرى، فأقول لنفسي: ترى.. هل ضاعت إذن حياتنا سدى؟.. فإذا بي، وأنا أتذكر ما أتذكر أجيب بارتياح: أبدًا.. لم تضع حياتنا سدى.. ولنا أسوة بجميع الحالمين عبر التاريخ الذين كرسوا وجودهم لتحقيق تلك الأحلام دونما جدوى كبيرة، ولكي أقول لصديقي أبي

القاسم: المهم أيها العزيز هو أن يكون الإنسان منسجمًا مع نفسه فيما يفكر فيه ويؤمن به ويعمل له، فيحترم الحياة حقّاً لديه ولدى الآخرين فلا يدع للكسل واليأس واللامبالاة منفذًا إليه يبدد قواه، ويشل همته عن العمل عن إنماء الحياة وازدهارها، لديه ولدى الآخرين سواء أأخفق أم نجح في تحقيق ما كان يصبو إليه.. ولقد كنت يا أبا القاسم محمد كرو بالتأكيد واحدًا من هؤلاء الحالمين المكافحين العاملين دونما توقف، ولهذا فإن حياتك لم تكن هباءً فلقد ملأتها حتى الحافة بكل ما هو مفيد ومخلص وجميل.. وهذا كافٍ.. مدّ الله في عمرك ووقاك من كل سوء!.

****

١ - أبوالقاسم محمد كرو، دراسات عن الشابي، الدار العربية للكتاب، طبعة جديدة (١٩٨٤) تونس.

٢ - أبوالقاسم محمد كرو، المرجع السابق، ص٤٣ مقدمة الطبعة الثانية.

(*) أكاديمي وأديب تونسي من مواليد القيروان عام ١٩٥٦ يرأس حاليًا اتحاد الكتاب التونسيين. له العديد من المؤلفات.

أبوالقاسم محمد كرّو والشابي

أ. د. صلاح الدين بوجاه(*)
رئيس اتحاد الكتاب التونسيين

يعود اهتمام الباحث أبي القاسم محمد كرو بالشاعر أبي القاسم الشابي إلى منتصف القرن الماضي، ويبدو أنه أجمل الإشارة إلى ولعه بدراسة آثار سميِّه الشاعر في «مقدمة الطبعة الثانية» الواردة في مستهل كتابة الموسوم بـ «دراسات عن الشابي»(١) الصادر عن الدار العربية للكتاب. فبعد إلماحه إلى صدور الطبعة الأولى من الكتاب سنة ١٩٦٦، وتأكيده حاجة القراء إليه، واهتمام وزارة الثقافة بالاحتفال بالسنة العالمية للشابي (١٩٨٤)، يتولى ضبط بحوثه السابقة في شعر الشابي:

أ - الشابي حياته وشعره.
ب - كفاح الشابي أو الشعب والوطنية في شعره.
ج - آثار الشابي وصداه في الشرق.
د - دراسات عن الشابي.

ثم يورد هذه الإشارة في آخر المقدمة: «وغايتنا دائمًا حفظ هذه الدراسات من الضياع والإهمال.. وهي المبعثرة بين عديد الصحف والمجلات المفقودة النادرة... وجعلها ميسرة للقراء في كل حين. ومن خلال ذلك نواصل العمل الذي بدأناه منذ سنة ١٩٥٢ لإظهار عبقرية الشابي وصداه في العالم. وفي هذا وذاك إثراء لرصيد تونس الأدبي واعتزاز بأفذاذها وأبنائها الخالدين»(٢).

يُوقفنا ما تقدم على جُملةٍ من الاستنتاجات: أولها أننا فعلاً إزاء ولعٍ بشخصية الرجل وبإنتاجه، وثانيها أن كرّو قد تولّى النظر في هذه المسائل مرات متعاقبة، وثالثها أن غايته تتمثل في حفظ هذه الدراسات من الضياع والإهمال، ورابعها أن سنة ١٩٥٢ كانت

المناسبة الأولى التي بدأ فيها كرو تصديه لدراسة آثار الشابي... إثراء لرصيد تونس واعتزازًا بأفذاذها.

فالغايات شخصية وأدبية ووطنية، وفي هذا تأكيد لتنوع أسباب البحث في آثار الشابي من ناحية، وفيه إشارة إلى تنوع جوانب شخصية الباحث من ناحية أخرى. لهذا يعنينا ههنا أن ننوه صراحة بجميع هذه الجوانب، إذ تسهم في بناء شخصية الباحث الذي نتوق إلى الظفر به في خضمِّ التجاذب – السائد اليوم – في بداية الألف الثالثة للميلاد – بين رصانة المناهج الجامعية المبالغ فيها، وتهافت الدراسات الصحفية، والملاحظ من خلال شخصية أبي القاسم محمد كرو أن الجيل السابق على جيلنا يمدنا بنماذج متوهجة من الأدباء والنقاد المجدين القادرين على الجمع بين رصانة البحث الجامعي، المحترم لمرجعياته، وحيوية العمل الصحفي الباحث عن التألق، وكم نحن في حاجة اليوم إلى هذه الصفات حتى نستأنس بها في أعمالنا المستقبلية، ونعمل بالاستناد إليها على خلق ملامح جديدة للباحث الذي نريد.

وعليه فإن تأملنا للكيفية التي ركَّز تبعًا لمقاييسها (كرو) نظره في الشابي يمكن أن تضيء عديد النواحي في شخصية كرّو الأدبية، وتسهم في إماطة اللثام عن شطر من سمات أدباء النصف الثاني من القرن العشرين، لهذا فإننا نعدُّ غايتنا مزدوجة، ونحملها أعباء إضاءة الشابي وكرو في الوقت ذاته!

---

١ – وهي على التوالي تبعًا لورودها في كتاب «حوار وشعراء» لأبي القاسم محمد كرو (دار المغرب العربي، تونس، سبتمبر ٢٠٠١: الشابي حياته وشعره/ كفاح الشابي/ آثار الشابي وصداه في الشرق/ دراسات عن الشابي/ الشابي من خلال رسائله/ نثر الشابي/ الشابي في مرآة معاصريه/ رسائل حول الشابي/ صور وكلمات/ شعراء المغرب/ أكثر من مئة مقالة منشورة/ أربعة كتب مخطوطة.

٢ – أشرف على طبع كتب الشابي: أغاني الحياة – الخيال الشعري عند العرب – مذكرات رسائل الشابي – نثر الشابي.

٣ – أبوالقاسم محمد كرو، حوار وشعراء.

٤ – المقال السابق ضمن الكتاب السابق.

ونرغب في نهاية هذا التمهيد أن نُعرج من جديد على تعلق كرو بالشابي، وقد تجلَّى في مقالة له بعنوان: «قصة حبي للشابي» وهي مقدمة بسطها كرو بين يدي الأمسية المنظمة في بيت الشعر ١٩٩٨، يقول: «حبي للشابي بدأ عام ١٩٤٣، وهو يزداد كل يوم عن سابقه.. بدأت كتبي عنه عام ١٩٥٢، وهي تبلغ اليوم أحد عشر كتابًا[١]، وقدمت وأشرفت على جميع كتبه، ومنها ديوان: «أغاني الحياة».. وأضفت إليها كتابًا جديدًا هو «نثر الشابي».. أما الكتب المتعلقة به والتي نشرتها أو قدمت لها، فهي أكثر من عشرة كتب.. وبينها كتابان لصديقه محمد الحليوي[٢]».

نستنتج من هذا كله أن الشابي قد تحول عند أبي القاسم محمد كرو من مجرد «موضوع بحث» إلى هم ملازم، وهاجس دائم، ومسألة من المسائل العامة التي لا حياد عنها، حتى لكأنه قد غدا قضية القضايا وهاجس الهواجس، وإننا لندرك جيدًا أن صاحبنا قد وزع اهتمامه على كثير من الأدباء، من بينهم في هذا الكتاب الذي نحن بصدده:[٣] نازك الملائكة، وزكي أبوشادي، وأحمد أديب مكي، والشاذلي عطاءالله، وجمال حمدي، ومحمد المنوني، ومحمد الفاضل بن عاشور، وحمد الجاسر.. فعل وقع هذا، لكن التركيز في أمر الشابي وشاعريته قد اتخذ شكل الظاهرة الوطنية العامة التي تجمع بين الدواعي الشخصية والاقتضاءات العامة.

ولعل تركيزه الحديث في أمر أبي شادي انطلاقًا من الشابي يؤكد ما ذهبنا إليه. فالشابي قد أدى إلى أبي شادي (مثلما أدى به إلى الحليوي)، وأبوشادي قد أدى به إلى ابنته صفية التي دأب على مراسلتها سنوات طويلة، وهي في أمريكا دون أن يراها: «ما زالت الرسائل بيني وبين ابنته صفية مستمرة رغم أنني لم أرها – مثل أبيها – وهي تقيم في أمريكا منذ أكثر من خمسين سنة»[٤].

إن الأمر قد بات ولعًا جارفًا وحبّاً ملأ صاحبنا جميع أقطار نفسه – مثلما يقول

---

١ – من أبرز العلماء الموثوقين الحجج في سياق النقد الجامعي اليوم.

أجدادنا – حتى بدا إقبالاً جارفًا لا إمكان لرده!

نسجل هذا، ونؤكد أن الواحد من الباحثين اليوم، في مستهل هذه الألف الثالثة، إذا ما تصدى لدراسة موضوع، أكد – أولاً وأساسًا – أنه لا علاقة شخصية له به، متوهمًا أن العلم الموضوعي يتطلب ذلك، ويقتضي نفي أية علاقة بموضوع الدراسة. وهذا من أوضح النقائص التي اغترفنا من معين النقد الأجنبي، رغم أن تودوروف وجينات[1] (حتى نكتفي بهؤلاء) كثيرًا ما خصصا المطولات للغوص في دراسة المواضيع، أو الظواهر، أو الأشخاص المحبوبين من قبلهم، أو ذوي الوشائج والصلات بهم!

لهذا بات الواحد منا اليوم يستنكف من التعرض للشاعر المعاصر له، ويتعالى عن الخوض في أدب من يعرف، ويتجنب ذكر أبناء موطنه، وهذا نموذج نجنح إلى التوقف عنه بعض التوقف، حتى نقارنه بنموذج أديبنا (أبو القاسم محمد كرو) لأن الظواهر تعرف بنقائضها أكثر من جلائها بنظيراتها، ذلك أن كرو اليوم من النماذج النادرة في ساحتنا الثقافية، وهو الباحث المندفع نحو مواضيع دراسته اندفاعًا، المنفعل بها انفعالاً، وهو الناقد الجامح بين صرامة المنهج الجامعي ومرونة البحث الصحفي السريع نسبيًا. لهذا نجزم ههنا بأنه يمثل النموذج الأمثل لها ننتظر من ساحة ثقافية تحترم أصولها ومبادئها وتسير، ونسير بالعاملين في كنفها نحو المزيد من التطور.

وندرك جيدًا أنه لا توجد مقاييس مضبوطة، فتوفيق بكار – مثل – أستاذ من أساتذة الجامعة التونسية بارز، وكذا صالح القرمادي، إلا أنهما قد أثبتا تخطيهما للسياج الجامعي، فغاصا في دوائر النقد الثقافي وعبر المجال الفاصل بين النقد الرصين والنقد السريع، وبلورَا منهجًا وسطًا يستند إلى خلفيات معرفية ومنهجية وتطبيقية إجرائية شتى.

لهذا فإنه يعنينا ههنا أن نلح على أن هذا النموذج الذي ينتمي إليه الأستاذ كرو، بل الذي انتمى إليه من أوسع أبوابه العربية، يعد بالنسبة إلينا من «الدوافع العليا» نحو تطوير الثقافة التونسية والإسهام في تطوير الثقافة العربية على وجه العموم.

---

١ – انظر «تطور شعائر تكريس الانتماء»، كريس نايت: الجنس واللغة كمسرحية إيهامية، ضمن «تطور الثقافة»، ترجمة شوقي جلال. القاهرة ١٩٩٩، المجلس الأعلى للثقافة.

من خلال انغماس الباحث في موضوع عمله، وعبر الصلة بين أبي القاسم وسَميِّه، انتبهنا إلى إننا إزاء برهة إيجابية جدًا من بُره النقد التونسي، ومن مجالات الإضافة والإبداع فيه.

ونكاد نستخلص هنا أننا – من خلال نظرة انثروبولوجية محايدة – إزاء طقس شعائري عميق يكشف عن بحث بعض الفواعل القادرة على الابتكار عن الفعل المغيِّر في المجتمع عبر ساحته الثقافية.

لهذا فإننا مع أبي القاسم محمد كرو، مثلما ألمحنا إليه أعلاه، إزاء ذات وطنية (في المعنى التونسي والعربي) تتوسل بالأدب للفعل في المجتمع، وبلورة مفهوم جديد للهوية.

وحدها هذه النماذج قادرة على إتيان الفعل ونقيضه والعمل داخل السياج وخارجه في نفس الوقت. لهذا نؤكد إننا إزاء «نموذج لتكريس الانتماء»[1] واضح جلي يخدم الثقافة التونسية خدمته لنفسه وللشابي.

فأبوالقاسم محمد كرو قد خاض في كل المواضيع المنبثقة عن ظاهرة أدبية ثقافية اجتماعية وطنية اسمها أبوالقاسم الشابي. لهذا فإنه تناول أدبه، كما نظر فيما كتب حوله، تناوله لرسائله وتعليقاته النثرية المختلفة.

فلعلنا نُدعَى هنا إلى التأني لدى شطر من ظاهرة التناول هذه التي تتخذ أحيانًا شكل ما يستعصي على التناول! فلنشهد أننا إزاء عملية من عمليات التماهي بين مستويات متراكبة:

١ – ذات أبي القاسم كرو.

٢ – ذات الشابي.

٣ – إبداع الشابي.

---

١ – أبوالقاسم محمد كرو أورد هذا الشاعر ضمن كتابه «آثار الشابي وصداه في الشرق، دار المغرب العربي تونس، خريف ١٩٨٨ ص٥٦.

٤ - نقد أبي القاسم كرو.

وغير خفيّ عن الحصيف أن جميع هذه المستويات يمكن أن تستقطب دوائر أخرى إضافية تؤثر فيها وتنتج عنها.. محدثة نوعًا من التراشح العميق الذي يجعل من مادة البحث وموضوع البحث والباحث كيانًا واحدًا شاملاً.

وهذا يدفعنا إلى المزيد من التريث عند بعض المسائل الجانبية في سياق العلاقة التي تشد الباحث إلى موضوع بحثه، ومنها خاصة:

- **تماثل مجال الحركة: توزر وقفصة وبلاد الجريد/ تونس العاصمة.**

- **الرومنسية والوطنية مركبٌ واحد جامع.**

- **رفض الاستعمار والدعوة إلى كسر القيود، والتعلق الوجداني بالشرق.**

- **الجمع بين الثورية، والكلمة الرقيقة الموحية.**

إن الذاتي والموضوعي يتفاعلان في خضم واحد من المد والجزر حتى نكون حيال مزيج رائق من الآراء والأحاسيس والمواقف. يقول سلامة موسى في هذا الباب: «الذين يقرؤون الشاعر التونسي الشابي لا يعجبون بشعره فقط، ولكنهم يحبونه، فقد عاش حياته القصيرة وهو في آلام المرض وانتظار الموت، ولكنه لم يهن، فإنه تحدَّى القدر وأصر على أن يحيا حياته، واعتقادي أنه لو أن الشابي ظل حيّاً بيننا إلى الآن لكان أعظم شاعر في الأقطار العربية[١] ، هذا هو ذاته إحساس أبي القاسم محمد كرو، وهذه هي آراؤه في أبي القاسم الشابي.

هكذا ننتبه إلى إمكان استخلاص استنتاجات جلية من مضمون ما يكتبه الناقد عن الشاعر، كما يكون في إمكاننا الخروج بمستخلصات أوضح عن الناقد من خلال الكيفية

---

١ - أبوالقاسم محمد كرو، آثار الشابي وصداه في الشرق، دار المغرب العربي، تونس، ١٩٨٨.

التي يتصدَّى بها للنظر في إنتاج الشاعر وشخصيته، خاصة إذا ما انتبهنا إلى أن ذلك تخطى الخمسين سنة واتخذ شكل التلازم والتماهي.

هذا ما نقف على حقيقته من تسليط كل من كرو والشابي أحدهما على الآخر استقراءً للنقد والشعر في آن واحد. ويبدو أن هذه الصورة التقريبية لا يمكن أن تكتمل إلا بالعودة إلى بعض الإشارات الواردة في كتاب كرو الموسوم «بحوار وشعراء» والتي يمكن اختزالها في النقاط التالية:

- ولادته ونشأته في مدينة قفصة، مع ما يحف بها من خلفيات حضارية قديمة وحديثة.

- إيمانه بأن تقدم العرب منوط بالتقدم العلمي.

- اعتباره أول من ألف كتاباً حول الشابي.

- اهتمامه بـ «التحقيقات »إن كلياً أو جزئياً.

عدم تمييزه بين النضال الأدبي والنضال الوطني.

ومنتهى ما يمكن أن نقول هو أن الشابي عالَمٌ رحبٌ فسيح، كلما ازددت فيه انطلاقًا ازددت اكتشافًا وإعجابًا. وأحسبُ أن الأمة العربية، على اختلاف شعوبها وأقطارها، ستظل مبهورة بشاعرها العبقري لدى أجيال طويلة قادمة، بل إنني أزعم بأنها ستزداد مع الأيام اكتشافًا له وإعجابًا به واعتزازًا بنبوغه وأدبه»[1].

هكذا نهتف في شأن الشابي مجارين قولة كرو الشهيرة لدى مفتتح مصنَّفه المهم حول صدى الشابي في الشرق، لكننا نروم أن نهتف بالكلام نفسه في شأن ناقدنا الكبير المستجيب إلى تلك الاقتضاءات العامة التي نشأت في ذهننا عن الناقد الحقّ، وكم هم قليلون هؤلاء في بلادنا في الوقت الحاضر، إلا ما اعتبرنا أساتذة الجامعة في الأدب نُقادًا، وأساتذة الفلسفة فلاسفة، بينما البون شاسع بين هؤلاء وأولئك.

فصاحبنا القفصي ينتمي إلى قلة نادرة من المخلصين «للساحة الثقافية» بأكثر

دلالاتها سعة وانفتاحًا، وقد ذكرنا أعلاه بعلمين من أعلام هذه الفئة وهما بكار والقرمادي، ويمكن أن نُلحّ مجددًا على اعتبار أبي القاسم محمد كرو، وكذا أبي زيان السعدي من بين أعضائها البارزين. ونشهد الله على أن ما نقول هو خالص لوجهه تعالى لا نروم منه جزاء ولا شكورًا، كما أننا لا نرغب أن نثير به سجالاً في هذا المحفل أو ذاك. فهو مجرد كلام للحقيقة، للحقيقة كما نراها ونريدها، وكم هي نسبية متغيرة.

لكن بغيتنا أن تكون لبلادنا التونسية ساحتها الثقافية التي تفخر بها بعيدًا عن جمود الجامعة وتذبذب الجرائد السيارة وحركيَّتها المبالغ فيها!، لهذا فإن هذه الصفحات مجرد تحية نرفعها إلى أب الأدباء التونسيين الناقد، عضو المجامع اللغوية العربية العديدة، سَميِّ الشابي، أبي القاسم محمد كرو.

****

(*) أكاديمي وناقد من الجماهيرية العربية الليبية من مواليد ١٩٥٠، له عدد من المؤلفات.

تكريم قلم وتتويج حياة
(مفاتيح شخصية)

أ. د. عبدالحميد عبدالله الهرّامة(*)

يكتسي تكريم الأستاذ الكبير (أبو القاسم محمد كرو) أهمية خاصة، آتية من كونه نموذجًا مميزًا في الحركة والعطاء، والألفة، والاعتداد بالذات، وقد صبغت هذه الصفات جل فترات حياته، وكانت مفاتيح شخصيته ذات المداخل المتنوعة، وقد رأيت أن يكون تكريمي للرجل عبر هذه المفاتيح المميزة لشخصيته.

فأما الحركة فهي المفتاح الأول لحياة هذا الرجل المناضل، والأديب الرحالة، والعالم السائح في سبيل أهدافه بروح لا تهدأ، ونفس لا تجنح إلى السكون والدعة، ولا ينتقض ذلك حتى عندما يكون السكون مطلبًا جسميّاً أو ضرورة عملية، فقد بدأت هذه الحركة منذ أن ضاقت قفصة، وهي المدينة الجنوبية الصغيرة بطموحاته وآماله، بالرغم من أنها مسقط رأسه المحبب إلى نفسه، فقد غادرها إلى مدن أخرى، ولم تقتصر الرحلة على الحاضرة التونسية العامرة، بل طالت بغداد ثم طرابلس اللتين عاش فيهما فترات من الزمن طويلة نسبيّاً جعلته بعضًا من أهلهما، وحفظتا في ذواكر أجيالهما أبهى الذكريات وأصفى الصلات مع فتى قفصة الأديب وعالمها الظريف.

كان في بغداد طالبًا يلتقط أزهار الشرق وثماره، مذكرًا بزمن الرحلات العلمية التي ما فتئ علماء الغرب الإسلامي يعتبرونها غاية سامية في مراحل تكوينهم العلمي حتى عهد ليس بالبعيد، وفي طرابلس كان معلمًا لا يقتصر على أداء واجبه في استيفاء المنهج وتعليم مقرراته، بل كان يبث من روحه ما يحرك الهمم نحو قضاياه الكبرى وفي طليعتها قضية وحدة أمته واستقلالها.

ولم تكن بغداد ولا طرابلس نهاية المطاف ولا غاية الحركة الدؤوبة لهذا الرحالة المثابر، وكم كنت أتمنى أن يكون بين كتبه الكثيرة كتابًا مستقلاً عن رحلاته القيمة، فهي في معظمها لقاءات مع مفكرين وأدباء وعلماء وفنانين يعرف عنهم الأستاذ أبو القاسم كرو الكثير، وربما لا يعرف كثير من القراء عن بعضهم غير أسمائهم.

وهكذا فإن الرحلة في حياة أبو القاسم كرو كانت مغنمًا فكريّاً له وللآخرين، حلّ بها في مختلف الحواضر العربية وخارجها، ووطد علاقاته الثقافية والإنسانية مع أشهر أعلام القرن الماضي، وكان ضيفًا على أنديتهم الفكرية من خلال العديد من المؤتمرات والندوات التي كان يُدعى لها ويشارك فيها.

أما المفتاح الثاني لشخصيته فهو العطاء، ويكفي أن تقف على قائمة مؤلفاته الطويلة لتجد قلمًا لا يسكن إلى الراحة على مدى رحلة العمر الطويلة – بإذن الله – وفي عطائه مساحة كبيرة للوطن التونسي، والمغرب الكبير، وللأمة العربية وتراثها وأعلامها، وتاريخها، فضلاً عن الخواطر والإبداعات والقضايا النقدية، والمراسلات الأخوية، والمقالات التكريمية، والكتابات التوثيقية التي جعلت للأعلام في مؤلفاته نصيب الأسد.

ويسوق مفتاح الألفة في حياة الرجل إلى مدخل مهم في حياته الناجحة، فقد كان به محبوبًا ومقربًا من الذين عرفوه عن كثب، رجلاً ودودًا، مواصلاً، وحفيّاً بأصدقائه على كثرتهم، حتى ليظن كل واحد منهم أنه الأقرب إلى شخصه والأثير إلى نفسه، ولم يقوَ طبع الحدة الناجمة عن الجدية والصرامة في حياته أن يفلّ من قوة مشاعر الألفة لدى الرجل، أو أن يجعل ظلالاً في علاقاته مع الآخر، فهو واضح في التفريق بين هذا وذاك.

وأهم مكونات شخصيته الأليفة روح النكتة وحضور البديهة، وما زلت أذكر لحظات جميلة جمعتني به في مدينة زليطن الليبية قبل أكثر من ست عشرة سنة بمناسبة انعقاد المؤتمر الأول للوثائق والمخطوطات، حيث كان يتحلق حوله الشباب والكهول في الأمسيات الثقافية خارج أعمال المؤتمر، وكان فيهم كتاب وأدباء من ليبيا وخارجها، يأنسون إلى ما يتحفهم به من الطرائف والفوائد، ويسعدون غاية السعادة بملحه وغرائبه التي يؤديها بطريقة مميزة تضفي عليها نكهة إضافية من الإمتاع والمؤانسة وحسن الترتيب.

أما مفتاح الاعتداد بالذات والاعتزاز بالانتماء، فيمكنك أن تقرأه في آثاره، وتشعر به في حياته، وهو ليس ظاهرة سلبية في شخصية الرجل الذي حول هذا الاعتداد إلى أعمال علمية موثقة، ومواقف نضالية بارزة، وآراء وأفكار خاصة قد تخالفه في بعضها، ولكنك لا تستطيع أن تنكر عليه قدرته على الدفاع عنها والتشبث بها، فالاعتزاز بالذات عنده لا يهمل الأنا ولكنه يتجاوزها إلى كل ما ينتمي إليه من وطن وأمة وتراث وأصدقاء، وليس ما بذله من أجل استقلال تونس وتمجيد أعلامها، وما قدمه للمغرب العربي الكبير، وما أسداه لأمته العربية من فكر وتضحية إلا دليلاً على قوة الانتماء وإيجابيته، وفي كتابه النفيس «حصاد العمر» أمثلة كافية للبرهنة على هذا الذي نقول، كما أن في قوله «ليس عندنا طه حسين ولا توفيق الحكيم.. ولكن عندنا عشرات من أمثال طه حسين وتوفيق الحكيم بحجم تونس والمغرب العربي»، إفصاحًا ظاهرًا على ذلك الاعتداد بالمنتمى، وهو لا يقول ذلك اعتباطًا، ولكنه يعني أسماء بعينها في تونس والمغرب العربي من أمثال الطاهر ابن عاشور وعبدالحي الكتاني وعبدالحميد بن باديس وأبي القاسم الشابي وأحمد رفيق المهدوي وغيرهم، وهم كثر.

لقد جمعتني بالرجل لقاءات كافية لمعرفتة عن قرب مفكرًا جيد الحوار، وإنسانًا لطيف المعشر، وذاكرة مسعفة، وبديهة حاضرة، لقيته في طرابلس، وزليطن، وتطوان، والدار البيضاء، فحفرت في ذاكرتي عنه تلك الانطباعات عن الروح التي تجمع الإمتاع بالفائدة، والتي انعكست في عمله من خلال الحيوية التي أضفاها على المركز التونسي في طرابلس فتحول برئاسته إلى أهم منتدى ثقافي في هذه المدينة البيضاء، وجمع فيه ما لم يجتمع في منتدى آخر من أطياف المثقفين على اختلاف انتماءاتهم وتنوع ثقافاتهم، وعرَّف من خلاله ببعض أدباء تونس وعلمائها فربط بذلك أواصر المودة والأخوة التي كانت تحتاج إلى وثاقه الأمين.

والآن وبعد هذه الرحلة الطويلة تشتد الحاجة إلى هذه الشخصية الوافرة العطاء والحيوية الحضور، والمتنوعة العلاقات، ويحين مع ذلك وقت التتويج الذي استحقه منذ زمن بعيد، ولكي يكون للتكريم معنى أكبر من مجرد الاحتفال والثناء، ينبغي أن نقرأ ما

كتبه من جديد قراءة تدبر وفهم، أو قراءة درس ونقد حتى نعطي الرجل حقه من الثناء القائم على البينة والبرهان، وأن نعود إلى الرسائل التي تبادلها مع أعلام عصره، فهي تكتنز بذخائر من المعلومات والملاحظات القيمة في تقييم التاريخ الثقافي والتعريف باهتمامات أصحابها وأساليبهم في التعبير عنها، وتلك غايات تحتاج إلى همة شباب الباحثين وحصافة فكرهم.

والله الموفق..

****

(*) صحفي وشاعر تونسي من مواليد بنقردان عام ١٩٥٠، يشرف على الملحق الثقافي لجريدة الحرية. له عدد من الدواوين.

مناضل أدّى دوره في الحياة بنجاح وامتياز

(كلمات اعتراف بالجميل، إلى رجل عظيم سنبقى نحبه ونذكره..
خدم الوطن والأمة.. ونفع الناس.. هو الأستاذ الجليل أبوالقاسم محمد كرّو)

أ. عبدالسلام لصيلع(*)

الحديث عن الأستاذ أبي القاسم محمد كرو يطول ولا يتوقف.. لأسباب كثيرة، في مقدمتها أن الرجل قامة طويلة وشخصية فذة في عالم الفكر والبحث والأدب والتربية والاجتماع.. أنصاره من أصدقائه وتلاميذه يحبونه.. وخصومه من حساده ومن الذين يخالفونه في الآراء والأفكار يهابونه، وهو في الحقيقة طيب القلب وجِدِّي وصارم أمام من يعرفهم ومن لا يعرفهم.. هكذا هي طبيعته.. وهكذا هو مزاجه.. عليك أن تستمع إليه جيداً لتفهمه.. وإذا فهمته.. أحبك.. واحترمك وقدّرك.. وكسبت ثقته وأصبحت من جلاسه ومريديه.

هذا «الأستاذ» مسيرة كبيرة من الكفاح والمعاناة والصبر والقوة والعزيمة والإرادة والنظام والانضباط.. في حياة حافلة بالحركة والنضال والنشاط والعمل منذ طفولته.. كل ذلك جعل منه إنسانًا «حديديّاً» في مجتمع عربي خامل وجامد.. وفي أمة عربية ضحَّى بشبابه من أجلها.. عرف السجن والمنفى في سبيلها، وأفلت من المشنقة أكثر من مرة بسبب إيمانه بحريتها وتقدّمها ووحدتها.. قارع الاستعمار القديم والجديد.. وتطوّع للدفاع عن فلسطين في بداية وعيه القومي العربي المبكر إثر حصول النكبة.. ورغم مرارة الواقع العربي المتردي في كامل مراحل تاريخه.. لم ييأس الأستاذ أبوالقاسم، ولم يعرف الإحباط، وبقي في حجم طموحاته الكبيرة.. واحتضن قلمه منذ أكثر من ستين سنة مناضلاً ثقافيّاً ومفكرًا مستنيرًا مدافعًا عن أمته العربية العظيمة وعن قضاياها العادلة، ومحرِّضًا الشباب

العربي على الصمود والمقاومة ومواجهة الأعداء والانتصار لعروبة أمته وهويتها.. معجبًا بروح الثورة في أشعار الخالد أبي القاسم الشابي حيث كان أول من عرَّف به وبقصائده مشرقًا ومغربًا.. وأصبحت كتاباته معروفة في كل الأقطار العربية.. وأصبح الثائر القومي العنيد.. والأديب المبدع.. والباحث الوفي لتراث الأجداد ولآثار الأعلام.. والمؤرخ الأمين.. والمحاضر المقنع.. صاحب المنهج الذي لا يتخلّى عنه في الحياة والمجتمع.

لقد كنت محظوظًا بأن تعرّفت إلى الأستاذ أبي القاسم محمد كرّو في سنوات شبابي الأولى.. كنت أقرأ له وعنه في صحافة تونس في نهاية الستينيات.. وعندما دخلت الجامعة في دراستي العليا كنت أحضر بعض الملتقيات والندوات الأدبية والثقافية التي كان يشرف عليها.. في بداية السبعينيات.. وكان مكتبه في اللجنة الثقافية الوطنية في تونس العاصمة مقصد الأدباء والشعراء والجامعيين والإعلاميين والباحثين والطلبة.. كان المكتب يعجّ بهم.. وكنت واحدًا منهم.. إلى أن توطَّدت علاقتي به، وأصبحت أتردد على مكتبه باستمرار لأجد لديه الجريدة والمجلة والكتاب.

وأشهد أنه كان يساعد كلَّ من يقصده.. تدخّل لفائدة كثيرين في الحصول على عمل.. وشخصيّاً استفدت منه كثيرًا.. وتعلَّمت منه الكثير.. وأعترف له بالجميل والفضل.. وجدته داعمًا ومساندًا لي في تونس وفي خارجها.. وخاصة عند هجرتي في شهر يوليو/ جويليه ١٩٧٤، ولا أنكر أنه فتح لي الطريق وذلل أمامي الصعاب.. وشجعني على مواصلة الكتابة الأدبية والنشر في بداياتي.. نعم.. تعلمت الكثير منه ومن نصائحه وتجاربه التي دوَّنها في مجلداته التي تثري حاليًا المكتبة العربية، وتجمع أعماله التي ستبقى شاهدة على عصر مضطرب عاشه هذا «الأستاذ» العلم الفذ وتابع أحداثه بحلوها القليل وبمرِّها الطاغي.. ونراه ملحمة إنسان غير عادي قاوم الظلم والظالمين في كامل حياته.. لم ينحنِ ولم يطأطئ رأسه.. مستلهمًا من التاريخ قيم الحرية وكفاحات الشعوب ضد العبودية والاستغلال.. وليس ذلك بغريب لأن أبا القاسم محمد كرو – مثل أبي القاسم الشابي – ابن بار من أبناء الجنوب التونسي.. تشبع بأصالته وامتلأ بحضارته.. حضارة الجنوب

التي علمتنا الصبر والحرية والشهامة وعزّة النفس والكرامة والوضوح والصراحة والالتزام بالحقّ والحقيقة والجرأة والتضحية والصدق وغيرها من القيم المقدسة والمبادئ النبيلة.

ونعم.. أفاد الأستاذ أبوالقاسم محمد كرّو غيره بلا حدود.. وقابلوه بالجحود واللؤم ونكران الجميل.. ولكن الذين لا ينكرون فضله أكثر وأكبر من الجاحدين واللئام.

ونعم.. خدم الأستاذ أبوالقاسم محمد كرو تونس في شبابه وكهولته وشيخوخته.. وعاش مناضلاً وطنيّاً وقوميّاً حرّاً ساهم في تحريرها من الاستعمار الفرنسي البغيض.. كما شارك في بنائها بعد الاستقلال، لكنه لم يجرِ وراء المناصب والكراسي، إن سرقوا مكانه فإن موقعه في التاريخ لن يستطيع أحد أن ينزعه منه.. ذلك قدر الرجال العظام والأحرار.. لكن «أبا القاسم» ظل عاشقًا لأمته العربية المجيدة طوال حياته، رغم ظروفها القاسية وانهياراتها الرهيبة وأعدائها القدامى والجدد، وكان عزاؤه أنه بقي وفيّاً ومخلصًا لها، مؤمنًا بمستقبلها وبحتمية انتصارها، طال الزمان أو قصر.. كنت أسمع الأستاذ أبا القاسم يردد دائمًا في مجالسه قول الشاعر أبي فراس الحمداني:

سيذكرني قومي إذا جدَّ جدُّهمْ
وفي الليلةِ الظلماء يفتقدُ البدرُ

هنيئًا لأستاذنا الجليل أبي القاسم محمد كرو.. لقد أدى دوره في الحياة بنجاح وامتياز.. سنذكره.. وسنبقى نحبه.. لأنه نفع الناس.. والوطن.. والأمة.. لذلك فإن آثاره ستمكث في الأرض.

****

(*) أديب وكاتب مغربي. مدير مكتبة العلامة عبدالله كنون بمدينة طنجة.

الأستاذ الكبير أبو القاسم محمد كرو
قيمة علمية نادرة

أ. عبدالصمد العشاب(*)

من المؤكد أن أعلام البحث في التراث العربي والإسلامي وخاصة في تراجم الرجال، يتقدمهم في عصرنا رجل أوتي سعة في العلم وبسطة في ترتيب المعلومات واستثمارها. فالأستاذ الكبير أبو القاسم محمد كرو، هو من جيل الموسوعيين المتخصصين في تاريخ الأعلام وخاصة بتونس. وتتميز بحوثه التي يقدمها في هذا المجال بالتقصي والتتبع والتحليل والتركيب، فتراه يمتع القارئ بموضوعاته وهو يقوم برحلة في تاريخ الأعلام تشفي الغليل وتفيد المطَّلع، وبذلك فهذا الأستاذ الكبير مرجع أساسي للتراث العربي والإسلامي وخاصة التونسي، لا أدعي انفراده بهذه الميزة العلمية وإنما أؤكد عليها. ودليلي على ذلك هو ما كتبه وما صدر عنه من مؤلفات يطول الكلام عليها. ومنها ما صدرت طبعاته المتعددة، وفي كل طبعة مزيد عناية بتقديم المعلومات الجديدة. وأسوق هنا مثالاً على ذلك كتابه القيم «العرب وابن خلدون» فهذا الكتاب صدرت طبعاته خمس مرات خلال سنوات، أولاها سنة ١٩٥٦ والرابعة سنة ٢٠٠٦. وفي كل طبعة يضيف المؤلف ما توصل إليه من جديد البحث. وسأتناول هذا الكتاب بالكلام، لأنه في مضمونه دفاع بالحجج والبراهين عن رجل عربي تونسي عالمي الشهرة والمعرفة، إنه العالم المؤرخ أبو زيد عبدالرحمن بن خلدون الشهير بتاريخه ومقدمة ذلك التاريخ. وهذه المقدمة كما يعرف كل الناس نهج فيها ابن خلدون نهجًا علميّاً يبلور فلسفته في ابتكار علم الاجتماع. غير أن الدراسات والبحوث التحليلية لبعض الكتاب والعلماء من المعاصرين الذين تناولوا ابن خلدون ومعارفه ومؤلفاته وخاصة منها مقدمة تاريخه تجنوا عليه وخبّوا وأوضعوا في سيرته بما لا مزيد عليه من الثلب والمؤاخذات، ويحزّ في النفس أن تكون تلك المؤاخذات وذلك الثلب صادرين من أعلام لهم وزنهم في سوق الثقافة والبحث مثل الدكتور طه حسين

والدكتور أحمد أمين والأستاذ سامي الكيالي والأستاذ سلامة موسى ومدير سابق لمعارف العراق هو الدكتور سامي شوكة. وهذا الأخير بالذات صرح في خطبة حماسية ألقاها سنة ١٩٣٩ على جمهور من الأساتذة والمعلمين أعلن أنه يجب أن ينبش قبر ابن خلدون وتحرق مؤلفاته (العرب وابن خلدون ص ٣٧).

أما الدكتور طه حسين فقد ألصق بابن خلدون مجموعة اتهامات، وأعنف له القول في رسالته «فلسفة ابن خلدون الاجتماعية» التي نقلها إلى العربية الأستاذ محمد عبدالله عنان (فقد اتهمه بالأثرة والأنانية وحب الذات وبأن له أطماعًا لا حدّ لها وأنه يسلك في تحقيقها كل وسيلة. واتهمه أيضًا بالخيانة وأنه رجل لا وطن له إلا حيث يجد رغد العيش.. الخ). «العرب وابن خلدون ص ١٤٦».

والأستاذ سامي الكيالي هو نفسه لم يتورع عن الهجوم على ابن خلدون في أحد فصول كتابه «الفكر العربي بين ماضيه وحاضره» كما أشار لذلك الأستاذ أبو القاسم كرو.

والدكتور أحمد أمين هو نفسه وقع في فخ التثليب على ابن خلدون فوصفه بالشعوبية في كتابه فجر الإسلام وهذا أقسى حكم يصدر من رجل مُطَّلِع على علم ابن خلدون ومعارفه الواسعة.

ويأتي الأستاذ سلامة موسى في آخر المطاف ليقول وهو يتحدث عن مقدمة ابن خلدون: «... وكان يمكن أن تخصب هذه المقدمة لو أنها وجدت من المتعلمين في مصر وسائر الأقطار العربية من يوالونها بالنقد والشرح والتعليق وهذا لم يحدث لأسباب ما زلنا نجهلها. وظني أن بعض ما حال دون ذلك هو كراهة ابن خلدون للعرب واحتقاره لهم بل عدوانه على ثقافتهم بالمعنى العصري لهذه الكلمة». (العرب وابن خلدون ص ٨٠).

وكل هذه الاتهامات والطعون جاءت نتيجة ما فهمه هؤلاء من فصول مقدمة ابن خلدون التي يتحدث فيها عن العرب أنهم أهل بداوة وأن العرب إذا تغلبوا على أوطان أسرع إليها الخراب. فأخذتهم العزة بالإثم ولم يقيسوا حقائق التاريخ بموازينها العادلة، أعني أنهم لم يدرسوا عصر ابن خلدون وما ارتكبه عرب بني رياح وبني سليم وبني هلال في جسم الحضارة العربية بشمال إفريقيا، حتى إن التاريخ ليحكي لنا عن الندم الشديد

أبو القاسم كرو
مشرقي المغرب ومغربي المشرق

أ. عبدالعزيز السريع(*)

رأيته لأول مرة عام ١٩٥٨ يمثل تونس في مؤتمر الأدباء العرب في الكويت.. كان يرتدي الزي التونسي التقليدي. قرأت له وعنه لسنوات عديدة بعد ذلك. وجاء عام ١٩٩٢ وقد بدأت مؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري تتلمس طريقها وتؤسس لعلاقات وثيقة مع الشعراء والأدباء العرب أينما كانوا، وتسعى لإنجاز معجم البابطين للشعراء العرب المعاصرين فكانت بحاجة لمتعاونين معها من سائر الأقطار العربية، فاقترح علينا الزميل الأستاذ مصطفى عبدالله اسم الأستاذ الكبير أبي القاسم كرو، فراسلناه، فاستجاب وكانت بداية لعلاقة حميمة أعتز بها كثيرًا، وأشهد بالله بأن الأستاذ قد نفع مشروعاتنا كثيرًا وساندها بإيجابية وبأسلوب عملي سريع التجاوب، وقد ساعده في ذلك مكانته الكبيرة لدى الحركة الأدبية والثقافية على النطاق العربي والشطر المغاربي بشكل خاص.

كان رجل المهمات الصعبة بحق لا تقف دونه العوائق، يتخطاها بثقافة واسعة في العمق وفي الانتشار مع قدرة فائقة على الإقناع، فضلاً عن المثابرة والمتابعة الحثيثة. وقد تمتع فوق كل ذلك بشبكة واسعة من العلاقات والصلات بالأفراد والشخصيات في الحركة الثقافية العربية، فكان مثار إعجابنا وتقديرنا للجهد الوافر والعطاء المثمر.

تشرفت بزمالته في مجلس أمناء مؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين، وفي الهيئة الاستشارية لمعجم البابطين للشعراء العرب المعاصرين، وعندما ترك هذه المهام مختارًا، شعرنا بفراغ لم يملأه أحد، ولكن عزاءنا كان استمراره مديرًا لمكتب المؤسسة الإقليمي للشطر المغاربي الكائن في تونس العاصمة.

(*) كاتب مسرحي من الكويت والأمين العام لمؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، له العديد من المسرحيات منها: عنده شهادة، ضاع الديك، الدرجة الرابعة.

لقد تمتعت بزمالته واستفدت من خبراته الواسعة وتنبهت لفطنته وحيويته الفائقة. لقد كان سريع الاستجابة؛ ينجز ما عليه بسرعة قياسية وبدقة متناهية.. كان قدوة لنا بهمته العالية ومثابرته وسرعته في الأداء.. تمتعت أيضًا بطرائفه ومروياته وذاكرته التي اختزنت الكثير من الخفايا والأسرار على كل المستويات، وقد كان بحق مشرقي المغرب ومغربي المشرق.. فوجئت بعلاقاته الواسعة بالأدباء والكتّاب الكويتيين مثل المرحوم الشاعر عبدالله زكريا الأنصاري والشاعر الأستاذ فاضل خلف وسواهما ... كانت الرسائل المتبادلة بيني وبين الأستاذ تبدأ من جانبي بكلمة أستاذنا الكبير ومن جانبه الصديق الأعز.. وكان ذلك يسعدني كثيرًا.

تتبعت بإعجاب مسيرته وإنجازاته ومؤلفاته، واقتربت منه كثيرًا، وزرته في منزله العامر، ومن خلال هذه العلاقة زادت لدي القناعة بأن ما يساعد على الإنجاز هو عدم تأجيل عمل اليوم إلى الغد.. أو عمل الصبح إلى ما بعد الظهر.

في عمله مع المؤسسة في معجم البابطين للشعراء العرب المعاصرين كان أستاذًا ومعلمًا وباحثًا حصيفًا أنجز ما عليه بسرعة قياسية وبدقة ومهارة، فكان محط إعجاب مكتب التحرير ورئاسة الهيئة الاستشارية، بل كان مضرب مثل للآخرين.. كلفناه الاهتمام بالشطر المغاربي كله «ليبيا وتونس والجزائر والمغرب وموريتانيا» فكان نعم العون والسند.

في عضويته لمجلس أمناء المؤسسة والهيئة الاستشارية للمعجم لم يكن مجرد عضو شرفي – وهو مستحق لأن يكون شرفًا لأي مجلس – بل كان مشاركًا وفاعلاً ذا رأي مقنع يستند إلى خبرات ثقافية متنوعة، فكان نعم العون والسند لمشروعاتنا الثقافية.

لم يكن في مقدور المؤسسة الضغط أكثر مما فعلت على الأستاذ لحثه على البقاء والاستمرار في العمل معنا، وهو المحب للمؤسسة وللعمل معًا. فكان أن استجبنا لرغبته، وهنا أمر الأخ الكريم رئيس المؤسسة الأستاذ عبدالعزيز سعود البابطين بإصدار كتاب تذكاري عن أبي القاسم كرّو، وكان لا بدّ من الإسهام مع رفاقه ومحبيه وهم كثيرون تحية للرجل، وللكفاءة وللإبداع وللعطاء..

بوركت أستاذي العزيز، وحفظك الله وأمد في عمرك ومتعك بالصحة والسعادة .

الذي أصاب الخليفة يعقوب المنصور الموحدي (٥٨٠هـ ١١٨٤م – ٥٩٥هـ ١١٩٨م) لأنه أدخل عرب بني هلال وبني جشم إلى المغرب الأقصى حين أتوه طائعين وذلك سنة ٥٨٤هـ ١١٨٨م، وقال المؤرخ أحمد بن خالد الناصري في كتابه «الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى» ج ٢ ص ٢٠٥ نقلاً عن المؤرخ ابن أبي زرع قال: «.. ولما حضرت المنصور الوفاة قال ما ندمت على شيء فعلته في خلافتي إلا على ثلاث وددت أني لم افعلها؛ الأول إدخال العرب من إفريقية إلى المغرب مع أني أعلم أنهم أهل فساد، والثانية بناء رباط الفتح أنفقت فيه بيت المال وهو بعد لا يعمر، والثالثة إطلاقي أسارى الآرك ولابد لهم أن يطلبوا بثأرهم». وعلق المؤرخ الناصري على عبارة بناء الرباط بقوله: «قوله بأنه لا يعمر قد تخلف ظنه فيه فهو اليوم من أعمر أمصار المسلمين وأحضرها حرسه الله».

فهذه الفقرة التي أوردها المؤرخ ابن أبي زرع قبل ولادة ابن خلدون بنحو مائة وسبعة وثلاثين عامًا تعتبر إضاءة للأحوال السياسية والاجتماعية التي بنى ابن خلدون رأيه عليها فذكر عن العرب ما ذكره، وكان ذلك سببًا في الهجوم عليه بالحق والباطل.

وفي كتاب (العرب وابن خلدون) الذي اخترناه للحديث عن واقعية أبي القاسم كرو في كل ما يكتبه. أبلى جازاه الله خيرًا بلاء حسنًا في دحض ادعاءات من ادعى من أولئك الكتاب الذين ذكرناهم – أن ابن خلدون أساء إلى العرب وإلى حضارتهم، فإن أبا القاسم يورد مقولة أولئك ويرد عليها بضدها من مقولات المنصفين الذين درسوا مقدمة ابن خلدون من العرب والغرب ويسوق لذلك حججًا من التاريخ، وهكذا دأبه في كل أبحاثه وكتاباته في تاريخ تراجم الرجال.

إن الأستاذ أبا القاسم محمد كرو روضٌ نضر من العطاء وكرم النفس، وحب وطنه الصغير تونس والكبير شمال إفريقيا والوطن العربي، وكم له من أيادٍ بيضاء على الثقافة والمثقفين مع صراحةٍ في القول وإنصافٍ في المعاملة. ندعو له بالعمر المديد والعافية المستدامة والمزيد من العطاء العلمي.

****

(*) شاعر وأديب كويتي من مواليد عام ١٩٢٢، له مؤلفات كثيرة. توفي عام ٢٠٠٦م.

أبوالقاسم محمد كرو

أ. عبدالله زكريا الأنصاري(*)

في عام ١٩٥٤ كتبت كلمة وفاء صغيرة بحق الأديب العربي التونسي الأستاذ «أبوالقاسم محمد كرو» بمناسبة صدور كتابه «حصاد القلم» وكنت رئيسًا لتحرير نشرة «البعثة» في القاهرة، وكان أبوالقاسم ملء القلوب، وصديقًا لأهل الفكر والأدب، وعضوًا لرابطة الأدب الحديث في القاهرة، وكتابه هذا يدل على ما يتمتع به من منزلة رفيعة في الفكر والأدب، وروح نقية صافية في وطنيتها وفي قوميتها، وله كتابات كثيرة في شتى المجلات العربية.

ومضت الأيام، وتقطعت بنا الأسباب، لكن أواصر المحبة لم تتقطع وكلٌ ذهب إلى شأنه في الحياة. وانفضضنا من القاهرة عاصمة العرب. وحان وقت التقاعد فتقاعدنا، ومع التقاعد عن العمل الرسمي، لم نتقاعد عن العمل الخاص، والقلم سبيلنا إلى العمل.

وفي أمسية من الأمسيات جاء من يحمل إليّ مظروفًا صغيرًا من مؤسسة الأخ الفاضل الأديب الشاعر عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، وإذا بداخله رسالة من الأستاذ الفاضل عزالدين المدني يبشرني «بأن صديقنا الأستاذ أبا القاسم محمد كرو قد تعافى اليوم من المرض العضال الذي ألم به خلال الشهور الماضية، وهو الآن في صحة جيدة والحمد لله»، وأضاف الأستاذ الفاضل المدني بأنه «قد عزم على إصدار كتاب لتكريمه آخر هذه السنة، فبادر الكثير من أصدقائه وزملائه الأدباء في الوطن العربي إلى الإسهام فيه بما عنَّ لهم من الذكريات والدراسات حول أعماله الفكرية» ويدعوني إلى المساهمة مع المساهمين من أصحاب العلم والفكر والأدب.

لقد سعدت حقّاً بهذه الرسالة من الأستاذ الفاضل عزالدين المدني وهي تنقل إليّ خبرًا سارًا عن تعافي صاحب القلم العربي الحر، وصاحب «حصاد القلم» من مرض عضال ألم به، وأنه استعاد صحته، وهذا بلاشك كسب للفكر والأدب، لأن أبا القاسم ربٌّ للفكر والأدب، وربٌّ للقلم الذي طالما أجراه في خدمة وطنه تونس وفي خدمة أمته العربية التي نتمنى من كل قلوبنا أن يعافيها الله جلت قدرته مما أصابها ويصيبها الآن من الأمراض والعلل. والخبر السار الثاني عزم الأستاذ المدني على تكريمه في إصدار كتاب عنه وعن أعماله، وعمّا قدمه لوطنه وأمته من خدمات، وهذا أعظم وأجلُّ تكريم لمن خدم الفكر والأدب، وخدم الوطن والأمة.

وقلت لنفسي، كيف لقلمي المتواضع، أن يكتب عن أديب ومفكر بجانب الأقلام الكبيرة التي سوف تساهم في الكتابة عنه وعن أعماله الكثيرة التي قدمها للمكتبة العربية؟ فرحت أكتب هذه الكلمات، متذكرًا أيام بيت الكويت في الخمسينيات وأيام رابطة الأدب الحديثه وما تضمّه من نخبة من الزملاء، منهم الشاعر، ومنهم الكاتب، ومنهم المفكر والمثقف والأديب.

إن روابط عدة تربطنا بأديبنا «أبوالقاسم محمد كرو» وهل رابطة أقوى من رابطة الأدب؟ وهل رابطة أقوى من رابطة الفكر؟

إنْ يختلفْ نسبٌ يؤلِّفْ بيننا
أدبٌ أقمناهُ مَقامَ الوالدِ

وكذلك الفكر كما يقول الشاعر:

الفكرُ حبلٌ متى يوصلْ إلى طَرفٍ
مِنْهُ يُنطْ بالثُّريَّا ذلك الطَرَفُ

إن أبا القاسم الشابي نتذكره، ونتذكر شعره، ونغني ونتغنّى به، ويذكرنا بأبي القاسم محمد كرو الذي تغنّى كثيرًا بتونس، وتغنّى بالوطن العربي كله، وجال قلمه وصال في شتى المواضيع التي تخدم أمته العربية، وتخدم وطنه ومسقط رأسه تونس، تغنّى كثيرًا بحب تونس، ولم أجد من تغنى بها أجمل ولا أكثر منه.

لقد مضى ثلاثة وأربعون عامًا على صدور «حصاد القلم» ومضت معها أيام القاهرة، وكل شيء يمضي في الحياة ولا يتوقف. وأجمل شيء فيها أن تمتد بك لتستطيع أن تقدم ما تستطيعه، مما يتفاعل في فكرك وقلبك لكي يكون منارًا لمن بعدك، وإلا فإن كل شيء زائل في النهاية. لكن اعمل لدنياك وكأنك تعيش أبدًا. وطول العمر يُجدي إذا كان فيه عمل.

إنني أعتقد أن أجمل تكريم تقدمه للمكرم هو البحث والدرس والتسجيل لكل ما قدمه من أعمال وخدم به الحياة وخدمة الوطن خدمة للحياة، وخدمة الأمة خدمة للحياة. إن كل عمل مفيد نافع خدمة للحياة، وأبوالقاسم محمد كرو قدم ما ينوء به من خدمة للحياة، وأملنا أن يقدم الكثير أيضًا.

وأجمل وأجدى تكريم للمكرم أيضًا، أن ترصد ما قاله، وما كتبه وما قدمه الآخرون عنه، ففي ذلك خدمة جليلة له، وخدمة أجل للوطن وللأدب وخدمة للحياة. وهذا التكريم المجدي يبقى منارًا، وهاديًا للذين يريدون المعرفة عن المكرم الذي أصبح جزءًا لا يتجزأ من التاريخ، تاريخ الفكر والأدب، وتاريخ الأخلاق والسياسة، وتاريخ السلوك الإنساني والقومي والوطني. ولكل شيء معنا في هذه الحياة.

ليس ألذ من الذكريات الطيبة، إنها حياة أخرى، أو تكاد أن تكون كذلك. والشاعر يقول: **والذكر للإنسان عمر ثان**، وإني لأعرف كيف كان أبوالقاسم محمد كرو حريصًا على حفظ وطبع ونشر ما كتب عن الشاعر أو المفكر أو الأديب، وكان يقول: «إنني لست أخاف أن يموت فلان أو فلان من الأدباء – شاعرًا كان أو كاتبًا – وإنما أخاف أن تموت آثار من يموت منهم!! لأن التجارب القاسية قد أظهرت تقصير الأحياء في حق الأموات، وتقصيرهم في حق أنفسهم أيضًا»، ويقول: «إن موت آثار الأديب أو الكاتب أو الشاعر شيء مؤسف حقًا، بل هو نكبة جلّى، لا تصيب الأديب وحده، ولكنها تشمل شعبه وتاريخ أمته الأدبي» هذا ما كان يقوله أبوالقاسم في كتابه «حصاد القلم» وهو ما نؤيده وندعو إليه، لأنه الجائزة الكبرى، وهي خدمة الفكر والأدب، وهي خدمة الحياة، وتحيات من القلب صادقة نبعثها للمكرَّم وللمكرِّمين؟

(*) أستاذ جامعي ومترجم تونسي من مواليد قفصة عام ١٩٥٤.

****

رجلٌ في ذاكرة الدّيار

لمسة وفاء للأستاذ الكبير أبي القاسم محمد كرو

أ. د. عثمان بن طالب(*)

في صباح يوم مشمس من أيام الصيف، رن هاتفي وأنا أتمشى على شاطئ البحر.. كان صوت الأستاذ أبو القاسم محمد كرو يصلني مع أمواج البحر ليقترح عليّ ترجمة ديوان عبدالعزيز سعود البابطين... دار حديث بيننا حول ترجمة الشعر وشروط هذه المهمة.. لم أكن أهتم بهذه التفاصيل بقدر ما كنت مغمورًا بسعادة لا حدّ لها بالثقة التي منحني إياها أستاذي.. كنت أتمنى أن أكون أحد تلاميذه وأن أنهل من معرفته الموسوعية وتجربته الثرية.. اقتربت منه واستمعت إلى حديثه العذب وذكرياته المتشعبة في دروب الثقافة والحياة.. واكتشفت أن الرجل هو أكبر بكثير مما نعرفه عنه من خلال منشوراته العديدة والمتنوعة.. فقد وهب حياته للسؤال المعرفي في الأدب التونسي واللغة والتاريخ والتحقيق والحضارة وقضايا المجتمع المدني.. ولكن هذه المسيرة كانت دائمًا مستنيرة بحكمة العقل وعمق الرؤية وصرامة الموقف... في كل منعطف وكل محطة، الهاجس هو التأسيس والإضافة لأصالة الهوية العربية واحتمالات وجودها في حقل الحضارة الإنسانية.. هذا ما تعلمه جيلي عن الأستاذ كرو.. هو أستاذ الأجيال لأنه علم بارز في ذاكرة الثقافة التونسية المعاصرة.. ليس فقط لأن مؤلفاته من المراجع الأساسية في مدونتنا الأدبية والتاريخية.. بل أيضًا لأن تجربته الميدانية في المجال الجمعياتي والإعلامي ونضال المجتمع المدني والتحرر الوطني هي مرجع نعتز به ونستلهم منه قيم الوفاء لرموز الهوية بأبعادها الإنسانية الرحبة..

هذه الهوية تجمعنا في الوعي بوجودنا.. نتحاور من خلالها مع مرجعياتنا وتطلعاتنا.. وهي قبل كل شيء عنوان وفاء لكياننا التاريخي.. ولعل الأستاذ كرو ظل يبحث طوال حياته عن مضامين هذا الحوار المعرفي ومعاني هذا الوفاء لمقومات الذات المعتزة بوجودها بوعي نقدي يؤمن بجدلية التطور.. من الزيتونة والخلدونية و«جمعية شباب ابن منظور» حيث بدأ مسيرته العلمية، إلى هجرته إلى المشرق العربي سنة ١٩٤٨ حيث تواصلت الرحلة من فلسطين إلى القاهرة إلى بغداد ثم القاهرة وطرابلس إلى عودته لأرض الوطن سنة ١٩٥٤، سنة الإعلان عن الاستقلال الداخلي، ليكون بعد تحصيل أفضل درجات المعرفة وشرف المساهمة في التعريف بالقضية الوطنية، من أوائل بناة مؤسسات الجمهورية بوزارة الثقافة... لم ينقطع الأستاذ كرو خلال كل هذه الفترة عن التأليف والنشر (أكثر من أربعين كتابًا وما لا يقل عن ألف دراسة وحديث إذاعي)... كما أنه كان من أول من عرّف بالأدب التونسي وأعلامه في المشرق، وخاصة الشاعر أبي القاسم الشابي، بالإضافة إلى دوره في إثراء اللغة العربية في مجمع اللغة العربية بالقاهرة والأردن والمجمع العلمي العراقي.

أردت الإشارة إلى هذا الرصيد الضخم من الجهد العلمي والبحث المتواصل لأتوقف قليلاً في معنى الوفاء لنقطة البداية والعودة، مدينة قفصة التي خصص لها الأستاذ كرو كتابًا قيِّمًا يعدّ من المراجع القليلة حول تاريخ المدينة وأعلامها: دراسات عن تاريخ قفصة وأعلامها (نشر جمعية صيانة مدينة قفصة. تونس، ١٩٩٣).

جاء المؤلف في ١٧١ صفحة، محتويًا على مدخل وعشرة أقسام:

- نكبات قفصة في القرن ٦هـ/ ١٢م.
- شعراء قفصة في القرن ٥هـ/ ١١م.
- علماء قفصة في عصر ابن راشد.
- مخطوط قفصي لكتاب أندلسي.
- حول ابن منظور.

- تقديم كتاب الملتقى الأول (لابن منظور).
- ذكريات وآمال.
- من هو ابن منظور.
- تقديم كتاب الملتقى الثاني.
- حقائق جديدة عن ابن منظور.

من محاور الكتاب وعدد المراجع وأسلوب الكتابة، ندرك مدى المكانة التي حظيت بها هذه المدينة في اهتمامات الأستاذ كرّو، وهو اهتمام علمي تاريخي يستمد شرعيته، قبل محبة الموطن، من عراقة المدينة ودورها على مدى التاريخ في الإشعاع الحضاري والعطاء الفكري، رغم ما أصابها من نكبات ومظالم وتجاهل.

يقول الأستاذ كرو في مدخل الكتاب: (منذ أربعين سنة.. وأنا أتابع كتب التاريخ والأدب والتراجم، أتصيد وأسجل منها الأخبار والنصوص والمعلومات ذات العلاقة بمدينتي الأثيرة الحبيبة «قفصة» الصامدة. وقد تراكمت عندي عشرات التراجم ومئات النصوص والوثائق والكثير من الكتب المتصلة بأم المدن التاريخية المغاربية وأم الحضارات في القارة الأفريقية «قفصة» العتيقة العريقة في الجذور والمجد والإشعاع، وكان في عزمي، ولا يزال، أن أستخرج من كل ذلك عدداً غير قليل من الدراسات عن مدينتنا «قفصة» في مختلف العصور والأحقاب منذ فجر الإنسان الأول بها حتى أيامنا الجارية).

هذا الكتاب هو إذن عربون وفاء لذاكرة الديار، وجزء من مشروع كبير يعتبره الأستاذ واجباً ذاتيّاً وموضوعيّاً لهذه الذاكرة. هذا الواجب ظل هاجساً يسكن القلب ويشغل الفكر على مدى السنوات، إذ يضيف «إن هذا الكتاب ليس أكثر من عينات ولوحات اختيرت من ذلك المشروع الكبير، وهي إلى ذلك بحوث ومحاضرات كتبت خصيصاً لمدينتي وعن مدينتي وجرى إلقاؤها في عديد الملتقيات الخاصة بها.. بداية من عام ١٩٧١ ونهاية بعام ١٩٨٦».

ولا شك أن الدور الرئيسي الذي قام به الأستاذ كرو في تأسيس ملتقى ابن منظور

و«جمعية نادي قفصة الثقافي والاجتماعي»، وحرصه على نشر أعمال الملتقى، ودعمه لجمعية صيانة المدينة، هو امتداد للوفاء لذاكرة هذه المدينة العريقة المناضلة، فلا ننسى أنه ومنذ شبابه، كان لا يفصل النضال الوطني من أجل الحرية والاستقلال عن النضال الثقافي والعلمي في صلب مؤسسات المجتمع المدني من أجل الهوية، ففي المدينة التي أحبَّها وأحبته، وفي أحلك فترات الاستعمار وأشدها عسفًا وتضييقًا على الشعب التونسي، كان الشاب أبو القاسم كرو، سنة ١٩٤٤، مع مجموعة من رفاقه، يتقدم إلى المراقبة المدنية الاستعمارية طالبًا «الترخيص بعقد اجتماع عمومي لتأسيس جمعية ثقافية» يقول الأستاذ عن ظروف هذه الفترة في سياق ذكرياته وآماله في ملتقى ابن منظور: وقد اخترنا للجمعية اسم «شباب ابن منظور القفصي» اقتناعًا منا بحاجة البلاد إلى أمرين في ذلك الحين – وفي كل حين – هما إحياء تراثها وماضيها واعتمادها في نهضتها عليهما، كي تبقى متمسكة بشخصيتها متميزة بثقافتها وحضارتها، ثم اعتمادها على شبابها الواعي المثقف كي يكون بناؤها سريعًا، متينًا، ومتجددًا (ص ١١٢).

وإن لم تثبت نسبة ابن منظور إلى مدينة قفصة، فإن الاسم يبقى رمزًا للتمسك باللسان العربي وجعل لغة الأجداد لغة رسمية لشعبنا في جميع المجالات، كما يوضح الأستاذ العلامة بين رمزية هذا العلم التونسي وبين الأهداف الثقافية والوطنية لمشروع هذا الشباب القفصي الملتزم بمطلبي الحرية والمعرفة، فالمسألة لا علاقة لها بالتعصب أو الإقليمية، بل هي «دليل على تفتح عربي شامل واستيعاب لتراث الثقافة العربية جميعًا، بما فيه من طارفٍ وتليد، وحضارة إنسانية ساهم في بنائها عديد القرون وعشرات الأجيال من شعوب كثيرة (ص ١١٤).

تدرك إذن أن اهتمام الأستاذ كرو بتاريخ مدينته الحبيبة هو اهتمام معرفي يتسع إلى العمق الحضاري للهوية العربية، وهو اهتمام مسكون بأسئلة حاضر هذه الحضارة ومستقبلها وبهاجس التأسيس لشروط القوة وإرادة الوجود الفاعل، بدون انفصال عن

(١) يذكر الأستاذ كرو أكثر من واحد وثلاثين علمًا من أعلام قفصة في القرنين السابع والثامن فقط. (ص ٧٠ – ٧١).

الذاكرة أو انغلاق في دائرة الذات.

إن منهج البحث الذي اتبعه الأستاذ كرو في هذا الكتاب، هو منهج علمي يوثق للحقائق التاريخية للمدينة من مصادرها المختلفة، ولكنه لا يكتفي بسرد الأحداث وتوضيح سياقاتها ومسبباتها السياسية والاجتماعية، بل نراه يقرأ هذه الأحداث برؤية تحليلية لتفسير «منطق التاريخ» الذي لم ينصف المدينة وعبادها، ومن ثمة الدعوة لإعادة قراءة هذه الذاكرة بروح نقدية بناءة: «إن ما آل إليه حال قفصة وكامل الجنوب.. كان سببه، منذ القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي إلى نهاية القرن التاسع عشر على الأقل، كان سببه إهمال السلطة المركزية وضعف شأنها تجاه هؤلاء المغامرين وقطاع الطرق واللصوص... فاختل الأمن وساد قانون الغاب، مما أدى إلى انهيار الحياة الاقتصادية والثقافية وتخريب المدن والقرى وما يتبع ذلك من القتل الجماعي والفرار الجماعي.. والنتيجة لذلك كله هو هذا التخلف الاقتصادي والحضاري وقلة عدد السكان في المنطقة وضعف العمران والقوى البشرية البانية.

وفي هذا التاريخ عبرة وحافز وإيقاظ للعقول ودفع للبناء الجديد إن وجدت العزائم والنية الصادقة (ص ٤١).

فالماضي هو دليل المستقبل، والموطن هو عنوان الوطن، لذلك اتصلت ذاكرة الديار القفصية وحضارتها بروح الأستاذ كرو وثيق الاتصال، وألهمت محبته وتعلقه بمدينته، مركز الثقافة والإشعاع الفكري والأدبي والديني في مختلف العصور التاريخية. فكان هذا العشق نقطة الانطلاق والعودة، ومعبر تجوال الرغبة إلى ضفاف المعرفة المتعطشة لفهم أسباب الوجود وشروط تحققه. فهل هي «مأساة التاريخ في المدينة» أم «مأساة المدينة في التاريخ؟» (ص ٦٦)، في كل الأحوال، فإن مدينة التيفاشي وابن راشد وابن عبدالله التميمي وعتيق المذحجي وكاتب الكرامة وابن البغدادي وابن عمران والقائمة طويلة[١].. هذه المدينة ستظل وفية لتاريخها ورموزها.. وقد كتب أستاذنا الجليل أبو القاسم محمد

(*) شاعر وأديب مصري له عدد من الدواوين. أستاذ قانون بأكاديمية سعدالعبدالله للعلوم الأمنية في الكويت. عضو مجلس أمناء مؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري (سابقًا).

كرو اسمه في هذه الذاكرة الحية بماء الذهب المتوهج بنور العلم وحرارة المحبة.

****

وتبقى الذكريات

أ. د. علي الباز(*)

تبقى الذكريات.. كأغلى ما يحتفظ به الإنسان في ذاكرته وفي قلبه، لا شيء أغلى من أن تستحضر – في روحك وفي نفسك – ذكرى معينه لإنسان أو لمكان، أو لوقائع.. فتأتيك الذكريات بكل ذلك، تستحضر لك، تعود بك له، وتعيده إليك، رغم المسافات المكانية والزمنية.

تكاد تلمس – بالذكريات – حبيبًا غائبًا، ابتعدت به الأيام والسنوات عنك، أو حالت بينكما المسافات البعيدة.. تكاد تستنشقه.. تضمه إلى صدرك، تتحدث معه، يخاطبك وتخاطبه، تقهقه بأعلى صوتك، متذكرًا طُرفةً قالها، أو موقفًا طريفًا جمع بينكما، وتكاد تقبّله محبة وتقديرًا وأنت تتذكر مشاعره نحوك ومواقفه معك.

ولذا فإن الذكريات، هي الوسيلة الوحيدة – في رأيي – لاستعادة ما ضاع من عمر، ومن سنوات؛ وإلا فليقل لي قائل: كيف نستعيد ما فات؟

أنت مع الذكرى، تعيشها، وبذلك تعيش لحظاتها وثوانيها، مهما مرت وقائعها وأوغلت في الزمن، وسكنت كهوف الماضي.. لا سبيل أمامك لاستعادة أمسك الجميل الذي ولّى إلا أن تعيده وتستعيده.. بالذكرى.

ولايمكن أن تتكون الذكرى إلا أذا أثَّرت في نفسك، إلا إذا حفرت نفسها على جدران قلبك، وعلى مرآة عقلك، ولن تؤثر الذكرى في نفسك وتحفر ذاتها في قلبك.. إلا إذا كانت قادرة – هي – على ذلك. ولن تبلغ الذكرى تلك المقدرة إلا إذا كان صاحبها – إنسانًا أو مكانًا أو وقائع – قادرًا ومؤثرًا ورائعًا.

ولست مبالغًا في ما قلته سابقًا.. ولا في ما سأقوله لاحقًا.. أو ما سأقوله الآن: من أن ما قلته عن الذكريات، وعن أنها لا تحفر نفسها في وجدانك.. إلا بصاحبها – صاحب

الذكريات، وبقدرته وتأثيره في نفسك، تلك القدرة التي تتولد عنها أغلى الذكريات. أقول: لست مبالغًا – مبالغة الشعراء رغم أنني أشرف أن أكون منهم – إذا قلت: إن كل ما تقدم إنما يتجسد في الأستاذ أبي القاسم كرو.. الإنسان والصديق والحبيب.

أنا لن أتحدث – ولن أستطيع أن أتحدث – عن علمه وثقافته و«موسوعيته» وجهده الثقافي والأدبي والتراثي، وعن إسهاماته في الثقافة العربية، وعن مؤلفاته العلمية المتعددة، فربما تحدث عن كل ذلك صديق آخر غيري، أو عارف بقدره العلمي، أكثر إحاطة بذلك مني. وإنما أتحدث عن الأستاذ أبي القاسم.. كإنسان وكصديق، وكرفيق ذكريات رائعة.

لقد أسعدني حظي أن أكون رفيق الأخ الكبير الأستاذ أبي القاسم، وأن يكون رفيقي في رحلات عديدة إلى دول المغرب العربي سواء في تونس أو المغرب، أو موريتانيا، أو الجزائر، وكانت تلك الرحلات من أجل الشعر والشعراء، سواء للقاءات مع وزراء الثقافة في تلك الدول، أو المؤسسات والهيئات الأدبية، أو مع الشعراء.

كنا نسعى – حينذاك – لشرح فكرة «معجم البابطين للشعراء العرب المعاصرين» وكان ما زال فكرة تحاول المؤسسة أن تجسدها في عمل موسوعي رائع.

وكنا نسعى لتعاون وزارات الثقافة، والمؤسسات والهيئات الأدبية، مع تلك الفكرة، وكذلك لانضمام الشعراء للمعجم المرتقب، وذلك إضافة إلى اشتراك الشعراء بإبداعاتهم في أنشطة «مؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري» المختلفة.

وكنت – حينذاك – عضوًا في مجلس أمناء المؤسسة، وكان كل عضو من أعضاء المجلس مكلفًا بمنطقة معينة في وطننا العربي، وأسعدني حظي أن أكون مكلفًا – أيامها – بالمغرب العربي.

وكان صديقنا العزيز الأستاذ أبوالقاسم، مديرًا لمكتب المؤسسة في تونس، ومختصًا بدول المغرب العربي كذلك، وهكذا جمعتنا دول المغرب العربي، وجمعنا الشعر والشعراء، وهكذا جمعتنا الصحبة الجميلة في زيارات متعددة، كما تجمعنا الآن تلك الذكريات الرائعة، سواء عنه، أم عن تلك البلاد الشقيقة وعن شعرائها.

كان بإنسانيته الطاغية، وحديثه العذب، وأدبه الجم، وثقافته الواسعة ومخزونه الواسع من الحكايات والنوادر والطرائف، ثم «بنشاطه» الذي لايجاريه فيه أحد، كان بكل ذلك – بالنسبة لي – عالمًا خياليًاً أسطوريًاً وفرصة لابد من «اغتنامها» [كان دائمًا يستعمل تعبير «اغتنم الفرصة» وهكذا تعلمت منه – هذا التعبير – وتركت عبارة «انتهز الفرصة» التي نستعملها عادة في مصر!].

ويبدو أنني في الفقرة السابقة، لم ألتزم الترتيب الصحيح للنواحي المختلفة التي تميز أخانا العزيز، والصحيح أن أبدأ «بنشاطه» الذي لا يجاريه فيه أحد، فهو – رغم أنه كان أكبرنا سنًا – كان أكثرنا نشاطًا، بحيث أننا كنا نلهث – تعبًا وكسلاً – خلفه!

كان كتلة من النشاط في عمله، يبدأ – ونحن رغمًا عنا – عمله منذ الصباح الباكر، وحتى وقت متأخر ليلاً، وكان دقيقًا جدّاً جدّاً جدّاً [لاحظ جدّاً جدّاً هذه] ومنظمًا ومرتبًا في عمله وفي تسجيل كل شيء في خاطره، وفي أوراقه، ولذا كنا – كوفد مشترك حيث إنه كان ينضم إلينا – أحيانًا – بعض الإخوة أعضاء مجلس الأمناء مثل أستاذنا الكبير، وحبيب قلوبنا الأستاذ الدكتور محمد زكي العشماوي رحمة الله عليه، في زياراتنا للمغرب العربي – أقول كنا نعهد بكتابة التقرير التفصيلي من رحلاتنا إلى أخينا العزيز الأستاذ أبي القاسم، وذلك نظرًا لدقته الشديدة.

وكان ثمة شيء آخر، يتميز به الأستاذ «كرو» وكان ذلك الأمر هو: الدقة المتناهية في مواعيده، والمحافظة الصارمة على المواعيد.. ولقد قاسيت أنا شخصيًاً نتيجة «لفوضوية» الشعراء في كل شيء وخاصة المواعيد!!

وأذكر، أننا كنا في تونس، وكنا في يوم جمعة، وأحببت أن أصلي الجمعة في أشهر المساجد هناك «الزيتونة» ويبدو أنني قد شدتني طقوس معينة – أو تقاليد معينة – يقومون بها عقب الصلاة، حيث يجتمع البعض في حلقات يقرأون بعض سور القرآن ثم بعض الأذكار باللهجة التونسية التي أحبها كثيرًا.

ويبدو أنني تأخرت بعض الشيء عن العودة للفندق، حيث كان الأستاذ «كرو»

(*) أديب وشاعر عراقي من مواليد مدينة النجف عام ١٩٣٠ له العديد من دواوين الشعر.

ينتظرني على «الغداء» – على حسابه الشخصي: هكذا أصر أن يقوم بدعوتي على الغداء في الفندق الذي أقيم فيه، وعلى حسابه الشخصي.. رغم أنني أقيم في الفندق! لقد كان – كما نقول في مصر «صاحب واجب» دائمًا.

وعندما عدت متأخرًا، قابلني بثورة عارمة ولكن في أدب شديد.. حتى كدت أغضب.. لكني عرفت فيما بعد أن مواعيده منظمة ومنتظمة تمامًا كمواعيد شروق الشمس وغروبها، ولذا لم أغضب ولكنني أتذكر تلك الواقعة – الآن – كلما أخلفت ميعادًا أو خالفته!

ثم جمعتنا اجتماعات مجلس الأمناء، حيث أصبح الأستاذ «كرو» عضوًا في مجلس الأمناء.. وكان هو.. هو بنشاطه ودقة اقتراحاته التي كان يدرسها جيدًا قبل أن يعرضها على المجلس.

ولكن كل دقته، وجديته في دراسة الاقتراحات أو الآراء، لم تكن تمنعنا – هو «وأنا نظرًا لصداقتنا – من أن نتحالف» – قبل الدخول إلى قاعة اجتماعات المجلس – سويًّا، على أن «نتكاتف» في مساندة آراء بعضنا، أثناء المناقشات وكان لنا عذرنا في ذلك [وليسمح لنا الأخ العزيز الأستاذ عبدالعزيز السريع الأمين العام للمؤسسة بتلك التحالفات السرية! وليكن سماحه هذا.. بأثر رجعي] «وهذا مصطلح قانوني أستعيده الآن من عالم القانون الذي أنتسب إليه أيضًا».

أخي وصديقي العزيز أبا القاسم هل أستطيع أن أنساك؟ وكيف ذلك؟ وكيف؟ وأنت حفرت ذكرياتك على جدران القلب، وعلى مرآة العقل؟ لا أستطيع إلا أن أذكرك.. وأذكرك.. وأذكرك: أخًا وصديقًا.. وحبيبًا غاليًا.

وتبقى أنت.. وتبقى الذكريات.

****

شذرات من الذكريات في الأدب.. والنضال

أ. علي الحلي(*)

تعود أولى ذكريات التعرف بالأخ، الصديق، الأستاذ «أبوالقاسم محمد كرو» إلى أواخر الأربعينيات، تلك الحقبة المترعة بالأحداث الكبرى، وعنفوان الحياة الثورية، ففي مقهى «اللطافة»، الذي تغير اسمه فيما بعد إلى مقهى «طارق» الواقع في نهاية شارع باب المعظم، اعتادت أن ترتاده في الأماسي.. صفوةٌ من الطلبة الشباب، الناهض من مختلف الأقطار العربية، خصوصاً سوريا وتونس والجزائر وجنوبي الجزيرة العربية، مع مجموعة من شباب العراق القومي، وهم يتبادلون همومهم، ويتجاذبون طموحاتهم، ثم يلتقون أولاً وآخراً على وحدة مصير أمتهم وحريتها وسعادتها.

وكان الأستاذ كرو من بين طلبة دار المعلمين العليا (كلية التربية.. الآن)، بينما كنت طالباً في كلية الحقوق، ولا أزال أتذكر سلامه الحميم وتحيته الرقيقة، وإطلالته الوديعة، وهو يصافحني في المقهى، بعد أن قدمه صديق مشترك لنا، وكيف أخذ يثني على كلمتي «إلى المناضل القومي: ميشيل عفلق»، التي نشرت في مجلة «الدنيا» الدمشقية بالعدد ٩٥ – السنة الرابعة وبتاريخ ٣١/ كانون الأول/ ١٩٤٨، غير أنني عرفت فيما بعد دوافع ثنائه وحماسته وصدق مشاعره حين دارت الأيام والأعوام دوراتها.

وكنت حينذاك عضواً في حزب الاستقلال العراقي، الذي ارتبط بوشائج قوية مع حزب الاستقلال المغربي، بل ما زلت أتذكر زيارة رئيسه المجاهد الكبير الأستاذ علال الفاسي إلى بغداد، وحضوري خطبة له مدوية في قاعة الملك فيصل الثاني «قاعة الشعب – اليوم»، المواجهة إلى مقهى اللطافة، وكيف أن الخطبة فعلت فعلها.. تماماً مثلما فعل المجاهد الأستاذ الحبيب بورقيبة في حدائق نادي المحامين عام ١٩٤٩ على أنني كنت مع ذلك أرتبط روحياً بحركة البعث العربي، دون أن تكون لي علاقة أو صلة عضوية بالحزب.

بعد المصافحة، وتبادل الثناء، دارت بيننا أحاديث شيقة متشعبة في السياسة ووظيفة

الشاعر، ودور الأدب عمومًا، ثم تكررت اللقاءات في المقهى نفسه، وتعمقت الصلة، واتسعت دائرة الاستشراف الذاتي، وفي المقهى، كان يتردد عليه الشاعر سليمان العيسى، وفائز اسماعيل، وهكذا كانت بذرة البداية.

وفي باكورة الخمسينيات، كنت أشرف على الصفحة الأدبية لجريدة (اليقظة) اليومية الاستقلالية، لصاحبها المناضل الأستاذ سلمان الصفواني، وكانت تصدر صباح كل يوم خميس، واستطعت استقطاب نخبة بارزة من الأدباء الشباب العرب، أمثال: أحمد كمال زكي، وحامد ندا، وحسين فهمي، وكمال نشأت (مصر)، وسعد صائب (سوريا) وأدباء من (فلسطين) نزحوا إلى العراق بعد النكبة، بالإضافة إلى بعض الأدباء من العراق: كاظم جواد، عبدالله نيازي، ياسين الجسّار، وعصام عبد علي وغيرهم، ولقد كان للصفحة الأدبية دوي هائل في أنحاء العراق كما تهافت على تلقُّفها وقراءتها.. الشباب من مختلف الانتماءات السياسية بشكل لافتٍ للنظر مما أفزع السلطة الملكية.

وكان الأستاذ كرو من بين أبرز كتاب الصفحة الأدبية، وأتذكر بشيء من الحزن أنني كتبت ردّاً قاسيًا بعنوان (الرعاع الجياع) ردّاً على مقالةٍ نشرها فيها. ولقد اجتهدت في الفهم، أن في مضامين كلمته دعوة إلى حرية الجنس، وشجبًا للقواعد المتبعة في الاقتصاص من فاعليها، لما يطلق عليه (القتل.. غسلاً للعار) ورأيت أن الوقت غير ملائم لإثارة مثل هذه الموضوعات، وربما يؤثر على سلوك البعض من الشباب، وتفكيره.. سلبًا في المعطيات السياسية، إلى غير ذلك من المبررات التي انتصفت لها آنذاك بدافع الإيمان الذاتي.

وفي الواقع، كانت مقالتي جامحة، حادة، ومثيرة إلى حد بعيد، ومر علينا أسبوع مشحون بالتوتر والقلق والترقب، ونحن ننتظر ردود الفعل لدى السلطات القضائية. لكن الأمور مرت بسلام وطمأنينة، ويبدو أن ذلك العهد الملكي لم يكن له كبير اهتمام بالمأزق الاجتماعي – الأخلاقي قدر اهتمامه بالمردود السياسي المباشر تجاه الجماهير الواسعة.

واتسعت دائرة العلاقة، وتنوعت مؤشراتها، فبرز الأستاذ كرو اسمًا لامعًا بين الطلبة

المناضلين العرب في العراق – وفي بغداد خصوصًا – ليس على الصعيد السياسي القومي العام، بل على المستوى الأدبي والثقافي والنقدي، فكانت له مساجلات وندوات ومقالات في عوالم الأدب والفكر والفن على الصعيد المحلي والقومي، بل كان من المثقفين العرب، المشهود لهم بطول الباع والحكمة والمتابعة، وسعة الرؤية المستقبلية، وجمالية التنوع الثقافي.

وهكذا عرفته الصحف والمجلات، والأندية والجمعيات الأدبية، وكليات بغداد مثلما غمر اسمه مقاهيها وأكثر منعطفاتها حتى نهاية شارع أبي نواس على نهر دجلة.

في عام ١٩٦٥، قدر لي أن أحصل على إجازة قصيرة، لاستقل الطائرة في شهر نيسان، من بروكسل، المدينة، المعتمة، المطيرة.. إلى تونس بحثًا عن الشمس العربية الساطعة، لكي أقرن الرؤيا بالواقع.. أيام كنت أغنِّي حرب التحرير التونسية، وأعزِّي أمة العرب بشهيدها الخالد «فرحات حشّاد»، وأكتب لها أجمل قصائدي في الحب والحرية، وكانت تلك زيارتي الأولى لها.

ثم ضمتنا داره العامرة في تونس في دعوة غداء كريمة، حضرها لفيف رائع من خيرة أبناء تونس، وتجاذبنا أمتع الأحاديث، وأحلى الذكريات، ثم رافقته إلى دارٍ للكتب يعمل فيها، واختار معي مجموعة رائعة من إصدارات الكتب العربية في شتى ميادين الأدب والشعر تم شحنها إلى بروكسل مباشرة، كان من بينها كتابه عن الشاعر العربي الكبير أبي القاسم الشابي. الذي دوّى شعره في مسامع الشرق العربي.

والتقينا في بروكسل عام ١٩٦٦، ثم تباعدت بنا السبل، فكنت أتسقط أخباره بشغف واهتمام، وعرفت من بين أخباره أنه عمل بعض الوقت في ليبيا ومالطة، وتبقى حقيقة تاريخية يجب أن أقولها لمحبيه، أو لمن لا يعرف فضله وجهده، أقولها بلا مجاملة أو مواربة، أو انحراف عن ميزان الحق:

(*) أكاديمي تونسي. عضو مجلس النواب التونسي. ورئيس لجنة التربية والثقافة والإعلام والشباب في المجلس.

إن الإستاذ أبا القاسم كرُّو.. بيرق خفاق في دنيا العروبة الأصيلة ومجاهد يتحلى بأقصى مراتب التواضع والفضيلة ونكران الذات. ممن انخرط منذ بدايات النهوض والبعث في صفوف الطليعة العربية الواعية.. حاملاً معه زاد التقوى، وإكسير النقاء، وعفوية الوجدان الصادق...

وهو بالإضافة إلى كل ذلك – وهذا أمر مهم وحيوي بتقديري – صوت بارز في حركة الأمة الفكرية والثقافية والتراثية الأصيلة، وشاهد مرموق من بين شهود عصره على النهضة الشعرية الحديثة، وتفجر ينابيع الفن التشكيلي في العراق منذ البدايات، فهو إلى جانب إحاطته بمضامين الحركة، كان من الملتصقين برموزها، أو ممن يعرفهم عن كثبٍ ودراية.

وكان الأستاذ كرو أديبًا لامعًا حييّاً، يحمل قلمًا شريفًا يستل أنبل الكلمات، وأجمل الحروف، وأفضل العبارات.

وكان أمينًا على أصالة تراث الأمة، حريصًا على تطورها التقدمي الحديث.. في الأدب والفن والثقافة.

وفي يقيني: أن النقد الموضوعي الجاد، لن يحجم أو يتردد أو يتعاطى عن وضعه في الموقع المتميز، اللائق به، وبمعطيات إنجازاته الثرّة في ميادين التأليف والتحقيق والإبداع.

وإذا كانت مقومات التجارب الحياتية، لا تحقّق – وكما تفرض الضرورة الشرعية – في كثير من الأحيان.. المعادل الإنساني في العدالة، والتوازن المطلوب وفق المستلزمات المشروطة لما يجب أن تفضي إليه الغاية الحية، المرتبطة أصلاً بمسبّباتها، فإن المحصلة النقيضة لا يمكن كذلك أن تضفي أي نوع من ظلال الحقيقة على الجانب السلبي المتحقق من جهة، أو أن تخلَّ بالمثل أو القيم العليا للخلود الإنساني.

****

أبو القاسم محمد كرو
مثقف مفرد بصيغة الجمع

أ. د. فؤاد الشرقوري(*)

بداية الحديث عن أبي القاسم محمد كرو لا تكون إلا بسؤال مردّه إلى كثرة المداخل إلى هذا الحديث، وتعدّد زوايا النظر إلى هذا الرجل وتنوع مسارات فعله ومجالات نشاطه.

فهل نتحدّث عن أبي القاسم الأستاذ المؤرّخ والعالم المحقّق أم نتحدّث عن أبي القاسم الأديب الكاتب، أم نتحدّث عن أبي القاسم المسؤول عبر ما اضطلع به من الوظائف والأعمال، أم نتحدّث عن أبي القاسم الإنسان الذي يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ويخاصم ويجادل ويصادق ويؤاخي ويتبادل مع غيره الودّ الأصيل.

إن أبا القاسم في الواقع قواسم بصيغة الجمع في الدارجة والفصحى على حدّ سواء. وأفذاذ الرجال لا يكونون إلا على هذا النحو جمعًا مفردًا أو لا يكونون.

ذاك قدرهم وتلك منزلتهم وذاك فضلهم وشرفهم. أما المتحدث عنهم فقدره دومًا أن يجيب عن سؤال: من أين أبدأ؟ وماذا أبرز من جوانب الصورة دون أن أطمس غيرها؟ بعبارة أخرى كيف السبيل إلى الظفر بجانب من شخصية الرجل يختزل سائر أبعادها، بل يمثل قاعدتها وأساسها ويصبح بمثابة الأصل الذي تنبثق منه جميع تلك الأبعاد ومنه تتشكل.

في هذه الحالة كأننا نتحدث عن شخصية أساسية جامعة وهي عند أبي القاسم محمد كرو شخصية المثقف بلا جدال.

عن أبي القاسم محمد كرو المثقف إذن سأتحدث، فكيف ما تحدّث وقال أو فكر وكتب، وكيف ما تحرّى وفعل وأنجز، يظل أبو القاسم مثقفًا بكل ما في الكلمة من عمق المعنى واتساع الأبعاد وأساس ذلك وعي عميق بالواقع الفردي والجماعي وإدراك لمسؤولية المثقف ولدورة ولرسالته.

أجل إن أبا القاسم من جيل المؤمنين برسالة المثقف حيث لابدّ من أن تقود الفكرة

الكبيرة والمثل الأعلى صاحبهما إلى التحرك لنشر الفكرة وتحويل الحلم الجميل إلى واقع. ومن سمات المثقف الحق أنه يناضل حتمًا، ويواجه حتمًا، لا يهمه ما يلقى من الصدِّ والإنكار وحتى الاضطهاد. وكذلك أبو القاسم سيظل مثقفًا مناضلاً بأشرف المعاني.

يخوض المعارك الفكرية والثقافية ويجاهر برأيه وفكره دون مجاملة أو مواربة ويضحي بالمصالح والمنافع إن لزم الأمر، عنيدًا ثابتًا حيث العناد والثبات من أمارات المهج الصادقة المتوثبة والإيمان الراسخ بالمبدأ.

ولعل هذا بعض أسرار ولع أبي القاسم محمد كرو بأبي القاسم الشابي وبالطاهر الحداد وبابن خلدون أيضًا.

إنه رأى فيهم من جملة ما رأى، صورة المثقف التي كان هو أيضًا يحملها في نفسه ووجدانه.

وما من مثقف حقٍّ إلا وهو صاحب مشروع ثقافي بما للمشروع من منطلقات وأهداف وبما يتخذ لتجسيمه من الوسائل ويسلك من السبل.

والرهان الثقافي الأكبر لدى أبي القاسم محمد كرو هو تحقيق صحوة حضارية شاملة منبعها الاعتزاز بالانتماء إلى حضارتنا العربية العريقة واستحضار أمجادها ومنجزاتها الباهرة والتسلح بهذه الروح لمواجهة التخلف الحضاري واستعادة ريادة الأمس التي تُحمِّل أجيال اليوم مسؤولية استرجاعها بالمشاركة في تحقيق التقدم والمساهمة الفاعلة في الحضارة الإنسانية الشاملة.

ذلك هو الحلم الكبير لدى أبي القاسم المثقف تقدميّة في جوهرها تنطلق من الماضي المجيد لتنفتح على أرحب مدارات الحاضر وآفاق المستقبل... فليس عجبًا بعد هذا أن يراهن أبو القاسم على الشباب وأن يخاطبه بشتى الصيغ وأن يكتب له الكتب ويتوجه إليه بالنصائح والوصايا.

لقد اختار أبو القاسم كرو الشباب مدخلاً لنشر الوعي الثقافي والحضاري ومن

(*) شاعر وأديب ودبلوماسي كويتي من مواليد الكويت عام ١٩٢٧ له العديد من دواوين الشعر والدراسات

أجل ذلك أحدث سلسلة «كتاب البعث» وأدارها حلقات شهرية من الكتب حول أعلام الفكر وقضايا الثقافة. فالكتاب عند أبي القاسم يظلّ أنجع الوسائل لبلوغ الصحوة الحضارية المنشودة.

ولذلك أقبل على تأليف ما ألف من كتب كثيرة غزيرة، ما زال يدعمها بجديد التأليف والتصنيف. ولذلك أقدم – راغبًا – على إهداء مكتبته الضخمة إلى كلية الآداب بـ(منوبة) وفاءً لعلاقته بالشباب فكرًا وثقافة ووعيًا وإدراكًا للمسؤولية.

هكذا يظل الشاغل الثقافي الهاجس الأعمق لدى أبي القاسم وقد جسمه بما أشرنا إليه من جوانب القول والفعل والإنجاز، مثلما جسّمه بالمساهمة الفاعلة في خلق سنة ثقافية باقية تمثلها تلك الملتقيات العلمية والفكرية والثقافية التي تمّ بعثها في مختلف جهات البلاد فعدّت من المواعيد الثقافية القارّة التي تجتذب إليها الفكر والثقافة من مختلف الأجيال.

وما زلت أرى أبا القاسم وهو مرابط في مكتبه بمقرّ اللجنة الثقافية الوطنية بتونس يسهر على حسن تنظيم هذه الملتقيات والندوات ويشرف على إعداد ما يلزمها من الوثائق.

يفعل ذلك دون كلل أو ملل، بعزم المثقف وصبر المثقف وإيمان المثقف برسالته النبيلة.

ويمتدّ إشعاع الصورة، صورة أبي القاسم المثقف، فإذا الرجل في مجال العمل الثقافي العربي المشترك، يعمل ويتحرك، دون هوادة، مسكونًا دائمًا بالشعلة المقدّسة لا يهمه أن ينال من جهده وصحته، فالنفوس الكبيرة تتعب في مرادها الأجسام مثلما أكد ذلك المتنبي، ومثلما وجد أبو القاسم في بلاده تونس مجالات الرعاية والتكريم فقد لقي لدى مؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري من التقدير ما مكنه من مزيد خدمة الثقافة العربية.

أطال الله عمر الأخ الصديق أبي القاسم محمد كرو ومتعه بالصحة والعافية وأبقاه رمزًا من رموز الساحة الثقافية في تونس وفي الوطن العربي.

****

من حديث الذكريات

أ. فاضل خلف(*)

عندما رحل أبوالقاسم الشابي عن هذه الحياة في ١٩٣٤ كنت في السابعة من العمر، وفي خطواتي الدراسية الأولى، ولكنني كنت بعد تسعة أعوام أي في عام ١٩٤٣ طالبًا في المدرسة المباركية، وكان مدرس اللغة العربية، هو الأستاذ المصري صابر الجمل الذي أخذ يحثنا على القراءة ويدخلنا مكتبة المدرسة للتزود بما فيها من كتب ومجلات في جميع الفنون بعد أن كنت لا أعرف سوى الكتب الشعبية كألف ليلة وليلة، وكليلة ودمنة، وسيرة عنترة بن شداد، وسيرة سيف بن ذي يزن، وغيرها من الكتب الشعبية.

دخلت مكتبة المدرسة في أواخر شهر أكتوبر، وتناولت قبل كل شيء عددًا من مجلة الرسالة، وكان رقمه ٥٣٦ وتاريخه ١١ أكتوبر ١٩٤٣ وبعد قراءته، وقراءة القصيدة الوحيدة فيه وهي هلال شوال لمحمود حسن إسماعيل، سارعت إلى مكتبة التلميذ في السوق للاشتراك في المجلة التي ظلت سميري على مدى عشر سنوات، حتى توقفت عن الصدور في ١٩٥٣، ولم أكتف بذلك بل أخذت أبحث عن أعدادها القديمة حتى وصلت إلى السنة التي توفي فيها أبوالقاسم الشابي، فإذا بي أقرأ قصائد مضيئة لشاعر مبدع اسمه أبوالقاسم الشابي التونسي، وفهمت بعد ذلك أن المجلة أخذت تعيد ما نشر للشابي في مجلة «أبولو» المصرية.

وأحببت الشابي وكان من بين القصائد قصيدته الجميلة «النبي المجهول» وكنت أظن أن الشاعر توفي في سن الشيخوخة حتى علمت من الذين يعرفونه أنه غادر الدنيا وهو في الخامسة والعشرين، فازددت له حبّاً على حب.

ومرّت الأيام وأنا أبحث عن أخباره حتى جاء يوم من عام ١٩٥٢ عندما وقع في يدي

كتاب «أبوالقاسم الشابي: حياته وشعره» بقلم الأديب التونسي أبي القاسم محمد كرو.

لقد كان كتاب الأخ كرو نقطة تحول في حياة الشابي، وحياة كل قارئ يحبه، أقول نقطة تحول، لأن هذا الكتاب بما فيه من معلومات قيمة عن الشاعر، جعلت القراء في كل مكان، يطّلعون على عالم مفتوح الآفاق على سيرة الشاعر، التي كانت محجوبة عنهم تمامًا، نعم كنا نعرف بعض قصائد الشابي التي نشرت في أبولو والرسالة والأديب، ولكننا كنا نتشوق إلى معرفة الشاعر، متى ولد وكيف عاش وكيف مات، وهو في بواكير الشباب، كنا نريد أن نتعرف على أشياء كثيرة عن شاعر زخرت أشعاره بعوالم عجيبة من المعرفة والفلسفة والحب والحياة. لذلك تلقيت الكتاب «بفرحة من وجد جزيرة آمنة في البحر اللُّجيّ، أو واحة غنَّاء في المفازة الجرداء» على حد تعبير الشاعر المصري الأديب محمد مصطفى حمام، في أحد مقالاته عن كتاب من الكتب منذ أربعين سنة.

إن فرحتي بكتاب أبي القاسم عن أبي القاسم، لم تكن فرحة لي وللقراء وحسب، بل كانت فرحة الكبار في الوطن العربي، ومن يتصفَّح الأعمال الكاملة للشابي، التي أصدرتها مؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، يجد كبار الأدباء، قد تلقوا كتاب أبي القاسم عن أبي القاسم، بمثل فرحتي.. ولم أنقل هنا سوى جزء من رسالة ناسك الشخروب ميخائيل نعيمة الذي وجه رسالة إلى المؤلف قائلاً: «وأما كتابك عن الشابي فهو في نظري خدمة جليلة للأدب العربي، وللمكتبة العربية. فهذا الشاعر الفذ الذي طوى المنون صحيفة عمره، وهو ما يزال في ريّق الشباب، جدير بأن يعرف العرب في كل أقطارهم أين نبت وكيف عاش وعن ماذا تفتقت قريحته الجياشة، بالثورة على الظلم والبشاعة، والتَّوافه، إلى العدل والحرية والجمال. فليس يكفينا أن نعرف أنه القائل:

إذا الشعبُ يومًا أراد الحياةَ
فلا بدَّ أن يستجيبَ القدرْ

ولا أبالغ إذا قلت إن أكثر الذين سمعوا بالشابي لا يكادون يذكرونه إلا بتلك

القصيدة «إرادة الحياة». وإذن فكتابك عنه قد جاء في وقته. بارك الله فيك – المجلد الرابع – ص٤٠٥.

نعم.. لقد جاء كتاب أبي القاسم عن أبي القاسم، في وقته كما قال ميخائيل نعيمة، وكما قلت أنا، وكما قال آلاف القراء من الذين أدركوا ما في شعر الشابي من فنٍّ جديد لم يألفوه من قبل.

وأذكر هاهنا أنني بعد رجوعي من تونس منهيًا أربعة عشر عامًا من العمل بسفارة الكويت، طلبت مني الإذاعة والصحافة أن أشارك في تقديم أحاديث ومقالات أدبية، وفي سؤال وردني من البصرة في العراق يتساءل صاحبه محمد صادق الحلي، عن فن الأدب، وهل يمكنه هو أن يصبح في يوم ما شاعرًا أو كاتبًا، قلت له جوابًا على سؤاله في جملة ما قلت: « إن أبا القاسم الشابي الذي ودع الحياة في سن الخامسة والعشرين، فرض نفسه على الحياة الأدبية، لأنه أتى بشيء جديد غير مألوف في الحياة والأدب والمجتمع، وما هذا الشيء الجديد الذي جاء به إلا الفن، فصار له هذا الصيت الطائر في الأدب العربي بديوانه «أغاني الحياة» – كتاب قراطيس مبعثرة لكاتب هذه السطور ص١٧ – ١٨ مقال فن الأدب.

ومن كتاب أبي القاسم عن أبي القاسم تطاير النسل المبارك من أشعار الشابي في الوطن العربي، وتغلغل في الكتب والمجلات، هنا وهناك – خاصة الكتب المدرسية، حتى لم يبق طالب مدرسة لا يعرف أبا القاسم الشابي بقصيدته «إرادة الحياة» وببيتيه المشهورين في مطلعها، لأن هذين البيتين، يعتبران من شعر الثورة ضد الغاصبين.

تعمدت أن أطيل الحديث عن الشابي، وأنا بسبيل الحديث عن أبي القاسم كرو، لكي أعمق الروابط المتينة بين الرجلين، فأبوالقاسم الشابي بإبداعه، وأبوالقاسم كرو بإخلاصه للأدب وإخلاصه لشعر الشابي، وإخلاصه لتونس التي أنجبتهما، فجعلتهما يلتقيان في خط إبداعي واحد، وقد رأينا آثار هذا الخط الإبداعي، وهي تزدهر في ميادين الأدب منذ

أكثر من أربعين سنة.

أعود الآن إلى ذكرياتي مع أبي القاسم محمد كرو.. فبعد قراءتي لكتابه الأول عن الشابي، وكنت أعمل حينذاك في إدارة المعارف، مرَّ عليَّ كتاب تعيينه في سلك التعليم في الكويت فسررت غاية السرور، وأخبرت زملائي في نادي المعلمين، وكان فيهم عدد من الأدباء والشعراء الذين قرأوا كتابه وآثاره الأدبية في المجلات، فشاركوني سروري، واغتبطوا بالخبر، فوجود أديب تونسي بينهم يعني التواصل الأدبي والثقافي بين البلدين الشقيقين، وكانت تونس في ذلك الوقت تكافح كفاح الأبطال، ضد الغزاة في سبيل الاستقلال.

وانتظر الإخوان موعد وصول أبي القاسم، وطال انتظارهم ثم حدثوني في الأمر، فكان جوابي مخيبًا لآمالهم، حيث إنه اعتذر قبل حلول العام الدراسي بوقت قصير.

ومرّت الأيام، وكانت عشرة أعوام، عندما تم تبادل التمثيل الدبلوماسي بين الكويت وتونس، وعينت الكويت سفيرها المرحوم السيد رجب الرفاعي في عام ١٩٦٢، لدى تونس، وكنت إذ ذاك بعد رجوعي من لندن، أقدم أحاديث أدبية في راديو الكويت، فاتصل بي السفير قائلاً: ما رأيك في العمل معي في السفارة؟! فشكرته على مبادرته الكريمة موافقًا. وبعد اتصال منه بوزير الإعلام عينت ملحقًا إعلاميّاً بالسفارة، وسافرت إلى تونس في منتصف شهر جويليه ١٩٦٢.

وقد سحرتني تونس بجمال طبيعتها وبجمال طبيعة أهلها، وفي خلال ثلاثة أشهر، استطعت أن أدخل قلوب التونسيين من أوسع الأبواب، وهو باب الأدب – وأهل تونس أكثر الناس عشقًا للأدب – فقد وردتني رسالة من أخي وأستاذي عبدالله زكريا الأنصاري يقول فيها: إلى الذي أنسته تونس الخضراء إخوانه الأدباء، فبادرت بالرد شعرًا بقصيدة «تونس الخضراء» قلت في مقدمتها:

لم تُنْسِني تونسُ الخضراءُ إخواني

ولـم تـــــزدنـي ســـــوى شـــــوقٍ لخلاَّنـي
ولـم تـــــزدنـي ســـــوى حبٍّ إلـى وطنٍ
أصْـفـيـتُه الـودَّ ألـوانًـا وأصـفـاني
ولـــلـــكـــويت حـــنـــينٌ بـــات مِلْءَ دمي
لـــولا وجـــودي في الخـــضـــراء لأضْـنَـاني

وكانت القصيدة في ثلاثة وعشرين بيتًا وهي أول قصيدة نظمتها بعد انقطاع عشر سنوات عن نظم الشعر، وكانت أشعاري السابقة كلها في الغزل، ما زالت حتى الآن، مخطوطة لم تنشر وعنوان المجموعة «باقة من الورد».

ثم إن القصيدة نشرت في مجلة اللغات لصاحبها الأخ الصديق أحمد بلخوجة، وفي المساء اتصل بي السفير السيد رجب الرفاعي بالهاتف وهو يقول «افتح الراديو على تونس» وإذا بالمذيع يقرأ القصيدة بصوتٍ إذاعي جميل.

وهكذا بعد أن كانت القصيدة في نطاق محدود، أصبحت في كل بيت، ومنها كما قلت قبل قليل دخلت قلوب الأحبة التونسيين من أوسع الأبواب، ومنهم الأخ أبوالقاسم محمد كرو الذي وجدت فيه الصديق الصدوق، والأخ المحب، والزميل المعين، وقد زودني بدراسة عن الصحافة التونسية التي ساعدتني على معرفة المسيرة الصحافية بكل وضوح.

وقد ضمَّتني مع الأخ أبي القاسم عدة لقاءات عامة وخاصة مثل اللقاءات الأدبية عن عباس محمود العقاد، وبدر شاكر السياب، ومصطفى خريف، ولا أنسى الندوة الأدبية التي بثتها الإذاعة التونسية على الهواء عن أبي القاسم الشابي، فقد كان إخواني أدباء تونس يدعونني لمشاركتهم في كثير من اللقاءات الأدبية والمهرجانات الثقافية.

وفي ختام هذه الكلمة العجلى التي جاءت والشيخوخة تزحف علي بكل متاعبها بعد

(*) مفكر وأكاديمي تونسي، رئيس كرسي اليونسكو للفلسفة بالجامعة التونسية.

السبعين لا سيما ضعف البصر، فلم تسعفني الذاكرة الكليلة إلا بهذه الكلمات القليلة التي أرجو أن يكون فيها شيء يستحق الذكر في هذا المقام، وهو تكريم أخي العزيز أبي القاسم محمد كرو، أخي الأديب الذي كان له الفضل مع إخوانه الأدباء، في تسهيل مهمتي الثقافية مدة أربعة عشر عامًا، وأنا في تونس الخضراء، أخي الأديب الذي أثرى الحياة الأدبية بعشرات الكتب، كان من أهمها عدة كتب عن شاعر تونس، بل شاعر العرب أبي القاسم الشابي.

وكلمة أخيرة في هذا المقام أهديها إلى روح المرحوم الأديب المغربي الذي عمل قبلي في تونس ملحقًا إعلاميًا في سفارة المملكة المغربية، وكان أبوالقاسم محمد كرو هو الذي حدثني عنه قائلاً: «لقد أعدت إلى الأذهان سيرة الأديب المغربي، الذي كان يعيش بيننا في تونس، ويعمل مثل عملك، وكان يشاركنا كما تشاركنا أنت اليوم في الحياة الأدبية والثقافية».

وعلى ذكر الحياة الأدبية والثقافية لا بدَّ لي من ذكر مجلة الثقافة التي أصدرها الأخ أبوالقاسم محمد كرو والتي كان لي شرف الكتابة فيها عن أحد الشعراء الكويتيين.

****

(١) أبو القاسم محمد كرو، حصاد العمر، المجلد ١، دار المغرب العربي تونس ١٩٩٨ - ص ١٣.

(٢) انظر حصاد العمر المجلد٦، ص ٢١.

الهويــة والحـريــة فــي فــكر
أبي القاسم محمد كرّو

أ. د. فتحي التريكي(*)

أبو القاسم محمد كرّو علم من أعلام التجديد في الحركة الفكرية التونسية والعربية، في مجمل إنتاجاته التي قد أعاد إصدارها في أعماله الكاملة «حصاد العمر»، تبيِّن بصفة قطعية نضاله اليومي من أجل تجديد التصورات والمفاهيم لتكريس ثقافة مناضلة لنهضة عربية متواصلة، وبعث قيم حضارية حديثة ومتأصلة في الآن. سأحاول في هذه الدراسة التي أهديها إلى أستاذي تكريمًا لإسهاماته المتواصلة في تطوير الفكر العربي، أن أبين الوسائل التي بواسطتها حاول أبو القاسم محمد كرو أن يجدد الكيان بعد تأصيله من خلال تركيزه:

أ - لأدب مناضل توحيداً للكيان العربي.

ب - لثقافة ناقدة تطويراً للعقل العربي.

ج - لأخلاقيات التعامل البشري تحييناً للسلوكات الإسلامية النزيهة.

لا يختلف اثنان في تحديد معالم الفترة التاريخية التي بدأ فيها المفكر حياته الأدبية، من حيث هي فترة بداية الخيبات والانتكاسات العديدة التي واجهت الأمة العربية بعد سقوط فلسطين وتركيز الكيان الصهيوني في ربوعها، ولكنها كانت أيضًا فترة النضالات المتعددة التي تهدف إلى التحرير والتنوير حتى تتقدم الشعوب العربية وتشد عودها صمودًا ومقاومة، فكان لابد للأدب العربي بصفة عامة أن يتفاعل مع أزمات مجتمعاته وتمزّقات أفكاره وأن يحاول بعث سيرورات إبداعية متجددة ومفاهيم وتصورات مستحدثة علها تساهم في تأسيس ركائز النضال الفكري بحثًا عن الكيان والحرية والتقدم.

---

(١) انظر حصاد العمر، المجلد ١ - ص ٢٣.

نجد هذا التوجه التجديدي في بدايات مؤلفات الكاتب حيث تقرأ له مثلاً في مقالة صدرت له في ديسمبر ١٩٤٧ حول «الكشافة» ما يلي: «ونحن كأمة تتطلع لأبعد غايات الأمم وتريد أن تبلغ مركزها في الحياة ومكانها في الوجود وأن تنال حظها غير منقوص من التقدم والرقي في كافة الميادين دون أن يكون لأحد فضل عليها، أو تفرط في شيء من تراثها العتيد ومميزاتها الخاصة، يجب عليها أن تسلك خير السبل المؤدية إلى ما نصبو إليه»[١].

لقد فهم المفكر الأديب، في هذه الفترة الحرجة من تاريخ الأمة العربية، أن البكاء والحسرة وتمجيد الماضي وغيرها من المواقف الوجدانية التي عبر عنها الكثير من الأدباء والشعراء والمبدعين عصر ذاك غير كافيه لإعادة ترتيب البيت، فمهمة المثقف قد أصبحت متمثلة في تكوين منظومة مفهوميّة تقدميّة وتحررية، بواسطتها نفهم واقعنا ونقرأ ماضينا ونستشرف مستقبلنا. فعندما نتحدّث عن الأدب النضالي فإننا لا نعني فقط النظر إلى الكتابة من منطلق سياسي صرف قد يلغي السند الجمالي والنقدي للأثر الأدبي. فالمنطلق السياسي للأدب بصفة عامة قد يتدحرج به إلى مستوى الأداة السياسية والفكرة الإيديولوجية والتحريض النضالي، إذ إننا نعني بالأدب النضالي ما به تتكون لغة جديدة ثوريّة في ميدان الثقافة. قد تكون هذه اللغة الجديدة نتيجة مدّ انفعالي لا غير، يظهر ويغيب مع فترة زمنية محددة، وقد تكون نتيجة تدبر الأمور الواقعة تدبرًا عقليّاً نعبر عنه تارة شعرًا وتارة أخرى نثرًا، فيأتي أحيانًا في صورة إقرارات أدبية وأحيانًا أخرى في صورة تفكير فلسفي عميق. إنه الأدب الملتزم الذي كان أبوالقاسم الشابي خير مثال لتكريسه بجمالية فائقة وكان محمد فريد غازي أفضل معبِّر عن مستلزماته وأهدافه وكان أبو القاسم محمد كرو أفضل من دافع عنه في كل أعماله، بداية من كتاباته الثقافية ومقالاته التنويرية ودراساته حول أدباء عصره ومناضليه، وصولاً إلى مقالاته المتعددة في المجتمع المدني ومرورًا بنشاطه المتنوع في النوادي والجمعيات غير الحكومية، حتى وإن كانت له مشاركات في المؤسسات الرسمية، فكلها تدخل ضمن فلسفة الالتزام في الكتابة، يقول أبو القاسم محمد كرو عن العلاقة بين الثقافة والسياسة مثلا «بالنسبة إليّ هي علاقة كعلاقة الدم باللحم لا انفصام ولا انفصال بينهما»[٢].

---

(١) حصاد العمر، مجلد ١ - ص ٤١.

ولابد من أن نستخرج بعجالة عمادين اثنين للأدب النضالي الذي يميز أعمال المفكر ونشاطه، فالعماد الأول يتمثل في ما سأسميه بالوعي بالذات، والعماد الثاني هو الحرية في الفكر والعمل.

فكان الوعي بالذات هدفًا واضحًا من أهداف فكر أبي القاسم، لقد فهم أن الفرد ما دام يعيش في حصار داخل دائرة نفسه أو داخل دائرة مجتمعه، وما لم يدرك أسباب ذلك ومكوّناته ومستتبعاته فيعي ذاته من حيث هو فرد له الحق في الحياة والنثر والإبداع، ومن حيث هو عضو في بناء اجتماعي وقومي يمكن أن يكون فيه فاعلاً ومواطنًا، فإن علاقته مع ذاته تبقى في كنهها جريحة مهزوزة قد تتحكم فيها دوافع وجدانية داخلية أحيانًا ومطامع منفعية خارجية أحيانًا أخرى. إن إنسانًا يجهل ذاته لا يمكنه أن يكون فاعلاً في مجتمعه، فلا غرابة أن يبدأ أبو القاسم حياته الفكرية بوضع سؤال قد يبدو ظريفًا، ولكنه يدخل – حسب رأينا – ضمن مشروع الوعي بالذات الذي حاول المؤلف تركيزه في غالب أعماله، فهو يتساءل في مقال صدر له بجريدة لسان العرب سنة ١٩٤٨[١] «أتونسي أنت..؟» فيحثنا على العودة إلى الذات لتأصيل كياننا «التونسي من تخلق بخلق الإسلام وارتدى شيم العروبة»، ولكنه يحثنا وبنفس العملية على تحديث الكيان لأن مبدأ التونسي هو «تخليص هذا الوطن من كبوته، وعقيدتُه العمل المستمر والجهاد المتواصل في النهوض بشعبه والسير به قبالة أهدافه المنشودة..».

فالهوية بالنسبة إليه لا تعني ثباتًا في الذات بقدر ما تعني توجيه الثوابت نحو مشروع نضالي جهادي متواصل نحو الأفضل، بذلك تكون الهوية عنده مشروعية – حسب تعبير جان بول سارتر – وليست ارتكاسيّة كما نجدها متمحورة عند البعض من المفكرين الفاعلين في المجتمعات العربية.

وثمة ملاحظة لابد أن أسوقها هنا. لقد شهدت الساحة الثقافية في تونس بعد الحرب العالمية الثانية حركيَّة فاعلة في تكوين هوية متفتحة تمنع التقوقع والتحجّر والتطرف، وكان

(١) حديث رمضان، سلسلة البعث – ١٩٥٧ تونس.

(٢) المثاقفة بين الحضارات، حصاد العمر، المجلد السادس ص ١٧٦.

ذلك استتباعًا لحركة النهضة في أوائل العشرينيات، ولعب فيها الطلبة الزيتونيون بجانب الصادقيين دورًا ريادياً لا يستهان به، ويدخل تأسيس مجموعة كتاب البعث، الذي قام به أبو القاسم محمد كرو في أواسط الخمسينيات، ضمن هذا التوجه الإقبالي للهوية الذي أعطى لتونس صبغة خاصة تميزت بها عن ثقافات الوطن العربي، مع التأكيد على أن ذلك – حسب رأي المفكر – يكون في واقع الأمر دفعًا لتجديد الثقافة العربية حتى تلعب دورها في توحيد الشعوب العربية مروراً بتوحيد المغرب العربي.

أما الدعامة الثانية للأدب النضالي عند أبي القاسم محمد كرو فهي دعوته المتواصلة للتحرر. فالفكر الوحدوي لابد أن يقوم على فكرة التحرر والتقدم – على الصعيد الاجتماعي والقومي، وعلى فكرة الحرية والحقوق على الصعيد الشخصي والفردي. فالقارئ والمتمعن في أثر المفكر الأديب يلاحظ نزعة ليبيرالية تحررية في بدايات كتاباته في أواخر الأربعينيات، فهو يقول مثلاً في مقال نشر بجريدة اليقظة ببغداد وصدر في مجلة البعث سنة ١٩٤٩: «الحرية وباسمها تذكر الحضارات... بجوهرها تسمو شعوب وتعلو أمم، ولكن أيضًا «برموزها يستعبد الإنسان أخاه الإنسان وتمتصّ الدول دماء الشعوب»[١]. نعم، لقد حاول المفكر أن يكون – من أول وهلة يقظًا إذ إن معضلة الحرية التي قد بنى عليها الغرب حضارته في الآن الذي بواسطتها قد استعبد الشعوب. لذلك ربطها الكاتب بالتحرير أصلاً باعتبار أنها نضال يومي في سبيل العزة والكرامة. فهي في تونس – عهد الاستعمار – «تطهير لأرض الوطن من فظائع المستعمر البغيض».. و«لكنها في الجزائر جهاد عبدالقادر خمسًا وثلاثين سنة».

ولكن فكرة الحرية ستتبلور أكثر في كتاباته لا سيما في فترة ما بعد الاستقلال حيث لم تعد تقتصر على التحرر من غطرسة المستعمر، بل أصبحت تلتصق بهوية الفرد من حيث هو أسّ المواطنة من ناحية، ومن حيث هو إنسان له حقوقه الأساسية التي يجب على كل نظام سياسي واجتماعي حمايتها. فهو يقول مثلاً في حواره مع الأديب المفكر فؤاد القرقوري[٢] «... وإذا عدتم إلى سلسلة كتاب البعث تجدون أنها كانت تحمل شعار (فكر حر وحياة أفضل) فالثقافة والفكر حرية أو لا تكون، وهي إلى ذلك لا يمكن أن تكون إلا أصيلة نابعة من ذاتنا ومتفتحة في ذات الوقت على كل ثقافات العالم دون تحديد».

الحرية هاجس أساسي في أعماله الأدبية ومواقفه السياسية وإنتاجاته الفكرية، فعلى سبيل المثال كان كرو وهو زيتوني التكوين من أول الذين مجّدوا صدور مجلة الأحوال الشخصية التي أتاحت للمرأة التونسية استرجاع كرامتها وحريتها فكتب مخاطبًا الزعيم الحبيب بورقيبة «مرحى لقد نقلتنا من ضفاف القرون الوسطى إلى ضفاف العصر الحديث».

هكذا يأخذ التحرر هنا بعدًا حضاريّاً به تستكمل الحضارات شؤونها وعليه تتأسس حواراتها، فالتحرر هنا يقضي على رماديّة الهوية من حيث هي ارتكاس وتشبث بالماضي وبالتراث، لقد كان كرو عروبي التوجه في حياته وأعماله وأفكاره، ولكنه لم يكن يومًا تراجعيّاً في مواقفه وكتاباته، فقد دافع وبقوة عن كل الأدباء والكتاب والشعراء والمفكرين التقدميين، بعثيين كانوا أو ماركسيين أو اشتراكيين وحتى الشيوعيين منهم، لأنه يؤمن بدور حرية الفكر في تقدم الأمم وإشعاعها، يقول كرو في كتابه حديث رمضان «ولا سبيل مطلقًا اليوم إلى الرجوع للوراء لنبدأ من حيث بدأ أجدادنا أو حتى من حيث انتهوا، بل علينا أن نأخذ جميع قيم الحضارة المعاصرة..»[١].

وقد وضّح هذه الفكرة في مكان آخر عندما قال «أعتقد أنه إذا كان من واجبنا أن نعتز بتراثنا ونبني عليه، فإنه لمن واجبنا أيضًا أن لا نأخذ منه إلا ما يكون دعامة لنهضتنا ورافدًا لتقدمنا، إلى جانب ذلك علينا أن نفتح عيوننا وصدورنا وعقولنا بالخصوص على جميع الثقافات المعاصرة وجميع العلوم والإنجازات التي حققها الإنسان الحديث»[٢]. هكذا يتسنى لنا التأكيد في الدفاع عن الأدب النضالي، على التوجه التحرري التعقلي للمفكر (أبو القاسم محمد كرّو)، فلا يكاد يخلو عمل من أعماله المتنوعة والثرية من التشديد على النضال الفكري من أجل التعقل والتحرر، وحتى دراساته الكثيرة في التاريخ والحضارة العربية في المغرب العربي لا تخلو من البعد النضالي التحرري، همّها ترسيخ

(*) أستاذ جامعي وأكاديمي وباحث ومفكر تونسي من مواليد عام ١٩٥١. عضو مجلس أمناء مؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، عضو المجلس التنفيذي لليونسكو، له عدد كبير من المؤلفات.

العقل الرصين في نمط تناولنا لتاريخنا ولأعلامه وأبطاله وإنجازاته. ويضيق المجال هنا للاستدلال على هذه الفكرة، ولكنه يكفي الاطلاع على مقالاته حول تاريخ (ابن أبي الضياف) أو حول ثورة علي بن غذاهم أو حول علي مصطفى المصراتي أو حول التيفاشي وحول بعض زعماء العالم الذين ارتبطوا بفكرة الحرية والنضال مثل نهرو وبوتو وغاريبلدي، يكفي الاطلاع على هذه المقالات للتأكد من أن المفكر كان دائمًا «يحارب ويشهر بكل استغلال» هدفه عودة الحياة الى الشعب التونسي وإلى الأمة العربية وإلى الإنسان بصفة عامة.

****

الطاهر الحداد في
نظر أبي القاسم محمد كرو

أ. د. كمال عمران(*)

للطاهر الحداد منزلة بين قاسمين. الأول أبوالقاسم الشابي والثاني أبوالقاسم محمد كرو. نجد عند الشابي صورة من العصر اشترك بها في اختراق النسق السائد مع الحداد، فمثل وإياه ميزة في المجتمع نطقت عن قدرة على فهم الأوضاع السائدة وعلى التهيؤ لتحديث الفكر. فأبوالقاسم علامة على النهل من المعرفة الزيتونية سرعان ما تخطاها إلى الأخذ بأسباب المعرفة العصرية وهو الجهد نفسه الذي أنجزه الحداد.

ونجد عند أبي القاسم محمد كرو صورة عن التفاعل مع آثار الحداد في فترة كان فيها كل شيء يعود إلى الزعيم الحبيب بورقيبة، فالوقوف على غيره من رجالات الإصلاح مغامرة بل مجازفة، وهذا ما يرفع كتاب أبي القاسم محمد كرو إلى درجة الجرأة والمبادرة. وهو كتاب أراده صاحبه دينًا إزاء الحداد وهو عندنا درس لافت لما أبصره مفكر تونسي في فجر الاستقلال عن مفكر تونسي عاش خلال الثلاثينيات.

١ - التعريف بالطاهر الحداد:

يمثل الطاهر الحداد أنموذجًا للمفكر الفاعل في المجتمع التونسي في ثلاثينيات القرن العشرين. فقد جمع إلى النضال النقابي نضالاً اجتماعيّاً انعكس في كتاب له أثير عنوانه «امرأتنا في الشريعة والمجتمع» صدر سنة ١٩٣٠، وقد حمل الكتاب علامات أراد بها المؤلف أن يحرّر المرأة التونسية، فلقي عنتًا شديدًا من بعض شيوخ جامع الزيتونة، بل جرّد الحداد من شهادته العلمية وأصيب بقهر اجتماعي شديد أدى إلى وفاته في ريعان شبابه.

٢ - بين الحداد وأبي القاسم الشابي:

لا شك في أن ما خلّفه الطاهر الحداد من آثار ما زال يحتاج إلى الدراسات، فما

نشر عنه قد نال منه غرضًا، ولكن تقدم المناهج وخصوبة المقاربات تدعو إلى عقد صلات جديدة مع هذه المدونة. وليس بعيدًا عن مؤلفات الحداد القراءات التي تناولتها بالنظر والبحث، لذلك اخترنا في هذا السياق أن ننظر في قراءة من قراءات النقاد عن الطاهر الحداد. إذ اعتبرنا أن قراء الحداد يمثلون جانباً مهمًا في الإلمام بمنزلة هذا المفكر في الفكر التونسي الحديث بل في الفكر العربي عمومًا، فإن القراءات هي التي تدفع إلى تمثل تلك المنزلة. ولقد سبق أن قلبنا النظر في قراءة لم ترصد في كتاب «امرأتنا في الشريعة والمجتمع» إلا ما يكبل الرجل بوابل من السباب ومن الانتقاد. ومن هذه الدراسات دراسة الشيخ محمد الصالح بن مراد بعنوان «الحداد على امرأة الحداد».

ونروم في هذا المجال أن نولي اهتمامًا بقراءة قد تعاطفت مع الحداد بل أعلنت الانتصار الواضح لعمل الرجل، وقصرنا العناية بموضوع المرأة دون غيره من القضايا التي خاض فيها الطاهر الحداد.

يشير عنوان البحث إلى العلاقة بين أبي القاسم الشابي والطاهر الحداد، وهي علاقة جديرة بالدرس، لأن الوشائج بين الرجلين لم تتولد عن طريق الصدفة بل هي قائمة على طبيعة الحياة الاجتماعية التي عرفها المجتمع التونسي في العشرينيات من القرن العشرين. ولقد أحدث صدور كتاب أبي القاسم الشابي «الخيال الشعري عن العرب» ضجة في تونس، إذ إنّ الكتاب وهو محاضرة في الأصل، شنَّع بالخيال العربي وألح على الضحالة التي سيطرت عليه، ومجدّ خيال الأوروبيين لما فيه من بعد أسطوري كان حنينًا دائبًا إلى زمن بكر، زمن البدايات التي كان فيه الإنسان يحظى بوجود خصب، وكان أيضًا رفضًا للواقع المهيض وطلبًا لوجود جديد قوامه على سديم الكون الأبدي. لقد أحرج كتاب الشابي الذائقة الشعرية السائدة وأقضّ مضجع الطريقة التقليدية التي أسّرت الشعر في النظام الأخلاقي والاجتماعي، فنزل الشعر عن عرش الإبداع والإنشاء، ليستحيل وصفات ممجوجة تعدّ لغواً من الكلام.

ولقد أحدث كتاب الحدّاد (امرأتنا في الشريعة والمجتمع) ضجّة صاخبة هو الآخر فكان فعله في الحياة الفكرية عنيفًا استنفر قوّة نظارة المسجد الأعظم على لسان الشيخ

محمد الصالح بن مراد لإعلان الحداد على امرأة الحدَّاد. فكان ظاهر العلاقة بين الزيتونيين ممثلين في الشيخ ابن مراد سجالاً حول الموقف من الشريعة، الإسلامية وباطنه متصل بما في آراء الحداد من مواقف داعية إلى أن تنال المرأة حظها من الحياة الاجتماعية.

كان صدى الخيال الشعري للشابي في الحياة الأدبية والفكرية من قبيل الصدى الذي أحدثه كتاب (امرأتنا في الشريعة والمجتمع) في الحياة الدينية. وإن كان الخيال الشعري أرسخ في مجال الإبداع والنقد فإنّه لا يخلو من الإبانة عن الوضع الحضاري في العشرينيات، وإن كان كتاب الحداد (امرأتنا في الشريعة والمجتمع) أقرب إلى الدراسة الحضارية فإنه لم يخل من إشارة إلى النسق الفكري التقليدي الذي شلّ الإبداع وجعل الإنشاء الصادق ضربًا من رجس الشياطين.

ولا يخفى أن الشابي شأن الحداد قد عالج مسألة المرأة. وقد تغزّل الشابي بالمرأة وارتقى بها إلى صف الآلهة فصلّى لها في هيكل الحبّ:

يا ابنةَ النورِ إنني أنا وحدي
من رأى فيك روعة المعبودِ

أو قوله في قصيدة أخرى:

أفقْ أيها الشعبُ المهانُ فقد أتوا
إليك بتجنيسٍ لعلك تُخدَعُ
ولا ترهبنْ فالخوفُ موتٌ محقّقٌ
يعمُّ بيننا شرُّه المتطلع
نهوضًا على المجد الذي شادَ أهلُنا
بعزمٍ له قلبُ الصَّفا ينصَدع

(١) أبوالقاسم محمد كرو، حديث رمضان، سلسلة كتاب البعث عدد ٢٤، تونس ١٩٥٨.

فالوقوف عند صورة المرأة عند الشابي يحيل إلى تأمل في المنشود الرومنطيقي الذي كان مستبدًا به. أما الحداد فقد سخّر كتاباً لهذه القضية واقتضت طبيعة الكتاب أن ينزل الحالة في بعدها الحضاري تنزيلاً مزدوجًا. جانب فيه متصل بالشريعة. وجانب ثانٍ مستند إلى المجتمع وإلى وضعية المرأة ضمنه. ولا وجه للتكافؤ بين الجانبين في الكتاب لأن القسم الأول وجيز والثاني وفير، بيد أن الإيجاز في الأول لم يمنع من التصريح بآراء لم يعرف لها من نظير في الفكر العربي الإسلامي إلا نادرًا. تميز هذا القسم بالجرأة التي دفعت الحداد إلى الفصل بين الأحكام الشرعية والقيم الفاضلة التي تحددت في المثل الأعلى الإسلامي. فمثل هذا القسم السبب الداعي إلى النقد والباعث إلى موضع القدح، والسبب في ذلك دعوة الحداد إلى تجاوز الأحكام المتعلقة بالمرأة بحكم منطق التدرج في القرآن الكريم والأخذ بالقيم كالعدل والقسطاس المستقيم. أما القسم الاجتماعي فلا ينازع فيه إلا جاحد للواقع التاريخي نظرًا إلى ما فيه من معطيات موضوعية هي بمثابة المادة الخام الأنثروبولوجية عن أوضاع المرأة في تونس في بدايات القرن العشرين. وهذا ما أفصحت عنه استجوابات الحداد لعلماء عصره ولم تحل إلى ما يفيد الرفض منهم.

على أن إثراء ما كتبه الحداد في هذا السياق الاجتماعي بما طرأ على المجتمع التونسي من جديد، يمكّن من فهم الوضع التاريخي الذي كان متهيئًا لمثل تلك الآراء وكان ينتظر بروز مواقف جريئة تعلن ما كان متكتمًا في الواقع. فلقد نهض الواقع التاريخي في العشرينيات على تأكد خروج المجتمع التونسي من بنى العالم التقليدي إلى بني العالم الجديد وهو عالم حداثي، إذ الحداثة قد دخلت الحياة الاجتماعية العربية الإسلامية عنوةً بعد أن ولدت صدمة ولم يع أبعادها الحقيقية والحتمية إلا نفر قليل من المفكرين. لذلك أشار الحداد في كتابه «العمال التونسيون وظهور الحركة النقابية» بعد أن وصف الحالة

(١) انظر ما ينقله أحمد توفيق المدني: حياة كفاح، الجزء الأول ص ١٤٥.
(٢) أبوالقاسم محمد كرو، المصدر المذكور، ص ٢١ (الإنسانيات).
(٣) نفسه ٦٥.
(٤) أبوالقاسم محمد كرو، الطاهر الحداد ضمن كتاب البعث، ص ٨٨ - ٨٩.
(٥) محمد عبده، تفسير، المنار، ج٤ ص ٣٥٦ - ٣٧٠.
(٦) أبوالقاسم محمد كرو، الطاهر الحداد، ص ١٩.

الاجتماعية في تونس وحللّها إلى أن البلاد بحاجة إلى «المفكرين» وهم الأمناء على تأمل الوضع وعلى استحداث السبل المؤدية إلى إدراك خطورة الرسوب في النّسق التقليدي.

لقد فهم الحداد أن بنية المجتمع التونسي قد خضعت لمفارقة فظيعة؛ جانبها الأول يرتبط بالتنائي المشط بين المدينة والبادية، وقد عرفت تقسيمات بوأت المدينة – الحاضرة – منزلة ذات بال ودحرت البوادي في بؤس مادي وآخر ذهني. والجانب الثاني هو التحوّل الذي رسم بنية هذا المجتمع ولم يكن ناجمًا عن تطور داخلي محض نظرًا إلى قوة المحافظين والسطوة الراجعة إلى التمكن من مصالحهم بقدر ما تولّدت عن العلاقة المفروضة التي أدخل بها الاستعمار البلاد التونسية في دورة المركز والمحيط، فتعرض المجتمع التونسي إلى نقلة سطحية – في ذلك الحين – أدرجت جانبًا من القوة العاملة في خدمة الاقتصاد الفرنسي، ونذكر هنا عمّال المناجم بصفة خاصة. وإن كان الإدراج لا يعني الانخراط في العقلية الاستعمارية فإنّه أرغم هذا الطائفة على الخدمة، كما دعا طوائف أخرى إلى الانزياح عن الإنتاج التقليدي إلى التعامل مع المعطى الاقتصادي المركزي.

٣ - قراءة أبي القاسم محمد كرو للطاهر الحداد:

من القراءات التي رسمت خطّاً متميزًا لفكر الحداد كتابات أبي القاسم محمد كرو. وقد أردنا أن نمحّصَ ما فيها قانعين في هذا العمل بما يمتد إلى موضوع البحث وهو الحداد والمرأة.

أ – المرأة في الإسلام:

قدّم أبوالقاسم محمد كرو خلال شهر رمضان لسنة ١٣٧٦هـ/١٩٥٧م سلسة من الأحاديث بثتها الإذاعة الوطنية بتونس، ومن الأحاديث ما تعرض لمسألة المرأة، وقد رأيناه مدخلاً مناسبًا لاستكشاف الصورة التي رسمها الحداد عن المرأة في ظرف دقيق كانت فيه تونس قد كسبت السيادة بالحصول على الاستقلال، وقد علت الأصوات بالريادة

(١) نفسه ص ٥٢ – ٥٨.

المطلقة للرئيس الحبيب بورقيبة.

يحتوي كتاب «حديث رمضان»[1] موقفًا من الإسلام لم يكن في ذلك التاريخ مما يستساغ الخوض فيه لدى علماء الزيتونة بصفة خاصة. وأن التمييز هنا بين طائفة من علماء الجامع الأعظم من المحافظين لأصحاب المصالح من النظام القائم من جهة وعدد من العلماء من ذوي الجرأة والدعوة إلى الإصلاح من جهة ثانية، والطلبة الذين كانوا ينهلون المعرفة فيه وهم ينشدون التجديد والتطوير من جهة ثالثة ضروري حتى لا يظن أنّ كل ما في الزيتونة وكل من فيها كان يحمل الرؤية التقليدية أو كان قابلاً لمهادنة الأوضاع سواء مع الاستعمار أو مع الباي الحاكم الصوري[1].

جماع الموقف الذي صدع به كرو من الإسلام أن النص القرآني وسنة النبي يمثلان منبعًا يلائم حياة الإنسان وليس فيهما ما يصد عن طلب الدنيا فضلاً عن رجاء الآخرة. فالنص يدعو إلى ما فيه بقاء الإنسان وإلى ما فيه خيره فهو دين إنساني بلا جدال[2] إلا أن تاريخ المسلمين كان زاخرًا بالازورار عن النص كما أسرع نحو تحنيط القراءة وأضحى الفكر الإسلامي تقليدًا أعرض عما تستوجبه الحياة من تجديد بل من تغيير[3].

وللمرأة في الإسلام عند أبي القاسم محمد كرو منزلة رفيعة لا بالقياس إلى ما دعا إليه الرسول (ﷺ) فحسب [4] بل على مبدأ المساواة الذي جعله الإسلام عقدًا ينتظم حبّات العلاقات الاجتماعية. ووجد كرو عند أحمد زكي أبي شادي مثالاً معبرًا عن منزلة المرأة في الإسلام: يقول أبوشادي: لم يأت الإسلام بالنقاب والحجاب وإنماء بالاحتشام ولم يحرّم الإسلام على المرأة الزعامة ولا الامتلاك ولا الاستقلال الاقتصادي ولا أي مظهر آخر من مظاهر شخصيتها الإنسانية الحرة التي وجدت أحيانًا قبل الإسلام كما تعرف في شخصية الملكة زنوبيا وفي شخصيات أخرى اشتغلت بالشؤون العامة كالقضاء والسياسة والإدارة وما إليها، بل أكدها الإسلام وزاد عليها كمحاربته تعدد الزوجات والرق[5].

«إذا جاء ناعق في آخر الزمان يزعم أن اشتغال المرأة بالسياسة غير جائز شرعًا

(١) نفسه ص ٣٧ - ٤٢.

فإنه يتجنى بهذا الزعم أيما تجنٍّ على الإسلام ويهين عقول الناس بحسبانهم من أهل العصور المظلمة[٦].

لقد وضع أبوالقاسم محمد كرو المسألة في إطار تاريخيتها بمعنى أن للمرأة في النص الديني الأصيل حظّاً محموداً وأن لها في الواقع التاريخي حظّاً مغايرًا سيئًا. وهو ما ولّد طريقتين في التعامل. طريقة تأولت النّص بالأعراف الجارية وبالعادات والتقاليد؛ فجعلت السائد قيمًا عند فهم آيات القرآن. وطريقة التمست في النص تحطيمًا للقيود الاجتماعية واعتبرت الآيات مطيّة لتمثل دور المرأة اقتضاء للحقوق الإنسانية التي لا يختلف فيها الرجال عن النساء. وإن تبني رأي أبي شادي لهو إقرار بكثافة ما علق بالمرأة في التاريخ العربي الإسلامي من مظالم كانت في أحيان كثيرة تلتمس مبررات لها من القرآن ومن السنة تأويلاً منحرفًا أو اصطناعاً وافتراء.

السؤال المطروح هنا هو لماذا اختار كرو أبا شادي دليلاً له على ما في الإسلام من دعوة إلى تحرير المرأة؟

لا شك في معرفة أبي القاسم بمواقف محمد عبده ومواقف قاسم أمين وطائفة من الذين ناصروا قضية المرأة. فكان التعبير عن الوعي الوليد بذاتها بلسان الرجال بدءًا بالطهطاوي ووصولاً إلى الطاهر الحداد. ونجد المبرر في هذا الاختيار في أن للأدباء آراء لا تخضع للمنطق الفقهي السائد؛ فهم أقدر أهل الفكر على استبصار ما يعتبر عاديّاً ومألوفًا فينقدونه ولا يرون فيه ما يوجب التمسك به، إذ لهم الجرأة على الفهم وعلى التجاوز في آن. على هذا النحو جاء كلام أبي شادي ينسف في الإسلام، ما علق به من تُهمٍ تمسَّك بها الأوروبيون في نهاية القرن الماضي وبداية القرن الحالي للطعن في الإسلام مما دفع رجال الاصلاح من أهل العلم الشرعي إلى الردّ والدفاع دونما جدوى[١]. تبنى كرو قراءة أبي شادي فخرج من الرؤية الفقهية إلى الرؤية الأدبية ونكّب بينهما عن الرؤية الاجتماعية.

تنهض الرؤية الفقهية على إخضاع الواقع للنصّ وعلى تمثل النّص تمثلاً تقليديّاً.

والتقليد في الاصطلاح إنما هو نقل لأقوال «الرجال» دون طلب للحجة وهي راجعة إلى القلب أو للدليل وهو متعلق العقل. وهذا يعني الإغضاء عن القياس بين قول العالم المتبع المقلد والنص القرآني أو الحديث الصحيح. فهذه الرؤية – وهي تختلف عندنا عن مادة الفقه – هي التي امتلكت ناصية التصورات الفقهية فألزمت أصحابها بالحواشي والمتون، وحبست النظر في الاجتهاد ضمن المذهب في الحالات الناصعة وفي الفتاوي المعبرة غالبًا عن سذاجة الفكر الديني وعن هروبه عن الواقع الجديد إلى النصوص الجاهزة وهي نصوص المتأخرين، فمثل ابن عابدين عند الأحناف في تونس سلطة جوهرية وبقي خليل على شرح الزرقاني سلطة عند المالكية وهي العقلية التي تجسمت في كتاب «الحداد على امرأة الحداد» للشيخ محمد الصالح بن مراد.

وتقوم الرؤية الأدبية – وهي ما وجدناه عند أبي شادي – على نقض السنن السائد وعلى التقاط التقاطع بين النصّ الديني والواقع المتجدّد.

ركّز أبوشادي على روح النص القرآني في ضوء ما ترمي إليه من مقاصد فليس الحكم منفصلاً عن مناطه، لذلك يجدر التمييز بين النقاب والحجاب وهما في نظره ليسا من الإسلام، بل هما من فرض الواقع والأعراف، والاحتشام هو المقصد الأسنى للمرأة كما جاء بها الإسلام. فوجب نزع آثار التقليد المجحفة على المرأة حتى تتحرر باسم الإسلام الحق.

إن في اختيار أبي القاسم محمد كرو موقف أبي شادي ضربًا للرؤية الفقهية بالرؤية الأدبية، الأولى حنَّطت صورة المرأة والثانية عتقتها.

وتبقى الرؤية الاجتماعية الغاية الجوهرية في نظر كرو وهي ما وقف عليه عند الطاهر الحداد.

ب – الحداد والمرأة:

قرر كرو بلغة لا تخلو من الإعجاب ومن الإشادة أنّ «أعظم أثر وأروع تراث تركه

(١) نفسه ص ٤٣ – ٥٨.

الحداد هو كتاب «امرأتنا في الشريعة والمجتمع» الذي دافع فيه عن المرأة دفاعًا مجيدًا حارّاً، وأنذر جيله بحقائق صارخة نعيش نحن اليوم في غمرتها»[1].

ويبدو الدافع إلى هذا الإعجاب ما تأجج في صدر كرو من حنق على منتقدي الحداد الذين تخطوا في معاملتهم له أصول الإسلام وآدابه. وينعكس هذا الحنق في جملة من المقابلات حشد فيها التضارب المشط بين فكر الحداد وفكر منتقديه.

الحـــــداد	خصومه
شهيد الحق والخير	هم أعداء الحرية وأعداء الشعب وأعداء التقدم
الرشد	الغيّ
المستقبل	الماضي
التاريخ المتوثب النشيط	التاريخ الآسن المتعفن

استعمل الأستاذ كرو معجمًا مزدوجًا، جانب فيه يمت إلى الدين وقيمه بصلة من قبيل «شهيد» و«الحق» و«الخير» و«الرشد» و«الغي»، وجانب ثان فيه اقترن بالتقدم والترقي من قبيل «الحرية» و«الشعب» والتاريخ المتوثب» و«التاريخ الآسن» ولم يجر هذا المعجم على السياق المعهود له فقد قلبه قلبًا ليتحول سجل الكلام إلى موقف في حدّ ذاته، فاستبدل الشعارات التي رفعها خصوم الحداد إلى مدلولات ترفع من شأنه: فقد أخرجوا الحداد عن دائرة العقيدة وأوّلوا كلامه على المروق عن الدين فجعل كرو الحداد شهيد الحق والخير ليخرج الصلة بينه وبين خصومه من المنطق الملازم للرؤية الفقهية إلى المنطق المنبثق من «التمدن» و«التقدم»، وبهذا المنطق الثاني نسف ظلم الخصوم واشتق من كونهم الفكري سجلاً بوّأ الحداد منزلة الشهادة. والأمر ذاته استخدمه ليطعن في نوايا الخصوم وفي أفعالهم وقد استمده من الأرضية الفكرية التي انتمى إليها الحداد كما أسس الموقف على الحرية المنشودة وربطها بإرادة الشعب إيمانًا بدوره في النهوض، وعلى التقدم وهي غاية الإصلاح وركيزته. والفاصل بين الحداد وخصومه هو فاصل بين مفهومين للزمان وللتاريخ، يعيش الخصوم على أطلال الماضي ويستشرف الحداد المستقبل، وقد تعفن مع الخصوم التاريخ وتوثب مع الحداد ونشط. ألم ينقلب الحكم على الحداد من خصومه عند

كرو إلى صورة جعلها مطية لتوحي بشدة التقابل وحدة التنافر، فأضحت الصورة بالمعجم، وسجل الكلام مطية للانتقام من الحداد على خصومه.

يتراءى موقف الحداد الاجتماعي من خلال هذه المقابلة المتجذرة في المعطى الزماني إذ كان للفرق عند التعامل بين من يشيد الفكر على أساس التفقه في اللحظة التاريخية ومن يكدس التجريح والسباب خوفًا من التجديد وخشية على المكتسب المادي والذهني من التلاشي.

لموقف الحداد الاجتماعي – في نظر كرو – مرتكزات ثلاثة متعاضدة. المرتكز الأوّل هو الحرية. وهو مفهوم في – هذا السياق – في المطالب التي كان التونسيون يرفعون لواءها على لسان السياسيين والمفكرين والأدباء في آن، وقيمته في هذا السياق أنه يجمع بين تصورين لم يكونا واضحين وضوحًا تامًا في تلك الفترة – في العشرينيات –.

كان التصور الأول غالبًا وهو مااستعجله رجال السياسة من مطالبة بـ «حرية» تهيئ للتونسين نصيبًا في إدارة شؤونهم وهذا ما نفهمه من خلال كتاب «تونس الشهيدة» الذي أشرف عليه الشيخ عبدالعزيز الثعالبي، ومن خلال نقاط التفاوض التي رفعتها الوفود إلى باريس وهي لا تلغي سيادة فرنسا مطلقًا بقدر ما تنشد اعتبارًا للتونسيين يوفر لهم حظّاً في السياسة. وجمّاع هذا التصور الأول أنه اعتنى بالمعطى السياسي وجعله غاية المطالبة.

ونجد للتصور الثاني صدًى كبيرًا عند الحداد في كتابيه «العمال التونسيون وتاريخ الحركة النقابية» و«امرأتنا في الشريعة والمجتمع» وفي شعره وهو التفطن إلى العلاقة العضوية بين الحرية السياسية – مطالب رجال السياسة – والحرية الاجتماعية، وهي المعركة التي خاضها الحداد في فكره وفي حياته، فلا اكتمال للتحرر من المستعمر ما لم يكن المجتمع مستنداً إلى بنية ناضجة على مستوى الحياة الاجتماعية، وإن لم تتحرر المرأة فسيبقى نصفه مشلولاً مدحورًا.

المرتكز الثاني هو الشعب وهو ما عكس إيمان الحداد بأنّ للشعب دورًا في بناء المجتمع المتكامل وفي المطالبة بالحرية السياسة. وليس أدل على الإيمان بالشعب من انخراط الحداد بصفة حماسية في العمل النقابي[1]. ومن السخط الذي أعلنه الشعب يوم

كان المستعمر يغري بالتجنيس.

المرتكز الثالث هو التقدم وهو ما أدّى إلى الخصام العنيف بين الحداد والرجعية. ولنا في هذا الإطار أن نتأمل الفرق بين الحداد وخصومه في نسق التفكير.

ينهض النسق الفكري عند خصوم الحداد على قولةٍ تنسب إلى مالك وهي «لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها» ولا نريد أن نناقش هذه القولة – وهي بحاجة إلى المناقشة – بقدر ما نكتفي بالكشف عن المنظومة الفكرية التي اقتنعت أنه ليس بالإمكان أحسن مما كان. فلا يمكن تصوّر التقدم خارج منطق الثبات وهو الذي اعتبر أن الحقيقة جاهزة وأنّ غاية الإنسان في الوصول إليها لا الابتداء بها.

ويستقيم النسق الفكري عند الحداد – وإن هو خريج الزيتونة – على معنى الصيرورة والحركة. فالأشياء لا تكتمل ولا تتبلور إلا في ضوء التطوّر والتنامي وليست الحقيقة جاهزة بل تكتسب فليس ما يورث من السلف هو الحقيقة بل هو تمثّل لها في ظروف تاريخية معينة، وهو لا يعوق بحال عن إنتاج المعرفة وإخصابها. ولا يتم الإخصاب دون معرفة بحقائق اللحظة التاريخية ودون الانتباه إلى الأثر الذي تحدثه البنية الاجتماعية.

هذه المرتكزات مبثوثة في كتاب أبي القاسم محمد كرو عن الحداد، وقد آثرنا أن نلمّ شعثًا لها لندرك أنّ الباحث توخى طريقة مغايرة لخصوم الحداد. فلم يشغله ما شغلهم من قضايا التشريع بل أضفى على فكر الحداد صفة شمولية راعت الجهد الفردي.

على أن كرو لم يهمل إهمالاً تامًا القسم التشريعي، لقد أثار مسألة تعدد الزوجات وألح على مطالبة الحداد بوضع قانون يمنع التعدد في هذه المسألة وأن يجعل الطلاق بيد المحكمة. إلا أنه سكت عما وراء هذه الدعوة من خوض في مسألة الاجتهاد وقد يحسب المستعجل أن ما صدع به الحداد في منع تعدد الزوجات بدعة لم يعرف لها نظير في الفكر الإسلامي الحديث، وإن متعقب هذه المسألة يلمس لها أثرًا بعيدًا في ما نقل رشيد رضا عن الشيخ الإمام محمد عبده في تفسير المنار وقد قام رأي عبده على منع تعددّ الزوجات.

كما أثار كرو في الجانب الاجتماعي من كتاب (امرأتنا في الشريعة والمجتمع) مسألتين هما الزواج بالإكراه والزواج بالأجنبيات.

أما الزواج بالإكراه فهو مرتبط بالقضايا المركزية في كتاب الحداد وهي الحجاب والسفور وحياة المرأة في المنزل وتعليم المرأة وتزينها فهو لم ينظر إلى المرأة من زاوية واحدة بل قلّب البصر في كل الجزئيات التي تحف بها لتجعل منها كائنًا فاعلاً في المجتمع.

ويتبع التفطن إلى مفاسد الزواج كما كان قائمًا في تونس، الزواج بالأجنبيات لما له من صلة في نظر كرو بالتجنيس. فالحداد أنكر هذا النوع من الزواج في ذلك الوقت لأنه تمثل الغاية التي تربطه بالتجنيس وقد خاض فيها خوضًا قدّر الخطر الذي أعلنه القانون الصادر يوم ٢٠ ديسمبر ١٩٢٣، ولم يخب عزم الفرنسيين على التجنيس إلى سنة ١٩٣٣، ولعل اشتعال نار الغضب عند التونسيين في هذه المسألة – ضمن المسائل الأخرى الملتهبة – ما هيّأ البلاد لاحتضان الحزب الدستوري الجديد سنة ١٩٣٤ لأنه رفع لواء المقاومة الفعلية وهو ما قد سبق أن تنبأ به الحداد «إن سياسة الاحتلال المادية والمجردة من استعمال العقل.. لئن كانت تسلب المادة منا وتحاول فصلنا حتى عن خصائصنا الأدبية والتاريخية.. فإنها أيقظت بقدر ذلك عواطفنا وشعورنا القوي يقظة ستظهر الأيام قيمتها ولو بعد حين».

تقف دراسة أبي القاسم محمد كرو عن الحداد في موضوع (امرأة في هذا المدّ) وهو عمل يحمل صورة دفاعية تؤكد الوشائج العاطفية التي تربط بين أبي القاسم محمد كرو والطاهر الحداد دفاعًا يستند إلى التأثير الذي رآه كرو في صلب عمل الحداد في الواقع التونسي.

(*) أديب وناقد تونسي وأستاذ التعليم العالي بكلية الآداب بمنوبة من مواليد بسكّرة (سليانة) عام ١٩٥٤م. له العديد من المؤلفات. فاز بجائزة النقد عام ٢٠٠٠ من مؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري. مدير إدارة المعلمين العليا ومستشار وزير التعليم العالي والبحث العلمي بتونس.

وإن كانت الدراسة لا تخلو من الإعجاب بالحداد فإنها – ولأنها رائدة – تدعو بإلحاح إلى إعادة النظر في أعمال هذا المصلح الاجتماعي وتؤكد التوازي بين البحث في آثار الحداد ودراسات قرائه دراسة تكشف عن الاتجاهات المختلفة في تناول فكر هذا الرجل، فلقد بعث كتاب «امرأتنا في الشريعة والمجتمع» حياة أخرجت الفكر من الجمود إلى الجدال والسِّجال والمعارك، وما زالت أصداء هذه المعارك تتأجج في قراءات الحداد.

****

ذكرى الفتى عمره الثاني

أ. د. مبروك المناعي(*)

لا أكاد أعرف رجلاً لقي من التكريم ما لقي أبوالقاسم محمد كرّو، ولا أكاد أعرف رجلاً لا يزال يستأهل التكريم كأبي القاسم محمد كرّو؛ هذه إحدى حقائق «الكرم»... إنه ذخر وادخار تنمو فيه فوائض الأرصدة وتزكو على قدر حجم الودائع ويثمر من الغلات على قدر الصبر على إفادتها للغير وإنتاجها للخير.

من يـــفـــعل الخـــيـــر لايـــعـــدم جـــوازيه
لا يـــذهب الخـــيـــر بـــين الـــله والـــنـــاس

إن التكريم: أن يُذكَر للكريم كرمه، وعلى قدر الكرم يكون الذكر.. والذكر مهما كثر وجاد، لا يعدل الفعل ولايقوم به، وما أكثر ما أقرَّ الشعراء – وهم أقدر الناس على الذكر – بضعف الوسيلة وقلة الحيلة في الاعتراف بفضل الكرماء، هذه حقيقة أخرى من حقائق الكرم.. والكرم ليس الجود فحسب، وإنما هو أكثر منه بكثير، إنه مركب فضائل يشمل الجود أي العطاء والبذل بلا مقابل وبلا مَنٍّ، كما يشمل الحلم والمروءة والإيثار ومكارم الأخلاق جميعًا؛ هذه حقيقة أخرى من حقائق الكرم.

إن أبا القاسم أمّةٌ في شخص إنسان، ورجل «لايحصى ولا يعد».. هو أولاً أستاذ ومربٍّ بأتمّ ما في الكلمتين من دلالات، له تلاميذ في تونس وفي ليبيا وفي العراق.. وهو مناضل وطني له تاريخ وإسهام في حركات التحرير بتونس والمغرب العربي والوطن العربي.. وهو مثقف ملتزم مكافح منافح عن أمهات القضايا القطرية والإقليمية والقومية.

أعطى من قدراته وخبراته ونشاطاته في مجال العمل الثقافي لمدينة قفصة – مسقط رأسه – حقّها، وأعطى لتونس – بلده ووطنه – حقّها وأعطى المغرب العربي حقّه، وأعطى للوطن الكبير حقَّه.. يكفي أن يستحضر الإنسان مسيرة حياته، ويلقي نظرة على مؤلفاته حتى يدرك اهتماماته، ويقدر إسهاماته ويعرف كيف استطاع هذا الرجل – أو قدِّر له

تقديرًا حكيمًا – أن يكون – حيثما تقلب وفي كل ما أنجز وكل ما كتب وألف – تونسيّاً كما يجب ومغربيًا كما يجب وعربيّاً كما يجب.. وكيف اتسعت نفسه وعقله لكل هذا معًا وتآلفت فيه هذه المكونات وتكاملت غاية التكامل، فعاش تونسيّاً في المغرب وفي المشرق ومغربيّاً في تونس وفي المشرق، ومشرقيّاً في تونس وفي المغرب، وعربيّاً في كل مكان.. حتى في داره وسريره.. عربي جنانه، عربي لسانه، عربية أعياده.

وهو كاتب مبدع ومؤلف ثبت وباحث منقب وناقد حصيف ومفكِّر مجتهد، غزير العطاء كثير الإنتاج، متنوع الاهتمامات أسهم بنجاعة وفاعلية في عديد الجمعيات الثقافية والهيئات العلمية والندوات والملتقيات والمؤتمرات الثقافية.. وهو موظف في مجال الثقافة نهض بمسؤوليات عديدة وأسندت إليه مهام ووظائف سامية مرموقة من بينها إدارة الآداب بوزارة الثقافة بتونس، والإدارة العامة للدار العربية للكتاب (التونسية الليبية) وعضوية مجلس الأمناء لمؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري (الكويتية العربية).

وهو مع كل هذا وقبله وبعده – إنسان كريم، نزه صدوق نَيِّر متزن أصيل متفتح صريح عذب كالماء الصافي حلو كالعسل الماذيّ.. لم يشغل مساحة واسعة من الساحة الثقافية التونسية والعربية فحسب، وإنما شغل أيضًا مساحة واسعة من عواطف كل الذين عرفوه وعاشروه وخالطوه... ولذلك حظي – ولا يزال – بما يجب أن يحظى به الرجال الأفذاذ الذين لا يتكررون – ولا مبالغة – في العصور كثيرًا.

ولقد كان حظِّي أنا من نفعه ومعروفه ومودته وصداقته كبيرًا.. هو أوّل من فتح عينيَّ على أبي القاسم الشابي – ولا أظن أنني في ذلك وحدي – وأدخله على قلبي وعقلي، وهو أوّل من فتح لي داره ومكتبته الخاصة – قبل أن يتبرع بها بتمامها وكمالها للكلية التي أعمل بها أستاذًا وباحثًا، كلية الآداب والفنون والإنسانيات – تونس منوبة، وهو أوّل من فتح لي أبواب المشرق العربي، وأذاع به اسمي وعرَّف برسمي وربط لي فيه أوثق العُرا وأمتن الصلات برجال يعاش بهم ويعاش في أكنافهم.

(*) مدير مكتب مؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري في تونس.

ولهذا الذي ذكرت منه أطرافًا فإني أعدُّ إسهامي هذا المتواضع البسيط، بكلمتي هذه الوجيزة المقتصدة، أقل ما يقتضيني إيّاه واجب الإسهام في التكريم الخاص الذي تقيمه مؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، مشكورة، لهذا الرجل الذي يستحق كل تكريم... وإنه لا يقر الفضل إلا ذوو الفضل، ولا يجازي بالإحسان إلا ذوو الإحسان.

****

سنوات صحبة الأستاذ

أ. محمد المَيْ(*)

لا أعلم هل أحدّد سنوات صحبتي للأستاذ الكبير (أبو القاسم محمد كرّو) بالسنوات التي تقيس عمر البشر أم أحدّدها بحجم الفوائد والمكتسبات التي حصّلتها طيلة اقترابي منه؟

تعرّفت إلى الأستاذ الكبير أبو القاسم محمد كرّو إثر نصيحة وجّهها إليّ الصديق الدكتور محمد لطفي اليوسفي وتحديدًا عندما اكتشفت مخطوطات لم تنشر للمصلح الاجتماعي الطاهر الحدّاد (١٨٩٩ – ١٩٣٥).

لا أزال أذكر أن تلك المخطوطات كانت بالنسبة إليَّ بمثابة الطلاسم من حيث الشكل والمضمون، خصوصًا وأن سنّي لم يتجاوز بعد ربع القرن! ولا الدروس التي تلقّيتها في المعاهد الثانوية أو على مقاعد كلية الآداب بـ(منوبة) كانت كفيلة بإعانتي على فك مغالق تلك الطلاسم.. وكانت لي صلة مودّة وصداقة بالدكتور محمد لطفي اليوسفي، فهو أستاذي في كلية الآداب بـ(منوبة) وهو مثلي الأعلى وهو أفضل أساتذة كلية الآداب الذي كان يردّد على مسامعنا – نحن الطلبة. «أن الأستاذ الحق هو الذي يبدأ في التفكير مع الطلبة وأن الجامعة ليس مكانًا لتلقي العلوم والمعارف بقدر ما هي فرصة لشحذ الشخصية وبناء العقل واكتشاف مغامرة الوجود..».

عندما عرضت عليه مخطوطات الحدّاد قال لي يومها: «ليس أمامك سوى الشيخ أبو القاسم كرو فهو الأقدر في تونس على مساعدتك» رنّ اسم: «أبو القاسم كرو» في أذني وكأني أسمع هذا الاسم لأول مرة في حياتي. فقلت له بعفوية: هل هو تونسي؟ قهقه الأستاذ وقال: «بل هو قفصي ابن قفصي ولولاه لما عرفنا الشابّي».

«وإن كان حظّك جيّدًا فإنه سيعينك إعانة لا مثيل لها ولكني علمت مؤخرًا بأنه أصيب بشلل جزئي وسأعوده مع زوجتي وسأحدثه عن أمرك وأمر مخطوطاتك! فاسأل الله أن يكون بخير فقط!».

وبعد أيام اتصل بي الأستاذ اليوسفي وقال لي: «إن الشيخ – ودائمًا يحلو له أن ينعت الأستاذ كرو بالشيخ – قد اطلع على ما نشرت في جريدة الصحافة وله بعض ما يفيدك به في الموضوع ويبدو أنه قبل مساعدتك».

بعد ذلك علمت أن الأستاذ كرو بدأ يتعافى من مرضه ورجع إلى مجلسه الأدبي الذي يعقده صبيحة يوم الأحد بمقهى نُزل إفريقيا بتونس العاصمة فذهبت إليه دون موعد سابق معه وهناك وجدته رجلاً بدينًا، أصلع الرأس إلا بعض الشيب المنساب على الأطراف، تعلو محياه ابتسامة عريضة غطّت تجاعيد الوجه الذي عركته سنوات الكفاح والنضال..

صافحته وقدّمت له نفسي.. فرحّب بي ترحيبًا شديدًا ودعا نادل المقهى ليعجّل لي بشرب ما أشاء! وانبرى يحدّثني عن حبه للطاهر الحداد ويروي لي تفاصيل كنت أجهلها وعلق عن أخطاء ارتكبتها عند ما نشرت بعض مخطوطات الحداد في جريدة الصحافة!

لم أكن أصغي بعناية إلى ما كان يقول بقدر ما كنت منبهرًا بطريقته في الحديث وتركيزه على التفاصيل وقدرته على المرور من موضوع إلى آخر!

يومها كان معنا الصديق الأستاذ سمير بن علي الذي كان يشتغل سكرتيرًا للأستاذ كرو وكانت معه سيارته الخاصة، فطلب من الأستاذ أن يوصله إلى منزله الكائن بباب سعدون بالعاصمة تونس، فوافق الأستاذ.

وعندما أوصلناه إلى منزله، دعانا للدخول معه وكانت في استقبالنا زوجته السيدة الفاضلة مديحة مشرفيّة التي رحبت بنا وفور جلوسنا خيرتنا بين شرب القهوة أو الشاي أو العصير فاكتشفت أنها ليست تونسية من لهجتها الغريبة وعرفت فيما بعد من صديقي سمير بن علي أنها «لبنانية».

في تلك الجلسة أهداني الأستاذ بعض كتبه وكان من بينها كتابه الصغير الصادر في سلسلة كتاب البعث: «الطاهر الحداد» كانت تلك الجلسة بداية العلاقة بيننا.

أصبحت بعدها دائم التردد على الأستاذ كرو وكنت في كل جلسة أظفر منه بكتاب أو قصاصة جريدة أو مجلة أو صورة تنير سبل بحثي وترشدني إلى مسائل كنت أجهل

الناس بها..! مرّت أشهر قليلة على علاقتي بالأستاذ وبدأ يقربني منه ثم عرض عليّ مساعدته لإخراج كتابه الحدث «حصاد العمر» حيث كان يسرع في إخراجه ويريده أن يرى النور في أقل ما يمكن من الأشهر ورغم اعتراضي على العنوان؛ لأن هذا الكتاب ذي المجلدات الستة لن يضمِّن فيه الأستاذ كرو مؤلفاته بل سيكون موسوعة لمقالاته وأحاديثه الصحفية والإذاعية.. إلا أنني استفدت من إعانة الأستاذ استفادة كبرى.. فقد تعرفت إلى مواضيع وإلى أحداث مرَّت به، وطالعت أثناء تبييض الأوراق القديمة أو تفريغ أشرطة التساجيل الإذاعية، طرق ردوده وكيفية تجاوزه المحن التي ابتلي بها في مراحل نضاله الثقافي.. فمرّت أمامي المعركة التي اتهم فيها بميله إلى الشرق وكرهه للثقافة التونسية؟ ومرّت أمامي معاركه ضد الجمود والتخلف.. وعرفت من خلال تلك المعارك البعض من آرائه ومن علاقاته ومدى حضوره العربي وإشعاعه خارج الحدود ودفاعه عن العروبة والثقافة العربية.. فكان «حصاد العمر» سجلاً اجتمع لي فيه ما كان يصعب على من هو في مثل سني إدراكه بيُسر.

مكتبته في كلية الآداب:

في نفس السنة التي صدر فيها حصاد العمر (١٩٩٨) قرّر الأستاذ إهداء مكتبته إلى كلية الآداب بمنوبة ورغم أني كنت أحد طلبة تلك الكلية إلا أنني اعترضت – ولا أزال معترضًا – اعتراضًا شديدًا على إهدائه مكتبته إليها.

وسبب اعتراضي هو تقديري الشخصي للعقد النفسية التي يعاني منها أساتذتي في الجامعة التونسية... فهم مقلّون في النشر ونتيجة قلّة إنتاجهم يكرهون أمثال الأستاذ كرو وهو صاحب الكتب التي يفوق عددها الثمانين، وهم يكرهون شهائد الشرق ولا يعترفون بها، وهو صاحب الشهائد المشرقية. وهذا سبب آخر، وهم يكرهون خريجي الجامعة الزيتونية وهو صاحب التكوين الزيتوني وهذا سبب ثالث وأسباب رابعة وخامسة.. إلخ.

ومكتبته تفيض بالمؤلفات النادرة والنفيسة وبكتب جمّعها من مختلف البلاد العربية ففيها ما لا يتوافر حتى في دار الكتب الوطنية فضلاً عن المكتبات الخاصة.. وكنت على يقين أنها ستكون عرضة للنهب والسرقة – وفعلاً تحقق ما خفتُ منه –.

ووُعِدَ الأستاذُ يوم سلّم مكتبته بأن تطبع الكلية فهرسًا خاصّاً بها ولم يطبع ذلك الفهرس إلى يوم الناس هذا؟؟

وأقيمت له حفلة تكريمية يوم تسليم المكتبة حضرها وزير التعليم العالي وثلة من كبار الجامعيين والأدباء، وعوض أن يتم منحه «الدكتوراه الفخرية» يومها منحوه جائزة بسيطة تمنح عادة للمتفوقين من الطلبة في نهاية السنة الجامعية؟! بل الأكثر من ذلك فقد كانت تلك الحفلة مطية اتخذها عميد الكلية ليطلب فيها – بطريقة غير مباشرةٍ من وزير التعليم العالي – ترقية مهنية؟!

كنت شاهدًا على ذلك الحفل المشؤوم كما كنت شاهدًا على تسليم الكتب لأعوان مكتبة الكلية الذين كانوا يعاملون الكتب كما تعامل البضائع العادية فيلقون بالكتاب النفيس الذي اهترأت أوراقه أرضًا دون شفقة أو احترام لمحتوى الكتاب أو سنّه الذي يفوق المائة عام؟!

وكان الأستاذ يصرخ ويزمجر ويغضب ثم يعود إلى هدوئه مسلِّمًا أمره وأمر كتبه إلى عَمَلَةٍ جهلة وموظفين همهم التقيد بالوقت الإداري لاغير؟!

وما هي إلا سنوات على إهدائه مكتبته إلى كلية الآداب بمنوبة حتى بدأت تظهر سرقات أساتذتنا الجامعيين في كتبهم دون الإشارة حتى في الهامش إلى أن تلك المراجع أخذت من مكتبته؟.

عطاؤه لم ينقطع:

بعد تسليمه مكتبته انتدبني الأستاذ لأكون سكرتيره الخاص وسلم لي مفاتيح مكتبه الكائن بنهج «شارل ديغول» بتونس العاصمة وهو المكتب الذي خرجت منه سلسلة كتاب البعث (١٩٥٥ – ١٩٥٨) وبواكير منشورات دار المغرب العربي... وكان فيه كمٌّ كبير من مكتبته وبقايا من جرائد ومجلات قديمة وملفات لأعلام ومعالم تضم قصاصات وصورًا وحكايات غريبة وعجيبة.

ورغم قدم المكتب فإن سلطانه على النفس لكبير وحمله على من هو في مثل سني لثقيل ومسؤوليته لجسيمه..! أدخل على دماغي فوضى وعلى نفسي ارتباكًا وأحسست

أني قد تحملت في سن مبكرة مسؤولية أكبر مني. فأصبح اسمي لصيقًا باسم الأستاذ كرو وهناك من صادقني من أصدقائه وهناك من عاداني من أعدائه فصرت وريثه غير الشرعي.. فأحاسب على مواقفه وأسأل عن أحواله وأبلغ ما لا يقدر أن يبلغه إليه الصديق والعدو في الوقت نفسه.

ورغم ذلك واصل الأستاذ الكتابة والتأليف فأصدر كتبًا متعددة بعد «حصاد العمر» مثل «عبقرية الحداد» و«الشهيد الحبيب ثامر» و«البياتي» و«ابن منظور» و«نازلي فاضل» و«سليمان الحرائري» و«أبحاث ومقالات» و«أبعاد الأب جان فونتان» و«تراجم قصيرة» و«التيفاشي القفصي» و«شعراء قفصة».. وكل كتاب له ولي معه قصة وحكاية فضلاً عن عشرات المقالات التي كانت تصدر بانتظام في الملحق الثقافي لجريدة الحرية وفي الصحف الأخرى.

ورغم تقدمه في السن وأمراض الشيخوخة فإن إصراره على تسجيل المواقف في مناسبتها لم يتوقف وكان إذا سئل عن كيفية تمكنه من كل ذلك يبتسم ويقول «أنا المستطيع بغيري».

جائزة المغرب العربي:

عند ما أصدر الأستاذ كرو كتابه «طه حسين والمغرب العربي» الذي اعتبره «كتاب العمر» كتبت سلسلة من المقالات في الملحق الثقافي لجريدة الحرية، كان بينها مقال عنوانه «البعد المغاربي في كتابات الأستاذ كرو» طالبت فيه بأن تمنحه وزارة الثقافة الجائزة المغاربية، وكان وزير الثقافة في تلك السنة (٢٠٠٣) على خلاف مع الأستاذ كرو، ورغم ذلك أقنعه بعض أصدقائه بجدوى الاقتراح.. فكانت الجائزة تتويجًا لنضالات الرجل الذي خدم الثقافة المغاربية والعربية ولحقته من جراء تعصبه لها تهم شتى لاحقته طوال حياته المهنية والأدبية.

فكان الوسام الثقافي والجائزة من لدن سيادة الرئيس زين العابدين بن علي خير اعتراف وأفضل تقدير، ورغم ذلك فإن ناشرًا جاهلاً ودعيّاً يريد في نهاية عمره أن يصبح كاتبًا طالب في رسالة رسمية بأن تنزع الجائزة من الأستاذ كرو؟!

وهكذا ظلَّ الأستاذ يجابه العواصف ويحارب الجاحدين وأصحاب النفوس

الصغيرة، حتى وصل به اليأس إلى أن يعلن في الناس مقاله الأشهر «وداعًا أيها القلم»، ذلك المقال الذي حرك بعض النفوس الشريفة فطالبوه بإلغاء قراره والتراجع عما أعلن... طبعًا لم يكف الأستاذ عن كتابة الكتب بل عن الكتابة في الصحافة... وأصدر بعد ذلك الإعلان كتبًا أخرى كانت بمثابة الرد على الأغيار من جهوده.

وأهدى هدية أخرى إلى الأرشيف الوطني كانت محل تقدير واحترام من طرف السلطة الثقافية والسياسية ببلادنا.

وهكذا هي حياته جملة من المحن المتتالية وجملة من الانتصارات المتتالية حتى أني لا أرى حياته إلا كسفينة تهزها الأمواج العاتية وهو كالربان الذي يصارع حتى يتغلب على هيجانها فيعيدها إلى مسيرها الطبيعي.

نظرة في مؤلفاته:

يمكن اعتبار الأستاذ أبو القاسم محمد كرو من جيل الثلث الأول من القرن العشرين من حيث الانتماء الفكري، فهو من مواليد سنة ١٩٢٤ ولكن همّه الثقافي بقي منشدًا إلى تلك الفترة ربما حبه للشابي وعشرته لأدبه وإرثه وانطلاق شهرته من خلال اكتشافه له كان السبب الرئيسي في اهتمام الأستاذ بتلك المرحلة، فهو الذي كتب عن الحداد والمهيدي وزين العابدين السنوسي ومصطفى خريف ومحمد علي الحامي والحليوي والبشروش... وهو الذي تدفعه غيرة دائمة على أعلام تلك المرحلة ويشده اهتمام بالغ بكل من يهتم بتلك الفترة.

ورغم اهتمامه بابن منظور مؤلف لسان العرب وبالتيفاشي القفصي... وبشعراء قفصة في العصور القديمة، إلا أن هذا الجانب لا يؤكد – في اعتقادي – انتماء الرجل إلى فئة المحققين الذين لهم اهتمام بالتراث العربي القديم، فالأستاذ كرو – في رأيي – من المختصين بـ:

– تراجم الأعلام.

– والنقد الثقافي لا الأدبي.

ولكن ثقافته موسوعية، إذ يستطيع أن يفيض في الحديث كما لا يقدر غيره في

الإفاضة والتدقيق في مسائل شتى، وقد ضرب بأسهمٍ في ميادين مختلفة ولكن بقيت مساهماته فيها ضيقة.

فالناظر في مؤلفات الرجل التي سخَّر معظمها لتراجم الرجال مثل الخضر حسين وعبدالرزاق كرباكة وابن هانئ المغربي والشابي والطاهر الحداد وسليمان الحرائري والتيفاشي القفصي وابن منظور والأميرة نازلي فاضل وغير هؤلاء من الأعلام المنسيين أو المغمورين أو المجهولين يلاحظ أنها تميزت بميزات لم تتوافر لدى غيره وأول هذه الميزات هي الابتكار، إذ لم يُسبق في الذين اختار أن يترجم لهم غيره.

وثاني هذه الميزات أن فن الترجمة عنده لا يقتصر على ذكر تواريخ الميلاد والوفاة وتعداد الأعمال بل عادة ما يتخذ مواضيع تراجمه مادة للدفاع عن المترجم لهم، فيسعى إلى إنصاف مترجميه ودحض التهم التي لصقت بهم وإزالة ما علق بتاريخهم من شبهات، ومن هنا نفهم معنى النقد الثقافي عنده إذ هو بمثابة الذاكرة الحية والعين الباصرة التي تسعى إلى رد الاعتبار إلى الأعلام والمعالم، لأن الثقافة في تقديره تحصل بالتراكم لا بالقطيعة، وما على الأجيال الحاضرة إلا البحث عن النقاط النيرة في التاريخ الثقافي والسعي إلى الاهتداء بها في الراهن وفي المستقبل.

ومن هنا – أيضًا – نفهم سبب تنبيهه المؤسسات الثقافية والسياسية إلى ضرورة إقامة الاحتفالات والذكريات للأعلام كدعوته إلى الاحتفال بستينية الشابي وستينية وفاة ومائوية ميلاد الطاهر الحداد، والاحتفال بمرور ستمائة سنة على وفاة العلامة عبدالرحمن ابن خلدون... أو سرّ بعثه إلى ملتقيات ثقافية تحمل أسماء الأدباء والكتاب والمفكرين في مختلف جهات الجمهورية التونسية.

ومن هذا الجانب يمكن أن نطلق عليه صفة المناضل الثقافي الذي غامر وطالب وحقق نتائج ملموسة لا ينكرها سوى الجاحد.

طبعًا لم يجن من جراء نضاله المتواصل الورود بقدر ما جنى الغيرة والحسد وتثبيط العزائم.. غير أن وطنيته العالية هي التي جعلته يستمر ويواصل – بذكاء – تأصيل قيمه التي يؤمن بها.

ورغم انتمائه إلى المؤسسة الزيتونية في فترة اتسمت فيها بالجمود والركود إلا أنه كان صاحب روح ثورية تجديدية، وصاحب فكر تنويري وعقلاني. وقد لمست فيه هذه القيم من خلال مؤلفاته أو حتى معاملاته اليومية؛ إذ هو لا يقدم على أخذ قرار إلا بعد عرضه على المقربين منه فتجده يدافع بشدة عن مشروعه ولكن إذا نبهه منبه إلى ضرورة التخلي عن فكرة وكان رأيه صائبًا فإنه على استعداد للتخلي والتراجع عما كان يدافع عنه... وهذه ميزة لا تتوافر لدى الكثير.

هذا بعض ما يمكن أن أقوله – في عجالة – عن مؤلفاته وطبيعة فكره. أما عن حياته الخاصة فهو شديد مع نفسه وشديد مع الآخرين.

أما شدّته مع نفسه فتتضح في احترامه المبالغ فيه للمواعيد التي يقيد بها نفسه وإلى التزاماته التي يختارها؛ فحياته مثل الجندي الملزم بتنفيذ التعليمات بدقة إلى درجة لا يتصورها العقل فهو يلح على مسائل بسيطة في ظاهرها ولكنها عميقة في مدلولاتها.

فتراه إذا جلس يحدد طريقة جلسته كأن لا يضع الساق على الساق إذا جلس ليحادث شخصًا، ولا تعبث أصابعه بقلم أو ورقه إذا كان بصدد محادثة شخص، وهو يصر على – بروتوكولات – إذا دعا ضيفًا إلى مجلسه في المقهى أو في منزله.

وإذا كلفني بإرسال رسالة فإنه يختار ظرفها وطرق كتابة المرسل إليه والصفات التي تسبق اسم من يرسل إليه واختيار الزاوية التي يكتب فيها عبارة «شخصي» أو «مستعجل» أو «خاص» أو «سري» وإلى غير ذلك من التفاصيل الصغيرة التي لا ينتبه إليها الإنسان العادي أو لا يأبه بها حتى من يعرفها.

فتراه جد ملتزم بالرد على رسالة فور وصولها، وكان دائمًا يردد على مسامعي وهو يصرخ «لا تؤجل عمل اليوم إلى غد.. وا مصابي من غدٍ إن أقبل»! ذلك شعاره في العمل مع حرصه الدائم على السرعة في الإنجاز والدقة في العمل.

ورغم شدّته تلك فإن هناك جانبًا مرحًا في شخصيته فهو يحب النكتة بل يحفظ منها

(*) أكاديمي تونسي من مواليد مدينة توزر بالجنوب التونسي عام ١٩٤٠م، مدير إدارة الثقافة في المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، عضو الهيئة الاستشارية لمعجم البابطين لشعراء العربية في القرنين

الشيء الكثير وهو يقدر على تحويل وجهة مجالسيه كيفما يشاء فينتقل بهم من اللهو إلى الجد إذا اختار ويقيدهم بطرق في السماع أو في الحديث حسب مزاجه.

ومن الصعب أن تعرف فيمَ يفكر أو عمَّ يتحدث أو ما ينوي من خلال سؤال طرحه. وكثيرًا ما يردد على سامعيه أن لا أحد يقدر أن يعرف عنه إلا ما يريد هو أن يعرفه الآخرون.

يعرف معادن الرجال فيقدر هفواتهم ويغفر زلاتهم ويقدر تهافتهم، ولكن يحفظ في ذاكرته عنهم كل شيء إلى درجة تجعلني أستغرب من طرق محادثته لمن حدثني عنهم.. فأسأله فيقول: «في فمي ماء!».

هو لائكي النزعة ولكنه جدّ متشبّع بقيم العروبة والإسلام وهو يرى أن الإسلام جاء بفضائل كثيرة ولكن المسلمين انحرفوا عن تلك القيم وفهموا الإسلام فهما خاطئًا، فمالت أمورهم وتأخرت دولهم وألبسوا الإسلام تخلفهم وجهلهم... فكثيرًا ما كان يجاهر بآراء تزعج الخاملين ولكن إذا تأملنا في مقاصده نفهم عقلانية الرجل وبعد نظره.

علّمته علاقاته وأسفاره وسعة اطلاعه ما لا تقدر جامعات الدنيا أن تعلمه لطلابها. يحدثك عن الاختلافات الدقيقة بين المغاربة والمشارقة وبين العرب والغرب وبين المسلمين والمسيحيين واليهود، وكل فئة يعلم عنها الشيء الكثير ولا يخلط بين الذاتي والموضوعي، وكل ذلك غير متاح للكثير من الناس... وربما هذا سبب من شدته مع نفسه ومع الآخرين.

أشهد أني ما تعلَّمت منه إلا القليل وما تطبَّعت إلا ببعض طبائعه وربما يرجع ذلك إلى فارق السن والتجربة والتكوين.. ولكن من الصعب أن نجد نسخة تماثل الأستاذ فهو نسيج وحده وهو من معادن رجال لا يجود الدهر إلا ببعض منهم بعد سنوات طويلة. هو من جيل مخصوص... جيل ذاق الحرمان والمهانة وعرف الاستعمار وقلة ذات اليد وعانى الاحتياج والفقر وتربَّى في ظروف صعبة غير الظروف التي تربّى فيها جيلي، لذلك من الصعب أن يستنسخ ذلك الجيل؛ إنه جيل الرجال الأحرار والمناضلين بكل ما تعنيه كلمة النضال.

أفهم حدة طبع الأستاذ كرو وأفهم معاني غضبه من تصرفات الناس ولكن من الصعب أن يُفهمَ هو لأنه من طينة خاصة ومن معدن خاص.

لكل هذا قلت في بداية كلامي: «لا أعلم هل أحدد سنوات صحبتي للأستاذ كرو بالسنوات التي تقيس عمر البشر أم أحددها بحجم الفوائد والمكتسبات التي حصلتها طيلة

اقترابي منه؟». هذه شهادة عجلَى ولعلّي سأفيض بالحديث أكثر في كتاب أنوي تأليفه عن الأستاذ (أبو القاسم محمد كرّو) أمد الله في عمره حتى يقرأه ويبدي رأيه فيه.

****

إن الثمانين وبُلِّغْتَها

أ. د. محمد صالح الجابري(*)

حسنًا فعل الأستاذ أبوالقاسم كرو، أنه تولى بنفسه، وفي وجوده وأمام بصره، وبإمكانياته الخاصة، جمع الجانب الأوفر من كتاباته المتناثرة بين الصحف والمجلات والنشريات والكتيبات، وطباعتها تحت عنوان (حصاد العمر) في ستة مجلدات ضخمة، صدرت منذ بضع سنوات عن كل من دار المغرب العربي، ومؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري بالكويت، وهي المؤسسة التي دعمت نشر هذه الأعمال في لفتة نبيلة من رئيس المؤسسة تكريمًا لتونس وللأستاذ أبي القاسم كرو، باعتباره علمًا من أعلام الثقافة العربية في بلده تونس، وفي إقليم المغرب العربي، وفي كل أرجاء الوطن العربي.

وبذلك توفَّر للباحثين والدارسين والمهتمين بالثقافة العربية في تونس وسائر الأقطار العربية مرجع أساسي لدراسة التحولات الثقافية في هذه الربوع، وتقديم صورة عن ارتباط المثقفين والمفكرين التونسيين بالكفاح الوطني في تونس، وبالحركات النضالية في المغرب العربي والوطن العربي، وما قدَّم هؤلاء من ضروب الفداء والتضحيات الجسام في مرحلة من أهم مراحل المواجهة مع المستعمر؛ مرحلتي الخمسينيات والستينيات، اعتبارًا إلى أن شخصية أبي القاسم كرو تعدُّ نموذجًا للمناضل المثقف الذي كرَّس جُلَّ حياته ومواقفه وإمكانياته، وأوقفها على خدمة وطنه وتراث أمته منذ الخطوات الأولى التي خطاها، ومنذ مشاهداته الأولى لما يجري في محيط مدينته، وفي بلاده.

تُقدِّم لنا صفحات المجلد الأول من هذه المجلدات بعض الإضاءات الموثَّقة عن نشأة الكاتب، ومراحل تكوينه المختلفة بين أهله وذويه، وفي الوسط الثقافي والاجتماعي الذي ترعرع فيه حيث يلمس المرء بذرة العصيان والرفض والتمرد التي وسمت طبيعته منذ نعومة أظفاره، ومنذ التحاقه بالتنظيمات الكشفية والطلابية التي صقلت شخصيته، وجرَّأته على ضروب التحدي والعناد، فآل به الأمر إلى الوقوف رفقة بعض زملائه في المعهد الذي يدرس فيه أمام المحاكم الاستعمارية بسبب إقدامهم على تمزيق العلم الفرنسي رمز الاستعمار.

وعوض أن يستوعب الشاب أبوالقاسم الدرس من هذه المحاكمة، ويستخلص منها العبرة، ويجنح إلى الصمت والاستسلام والإذعان، فإن طبيعته المعاندة دفعته لأن ينقل معركته ضد الاستعمار من إطارها الوطني الضيق، ومن حدود بلدته قفصة ووطنه تونس إلى رحاب أوسع وأشمل وأبعد في المكان والزمان والأهداف، وهكذا شدَّ الرحال مع مجموعة من المتطوعين الذين جندهم إلى فلسطين، مدفوعًا بحماسة الشباب، مستجيبًا لذلك النداء العربي الكامن في الجوانح، والثاوي في المشاعر.

كان ذلك في سنة ١٩٤٨ عندما غادر تونس في اتجاه ميادين الحرب في فلسطين مشيًا على الأقدام حينًا، وبالاستعانة ببعض الوسائل البسيطة المتاحة لقطع آلاف الأميال التي تفصل فلسطين عن تونس حينًا آخر. ولولا ما اعترض هذه الجماعة من صعوبات في بعض الحدود العربية، وإجبارهم على العودة على أعقابهم لكانوا التحقوا بساحات القتال، ولانضمُّوا بذلك إلى صفوف المقاتلين، ورُسموا في عداد الأبطال أو الشهداء، ولما عدمت الوسائل أمامهم لبلوغ الهدف، فقد ذهب كل في حال سبيله، إلا أباالقاسم فقد آثر أن لا يعود إلى الوطن صفر اليدين يجر أذيال الخيبة والمرارة وهو الذي لم يتعود على الهزيمة ولم يتعود أن يحني الهام أمام الصعوبات والعوائق، فهداه تفكيره إلى الطريقة المثلى التي يمكن أن يحقق بها مشروعه في الإسهام في النضال ضد الاستعمار الفرنسي، الذي يحتل وطنه، والذي كان حرمه من محاكمة كان يسعى من خلالها إلى رسم اسمه في عداد صفوة المناضلين، آنئذٍ قرر أن يضع نفسه في ذمة زعماء تونس، وزعماء المغرب العربي الذين كانوا يتخذون من مكاتب المغرب العربي في بلاد المشرق مراكز للتعريف بالقضية المغاربية لدى الدول المشرقية.

ولأن السياسة، لم تكن بحاجة لمزيد من الزعماء الذين يتنافسون بينهم على احتلال الصفوف الأولى، وكلٌّ له مشروعٌ وخطة، فقد بدا لأبي القاسم الذي لم تكن سِنُّه آنئذٍ تسمح له بأي موقع بين هؤلاء، بدا له أن موقعه الحقيقي ليس في هذه المكاتب إنما في مكان آخر، وفي بلد بعيد عن بلدان الواجهة الإعلامية مثل مصر، وسوريا، وليبيا، هذا البلد كان العراق الذي أشار عليه بالذهاب إليه الزعيم الشهيد الحبيب ثامر الذي رشح أبا القاسم ضمن بعثة مغاربية تضم عددًا محدودًا من طلاب تونس، والجزائر، والمغرب، تم إيفادهم

للدراسة بالجامعات العراقية التي لم تكن تصل إليها آنذاك أقدام أبناء المغرب العربي.

كان الهدف من إيفاد هذه البعثة ومن إيفاد البعثات السابقة واللاحقة التي اختارت بلاد المشرق للدراسة خلال تلكم المرحلة المبكرة تكوين نخبة من المثقفين والأساتذة المؤهلين للإسهام في المعركة اللغوية والحضارية والتعليمية التي ينتظر أن يسفر عنها رحيل الاستعمار، واستعادة الشخصية الوطنية، وتأهيل إطارات لمربِّي الغد، وتكوين أجيال من حاملي الثقافة العربية.

وهكذا وجد أبوالقاسم نفسه مرة أخرى محمَّلاً برسالة لا تقل شأنًا ولا خطرًا عن الرسالة التي محض لها نفسه في معركة التحرير والاستقلال. ذلك أن الاستعمار الظاهر أيّاً كانت طبيعته وقوته يدرك إدراكًا عميقًا أنه سيزول يومًا ما، وبما أن الاستعمار يحلُّ بالشعوب والأقطار والدول ويستحوذ عليها من أجل أن يبقى ويحافظ على استمراره فإنه كان مضطرًا لتغيير أقنعته واستبدال جلده بجلود الآخرين الذين يتطوعون لحمل رسالته والاضطلاع بمهامه، وفي حالة الاستعمار الفرنسي فقد دأب في كل البلدان التي استعمرها على إحلال لغته وثقافته محل اللغات الوطنية، والانقضاض على جوهر ما تتشبث به تلك الشعوب وهو هوياتها الوطنية، وتراثها وفكرها وإرثها الثقافي والحضاري، وذلك بغرض تأكيد استمراريته، وضمان مصالحه.

وإذ كانت معارك التحرير تخاض بالسلاح والمواجهات، ويكون النصر فيها محتومًا لصالح أية مقاومة، فإن معارك الصراع اللغوي والهويات معارك طويلة النفس أدواتها الإيمان والإرادات، والأقلام والوعي، وبدون خوضها والانتصار فيها تظل الشعوب والأمم فاقدة لتوازنها، مهددة في شخصيتها وهويتها، وحتى استقلالها الوطني في معظم الأحيان.

كان أبوالقاسم يعي أهمية الدور المترتب عن توجيهه للدراسة بالمشرق، وهو أن يتعلم ويتخرج ويتثقف ثم يعود إلى بلاده للإسهام في المعركة الحضارية الثقافية التي كانت في انتظاره وانتظار غيره من الأجيال التي وجهت للتعليم في جامعات الشرق والغرب على حد سواء. ولذلك ما إن عاد إلى الوطن حتى بادر بتنفيذ مشروعه الثقافي الذي كان يخامره منذ أيام الجامعة وهو إنشاء دار للنشر، وإصدار سلاسل من الكتب التثقيفية والفكرية، أدبية، وسياسية، واجتماعية، واقتصادية نشرًا للمعرفة على أوسع نطاق وباللغة العربية

في سائر أقطار المغرب العربي، معتبرًا هذا المشروع بعثًا للثقافة العربية وإحياء لها، ومساهمة جادة لنفخ الروح في اللغة العربية، ودعوة لكل الكتاب والأدباء ونخبة خريجي الجامعات من أبناء المغرب العربي لإطلاق العنان لأفكارهم وأقلامهم، وربط الصلات بينهم وبين الشعوب المغاربية التي كانت خارجة للتو من ربقة الاستعمار الذي حال بينها وبين كل ما يربطها ويشدها إلى ثقافة ولغة أمتهم.

في هذا الإطار صدرت سلسلة كتاب «البعث» عن دار المغرب العربي التي أسسها لهذا الغرض، وقد جمعت أقلامًا شتى من كل الأقطار المغاربية، تونس، الجزائر، والمغرب. وكانت هذه الدار انطلاقة جديدة في عالم النشر، ومغامرة شجاعة من الأستاذ كرو الذي كرَّس لها كل جهده وطاقته وإمكانياته. وبالفعل تلقف الناس هذه السلسلة بشغف بالغ وانبهار واضح، وحظيت بالإقبال والرواج، وأصبحت مصدرًا ثقافيّاً لكل متعلمي ذلك الجيل الذي كان يشكو فقرًا ثقافيّاً مُدقعًا في تلك المرحلة حيث لم تكن الدولة الوطنية قد قامت بعد، فكان مشروع أبي القاسم كرو ممهدًا لظهور الثقافة الوطنية التي تجسمت فيما بعد في بعض شركات النشر التي أسستها الدولة.. لتتولى مسؤولية نشر الكتاب وترويجه.

وككلِّ عمل ناجح وهادف فإن العيون التي كانت ترصد هذا المشروع وتتحسب لمثل هذه المبادرات، استشعرت في هذه المبادرة إمكانية قيام مشروع ثقافي عربي موازٍ ومعادل للمشروع الثقافي الاستعماري، ولذلك سرعان ما التفت على الرجل ومشروعه، وأقامت حوله أسيجة من الإحباطات والمثبطات إلى أن أخمدت أنفاس آخر ورقة فيه، ولم تكتف بذلك فقط، إنما ظلت ترصد بحذر كل حركات صاحب المشروع وتحصي عليه حركاته، سواء في حلقات الدرس، عندما عين أستاذًا للتدريس في المعاهد الثانوية، أو خلال مشاركاته في الأنشطة الثقافية الأخرى.

على أن ظاهرة العناد والتحدي التي ظل يتميز بها أبوالقاسم كرو عن سائر أمثاله من خريجي الجامعات المشرقية الذين واجهوا نفس المحاصرة ونفس المصير هي التي مكَّنته في كل مرة من القدرة على تجاوز كل الصعوبات والعراقيل، سلاحه في ذلك إيمانه بالأمة العربية وأدبه ونشاطه الجم وحيويته المتميزة، فكان طاقة من العمل الدؤوب والإنتاج الغزير المتلاحق الذي أهله لإنجاز أكثر من ٥٠ كتابًا، فضلاً عن عشرات النشريات

والكتيبات، وآلاف المقالات في الصحف والمجلات، ومئات المحاضرات التي ألقاها على المنابر، فدرأ بذلك عن الشكوك والظنون التي ساورت أصحاب النوايا السيئة الذين كانوا يخالون أن الرجل كان هدفه المنافسة السياسية، وأنه كان يسعى لتقويض النظام!

وحين كانت الحكومات تتعاقب وتتغير وتبتعد كثيرًا وتشط في معاداة اللغة العربية والتنكر لهوية الشعب، وتقترب آنًا من هذه القضية بدافع التملق والشعور بالذنب تجاه الشعب، وبغرض التوظيف السياسي الانتهازي فقد ظل أبوالقاسم يحافظ على خط سيره لا يحيد عنه قيد أنملة مما حدا بالبعض من أولئك أن يوغروا عليه صدور بعض الأغرار من المنتسبين للوسط «الثقافي» في السبعينيات لرميه بتهمة «التمشرق» التي تعني في مفهومهم الانتساب إلى الأمة العربية والثقافة العربية، والحضارة العربية وكأن الانتساب إلى هذه الثوابت والقيم وكأن الانتساب إلى الأمة العربية مشرقًا ومغربًا والدراسة بالجامعات العربية المشرقية وصمة عار، وسبَّة يستحق مرتكبها الرجم وإقامة الحد عليه، ولولا أن الأستاذ أبوالقاسم كان يتحلَّى بتلك الثقة العالية بالنفس، وبالإيمان بالأمة، وبفخر الانتساب إلى الثقافة العربية الإسلامية وبأن ما قام به كان يدعو إلى الاعتزاز والمباهاة، لما واجه تلك الحملات التي تعرض إليها لنحو نصف قرن وبصورة متتالية بذلك الشمم والصمود الذي بَوَّأه المكانة التي يحظى بها اليوم في بلده بين المثقفين ورجال الدولة ولدى رئيس الدولة نفسه، الذي كرمه بأعلى الأوسمة، وحباه بكل الرعاية والإكرام، وفي ذلك إشارة بليغة إلى أنه كان على سَداد، وأن السبيل التي اختطها والرسالةَ التي حملها لأكثر من ثمانين سنة كانت رسالة نبيلة مما انتفع به الناس ومكث في الأرض وفي العقول والقلوب، بينما ذهب الزبد جفاء.

إنه لا يبدو من السهل على أي متابع لمسيرة الأستاذ أبي القاسم كرّو الثقافية والفكرية منذ نشأته الأولى وحتى هذه السنوات المديدة التي عاشها، وكانت سنوات مفعمة بالعطاء والإنتاج والدأب والصبر والتحمل والمضايقات، أن يلمّ الإلمام الكافي بجميع إنتاجه المتعدد والمتنوع بين الإبداعات الشعرية التي كان رائدًا في بعضها كالشعر المنثور، وبين الكتابات الأخرى المتميزة كالتعريف بالشخصيات السياسية والعلمية، انطلاقًا من محيطه الصغير في مسقط رأسه قفصة التي آثرها باهتمام خاص إبرارًا بحقها وحق أهلها عليه

أبو القاسم محمد كرو

أ. محمد قريمان(*)

وإذا كـــانت الـــنـــفـــوسُ كـــبـــارًا
تـــعـــبت في مُـــرادِهـــا الأجـــســـامُ

كثير من الناس يحبون تغيير حالهم إلى الأحسن، وقليل منهم يسعون بجد إلى ذلك، والنادر من هؤلاء من ذوي النفوس العظيمة يجاهد الحياة ويكابدها لبلوغ الغاية وينجح، وممن نجحوا وغيروا حالهم وأصبحوا قدوة لأجيال من الشباب الأستاذ (أبو القاسم محمد كرو) حفظه الله وزاده من نعمة الصحة والعافية حتى يرى أحفاده وأسباطه في خير حال.

عرفت الرجل (في معنى الرجولة لا الجنس) من حوالي ستين عامًا (١٩٤٦) حيث كنا نسكن معًا نفس الحي بمدينة قفصة بالجنوب الغربي من البلاد التونسية. هو أسنُّ مني بأعوام قليلة، وهو لَسِنٌ على كل أصحابه الذين من جيله ومن نفس الدرجة العلمية، يبرز ذلك في المحاضرات والمناقشات التي كانت تعقد بمقر جمعية شباب ابن منظور القفصي، حسب التسمية آنذاك، جمعية أسسها ودعا زملاءه من النخبة المثقفة إلى الانضمام إليها، فأسندوا رئاستها إليه.

لم يمض على تأسيس الجمعية مدة حتى استقطبت المثقفين في تلك المدينة على اختلاف تكوينهم ومشاربهم خصوصًا بعد تكوين مكتبتها وفرعها للتمثل العربي، فكل واحد يجسد فيها مشربه في صيف حار وطويل تتخلله عطلة بالنسبة للطلاب.

إعجابنا بالشاب أبي القاسم كنا نفسره أنه نتيجة نشاطه في صلب الجمعية المذكورة التي ملأت فراغًا عند الأجيال التي تعاقبت بعد التأسيس، وأعتقد الآن أن عوامل

(*) أديب تونسي من مواليد قفصة في الجنوب الغربي من تونس عام ١٩٣١م.

الإعجاب كثيرة وأهمها قربه منا من حيث المستوى الاجتماعي، إذ برز من عائلة تمتهن التجارة والفلاحة، وحتى أخوه الأكبر صالح الذي شق طريقه العلمي وانخرط في سلك القضاة فلم نكن نعرفه على الوجه الأكمل لأنّ زياراته للمدينة قليلة بحكم تنقله في مراكز عمله، بينما أبو القاسم نراه في كل يوم ونتحدث معه ونلجأ إليه لفهم ما عسر عنا فهمه، وهو المثال الذي شجع الشبان المنحدرين من عائلات حرفية، وأنا منهم، ليغيروا مسارهم في حياتهم وينعموا بنعمة العلم.

نجح الشاب أبو القاسم في شهادة الأهلية بعد عامين من الدراسة بتونس العاصمة وانتقل ليزاول دراسته بجامع الزيتونة، وإذا الأخبار تصلنا أن رئيس الجمعية الشاب أبا القاسم هاجر إلى الشرق (١٩٤٨) وبدأت التأويلات ضمن قائل أنه هزَّه الحماس وذهب للجهاد في فلسطين خصوصًا وأن كثيرًا من شباب قفصة توجه متطوعًا للمساهمة في الحرب ضد إسرائيل في فلسطين، وحجتهم أنهم رأوه يدعو ويشرف على تجنيد الشباب المتطوع للقتال في فلسطين في نفس السنة، وهو معروف بتحمسه للقضايا الوطنية والعربية، ومن قائل لعله ذهب لمزاولة الدراسة، وهو قول ضعيف في نظر المتأولين لأنّ الرجل لم ينه دراسته بالزيتونة، ومن متأسف على هذه الهجرة الغامضة لشاب يتقد حيوية ويحسن التأثير والتسيير خصوصًا أنه استطاع في بضع سنوات ١٩٤٥/ ١٩٤٨ أن يحرك الحياة الثقافية في تلك المدينة الداخلية التي تفتقر إلى أبسط التجهيزات التي تساعد على الترفيه وتجميع الشباب ونشر الثقافة، وحتى السلطات الجهوية بالمدينة تعتبر النخبة المثقفة من الشباب عبئًا ثقيلاً عليها.

هذه الهجرة أثرت سلبًا على النشاط الثقافي، لكن الجمعية استمر وجودها وبقيت تعمل بهيئة أخرى وبرئيس آخر. أما المهاجر فلم يُنسَ واستمر السؤال عنه وعن مَآله ومساره، فمرة نسمع أنه في مصر للدراسة، ومرة يقولون أنه شوهد ببدلة عسكرية، ويحتدُّ النقاش بين محبيه وهم كثرٌ يريد الواحد منهم أن يبين أنه أكثر اطلاعًا وتتبعًا لأحوال الرجل، وبعد مدة جاء الخبر أنه يدرس بدار المعلمين العليا ببغداد، وتأكد الخبر يوم أن

تلقت جمعية شباب ابن منظور هدية من مؤسسها ورئيسها الأول تتمثل في خمس نسخ من كتابه الذي أصدره في بغداد بعنوان «مايس شهر الدماء والدموع في المغرب العربي» وأقبلنا على قراءته وإعادة قراءته لأن مؤلفه منّا ولأن لغته سلسة ولأنه قيل لنا أن به حديثًا عن نكبة جرت في مدينتنا أثناء الحرب العالمية الثانية يوم عمد المراقب المدني الفرنسي P.Bardin إلى إعدام ثلاثة وثلاثين عربيّاً من أهل قفصة بدون محاكمة وبدون أن يعلموا التهمة الموجهة إليهم، كما عمد إلى تسليط خطية مالية يدفعها سكان البلاد من المسلمين قدرها مليونا فرنك، علمًا بأن الموظف السامي من التونسيين في المدينة لا يتجاوز مرتبه الشهري عشرين فرنكًا، إنها معاناة حرب لم يكن للتونسيين فيها ناقة ولا جمل، ومع ذلك دفعوا ثمنًا لها من أرواحهم وأرزاقهم أثناء الغارات الجوية العسكرية وحتى بعد الحرب بمفعول الألغام التي وضعها المتحاربون في كل مكان، وإذا الكتاب يحوي أحداثًا جرت في شهر ماي في كل أقطار المغرب العربي.

تقدمت بنا السن وتقدمت بنا الدراسة، وجئنا إلى تونس لمواصلة تعليمنا وإذا الكتاب الثاني من تأليف أبي القاسم كرو عن شاعر تونس أبي القسم الشابي «الشابي حياته وشعره» ينزل إلى المكتبات، ونعلم أنه يباع في مكتبة خوجه في حي باب منارة، ونسعى للتحصيل عليه، على قلّة ذات اليد، وصادف أن حضرنا حوارًا ساخنًا بين صاحب المكتبة وهو سوري مهاجر، وبين ورثة الشابي الذين يحتجون على نشر إنتاج مورثهم بدون علمهم، يعني بدون أن ينالهم نصيب من المال، فيجيب صاحب المكتبة بأنه تاجر استورد سلعة ليبيعها، وإذا كان لهم حق فليطلبوه ممن أخذه منهم عن طريق المحكمة.

رجع أبو القاسم إلى بلده وقد أصبح أستاذًا قانونًا بعد تحصله على الإجازة في الآداب العربية من دار المعلمين العالية في بغداد، وبعد أن مارس التدريس ببغداد ثم بطرابلس ثم بتونس، ومن حسن الطالع أنه عاد قبل أن تستقل تونس ويصبح المسؤول عن التربية فيها رجل معقد، عُقْدتُه الزيتونة وأهلها، فلم ينل الأستاذ أبو القاسم ما نال زملاؤه الذين جاؤوا بعده حيث كان بعض الساسة في تونس ضد العروبة يستصغرون الشرق وثقافة الشرق، ويتشيعون للغرب وثقافة الغرب وفي مقدمتهم هذا المعقد الذي أصبح

وزيرًا، تشهد عنه الوثائق الإدارية التي استعملت في عهده وعلق عليها بخط يده «مجاز من الشرق» و«ز. لا يستحق الخطة» و«ز» تعني زيتونياً، تشهد كلها على عقدته التي عانى منها طلبة الزيتونة والمتخرجون منهم من جامعات المشرق العربي معاناة لا مزيد عليها.

عاد الأستاذ عام ١٩٥٤ ومعه شهادة جامعية ورصيد كبير من المعرفة الأدبية والخبرة الحياتية في أتم النضج، ومعه أيضًا زوجة لطيفة مثقفة من بلد الأرز، انضمت هذه السيدة الفاضلة إلى أسرة التدريس بالفرع الزيتوني للبنات بتونس العاصمة، هذا المعهد الذي أنجب الكثيرات من أهل العلم والثقافة، ومع ذلك يردد المغرضون ومن في قلوبهم مرض بدون حياء، أن التعليم الزيتوني ديني تقليدي يقتصر على الدراسات الدينية، ومن تناقضهم أنهم يفتخرون في الوقت ذاته برموز العلم والأدب والشعر والوطنية أمثال الثعالبي والشابي والحداد وبو حاجب وابن عاشور وغير هؤلاء وكلهم تكونوا في جامعة الزيتونة.

لا أشك أن الأستاذ كرو قد أدرك تمام الإدراك العداء الذي يكنه وزير التربية آنذاك لأهل الزيتونة، والحمد لله أنه وُلِدَ ولم يَلِدْ وقد يكون عمل. يقول المتنبي:

ومن نَكَدِ الدنيا على الحرِّ أنْ يرى
عدوّاً له ما مِن صداقَتِه بُدُّ

لكن الوزير الحقود لا يؤتمن جانبه، فاستغل عرضًا تقدّم به إليه وزير الثقافة ليعمل معه متعاقدًا حيث كلَّفه فيها بإدارة كلية الآداب من ١٩٧١ إلى ١٩٧٤، وفيها قدرت ثقافته وعلمه وقدرته على الإبداع، ففتحت أمامه أبواب كثيرة مقاييسها الكفاءة ولا شيء غير الكفاءة في الميادين العلمية، وأخذ يتنقل في مهمات عديدة منها إدارة المركز الثقافي بطرابلس الغرب من ١٩٧٤ إلى ١٩٧٧ وكل نجاح في مهمة يقوده حتمًا إلى مهمة أخرى، ويكفيه شرفًا وفخرًا أن أسندت إليه مجامع اللغة العربية في القاهرة والأردن والعراق ودمشق، العضوية الدائمة بصفة عضو مراسل لهذه المجامع التي أحسنت الاختيار لأن الرجل من الباحثين المدققين في معاني اللغة العربية ومن الممارسين لاستعمالاتها فيما يكتب باستمرار سواء أكان على صفحات المجلات والجرائد اليومية، أو فيما يؤلف من

كتب بلغت، فيما أعلم ستين عنوانًا، أما فخره الأكبر فهو تسميته مستشارًا لوزير الثقافة من قبل رئيس الجمهورية التونسية اعترافًا له بما قدم طيلة حياته من أعمال في الميدان العلمي والأدبي والاجتماعي.

بدأ بطلنا حياته نبراسًا وسراجًا منيرًا، وأدرك مبكرًا أن الإشعاع يقتضي طاقة ليتواصل وتتسع دائرته، والطاقة هنا هي العلم والمعرفة والثقافة، فحرص وما يزال على التزود ما أمكنه من الطاقة ليواصل إشعاعه، ومع ذلك فهو يردد دائمًا (وما أوتيت من العلم إلا قليلا)، وأدرك أيضًا أن الحياة اختيارات، وأن الدارسين للعلم نوعان اثنان: أحدهما يريد من العلم أن يكون مطيته لضمان الوظيفة والجاه والمال، فيتلهّى بخويصات نفسه، زواج وإنجاب وكل ملذات الحياة. وهي رغبة مشروعة، وهؤلاء هم الأغلبية الغالبة، أما النوع الثاني وهم أقل من القلّة فيختارون زيادة على ما يوفره العلم من العيش أن تكون له رسالة يشع بها على بني جنسه، يحرص على نشرها ويضع لبنة في البناء الحضاري لبني قومه، وهو عمل لا ينتهي ويمتد مع صاحبه إلى آخر لحظة من حياته، وصاحبنا من النوع الثاني فهو لا يحمل علمًا يبثه بين أهل الثقافة فقط، وإنما يبحث ويدقق ويقلب الوثائق لاستنتاج ما هو متعلق بالأحداث التاريخية التي ساهمت في بث الروح الوطنية في ربوع الإسلام شرقًا وغربًا، ثم هو ينشرها على نفقته أو بإعانة بعض المؤمنين برسالته، فهو عندما يتحدث عن الشاعر أبي القاسم الشابي فهو يتحدث عن فنه وإبداعه في بناء القصيدة، لتوضيح المعاني وإبراز الوطنية في هذا الشعر الذي ألهب العواطف وأذهب السكينة والاستسلام واليأس من قلوب الناس، ورسخ في النفوس التشبث بالأرض والهوية، وعرف أن إرادة الشعوب لا تقهر أبدًا:

إذا الشعبُ يومًا أراد الحياة
فلا بدَّ أن يستجيبَ القدرْ
ولابدَّ لليل أن ينجلي
ولابدَّ للقيد أن ينكسر

أما كتابته عن الطاهر الحداد فإنما هي لبيان دعوته إلى تحرير المرأة التي ظلَّت زمنًا ترزح في قيود الجهل والتقاليد البالية، والتذكير بدعوته التي تعززت بدعوات مماثلة في أقطار إسلامية أخرى جعلت الناس في عصرنا يؤمنون أن المرأة إذا أعددتها أعددت شعبًا طيب الأعراق.

سُنَّة الله في خلقه أن يهِنَ عظم الأستاذ كرو بعد جهاد طويل وعطاء وفير امتدَّ ستة عقود متواصلة، ومع ذلك فقد حباه سبحانه وتعالى ومتعه بالحضور الذهني وكامل مداركه العقلية جزاء ما قدَّمه من خدمة للعروبة والعربية في كل مكان. الرجل ما يزال والحمد لله يقرأ ويكتب وينظم ملفاته ويناقش زواره ويحضر المؤتمرات ويدافع عن قضايا الحقّ بما يحبِّره في الجرائد اليومية من فصول، وإن ما أقدم عليه في السنين القليلة الماضية من إهدائه لمكتبته الضخمة إلى كلية الآداب بمنوبة في البلاد التونسية لهو دليل على رجاحة العقل وحسن التصرف إذ إن هذا الإهداء قصد منه نفع الطلاب بما تحويه المكتبة من مصادر ومراجع فيتواصل العطاء طول الدهر.

فلتهنأ يا أبا القاسم كرو بمسيرة حياتك، وأختم بما كنت بدأت به هذه الشهادة:

وإذا كـــانت الـــنـــفـــوسُ كـــبـــارًا
تـــعـــبتْ في مُـــرادِهـــا الأجـــســـام

****

حياة حافلة بالعطاء

أ. د. محمد مسعود جبران(*)

أرأيت إلى بهاء الشجرة الطيبة المباركة، الوارفة الظلال في أعالي التلال، والموفورة الحظِّ من الخصب ولذيذ الثمار المكسوة باخضرار الأوراق وروائع النوّار، وقد تعهدها الغيث بطلِّه ووبله، وتناوبت عليها الأهوية بنسيمها الرقيق، وسرِّها المخبوء الرشيق، فغدت في مجالي الطبيعة السابية شجرة بهية المرأى والمنظر، جميلة المظهر والمخبر، تلك عندي – هي الصورة الحسيَّة الرضية في عالم الشهادة لبيان صورة العالم التونسي الجليل، والباحث الألمعي الأصيل، والأديب الظريف النبيل الأستاذ أبي القاسم محمد كرو ومعلَمة معالم تونس الحبيبة، والبلاد العربية والإسلامية بعامة.

فما من ريب في أنَّ أستاذنا أباالقاسم محمد كرو حقيقٌ بهذه التحية، لإنَّه – كما عرفناه وخبرناه عن قرب – عالم معطاءٌ ، وصاحب معارف ثرّة مهيبة ومجمع تجارب عميقة خصيبة، إذ برأه الله تعالى كما تفصح سيرته وترجمته الحافلة – مثالاً متفرداً للدأب والمثابرة والجلد، وأنموذجًا متميزًا للصبر وقوة التحمل، ونمطاً ممتازاً للحافظة المستوعبة المخزنة، والذاكرة المستدعية المدهشة، مع ما يزينه من الظرف الممتع الذي لا يقف في مجال الإمتاع والمؤانسة عند حدٍّ من الحدود، زيادة على ما خصَّه الله به من سماحة النفس، ورقة الروح، وقوَّة الجاذبية ، وهو ما جعل منه بجماع بل بمجموع ما اختزنه من المعرفة الواسعة، والدماثة العذبة التي تشكَّلت بها شخصيته خلال عمره المديد السعيد سفيرًا للثقافة العربية الإسلامية في تونس الخضراء محبوباً مستملحًا موقرًا، يحظى في المحافل الفكرية المختلفة في البلاد العربية والغربية على حدٍّ سواء بكل تجلَّة وتقدير يليقان بعلمه

(*) أكاديمي وشاعر ليبي من مواليد مدينة طرابلس الغرب عام ١٩٤٦، ورئيس قسم اللغة العربية بكلية الدعوة الإسلامية.

وأدبه، وبما قدَّمه بيانه الطلي، وقلمه الجلي – في مدَّة ناهزت الستين سنة – من ثمرات الأفكار، وما أبدعه من تآليف وكتب وآثار، وبما عرف به من حضوره المحبَّب، ليس في ما شهدت بعضه في الندوات والمؤتمرات والملتقيات الفكرية وحسب وهو قليل من كثير، بل في ما عهده فيه الجيل الماضي من مثقفي الأمة في الأربعينيات والخمسينيات في تونس ومصر والعراق وليبيا على منابر السياسة الوطنية والقومية والعقدية التي جسَّدت – كما تجلوه مقالاته وبحوثه في كتابه القيم «حصاد العمر» مواقفه العظيمة المنتصرة دومًا لقضية وطنه تونس ونضالها، ولأمجاد الأمة العربية ووحدتها، وللدين الإسلامي القيّم وتراثه الخالد العظيم، إن الخاصية الأولى والبارزة في مكونات عطاء وشخصيته هذا الرجل، والتي ميزته عن الكثير من أقرانه ولداته في تونس والبلاد العربية – أنه كان من الطلائع الرائدة التي حملت قضية الوطن والقومية والدين، واتخذت من الأقلام أداة قوية للدفاع عن تلك القضية والتفكير فيها، والتعبير عنها، ولم يسمح لنفسه طوال حياته أن يكون طائرًا يصدح ويغني خارج السرب، «فما استحق الحياة من عاش لنفسه فقط». لم يكن الأستاذ كرو في ما يخبر تاريخه وترجمته وفي ما قرأناه له من مقالات وكتب، واستمعنا له في أحاديث مجالسه، أو أخبرنا به أبناء جيله الذين تقدمونا زمانًا شخصية انسحابية اعتزالية تعيش في برجها العاجي أو أحلامها الوردية أو ترضى بالتهويم الذي يفصلها عن مجريات الواقع الذي تحيا أمته عذبه وعذابه، دون أن تكلف نفسها بالنضال المستميت، ومقاومة المستعمر الغريب الدخيل، أو مجابهة السياسات المستغربة المنحرفة في مرحلة ما بعد الاستقلال وهو ما عرضه في الكثير من الأحيان إلى شيء غير قليل من المحاصرة والتضييق والتهميش والإبعاد.

وقد كان القصد قبل كتابة هذه الكلمة الموجزة أو الشهادة الصادقة أن أكتب عن الأستاذ أبي القاسم محمد كرو وأخباره النضالية وآثارة العلمية بحثًا مطولاً أو كتابًا مفصلاً، أستكنه فيه ذينك المظهرين، وأجلو خلالهما توفيقه فيهما، لا مجرد كتابة مقالة عابرة عجلى مثل هذه الومضة السريعة التي أوحت بها هذه المناسبة الرائعة في تكريمه

بهذا الكتاب الاحتفالي، والتي حُدّد لها – بالرغم من فسحة الاتساع – هذا الحجم المختصر. والصفحات الضيقات التي تضيق عن مسرد مكارم الرجل وفضائله، ولكنها في كلِّ الأحوال مناسبة تقديرية بديعة وجليلة نحترمها ونجلُّها، [.....] تعليماتها في تحية هذا العالم الرائد، والأديب الأريب، ونرسل من خلالها احترامنا الكبير لمقامه الكريم.

لقد قدر لي أن أعرف هذا الأستاذ شخصيّاً بعد التعرف إلى آثاره العلمية مدة تجاوزت الثلاثين سنة في بلادنا ليبيا التي ارتبط بها وأحبته منذ ريعان شبابه أولاً، ثم في بلاده تونس التي تحتل من نفسي مكانًا عزيزاً، وفي بلادنا الأثيرة المشتركة المغرب الأقصى، وربما أتيح لنا اللقاء أيضًا في لبنان الجميل ضمن احتفالية مؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري في دورتها السادسة لتكريم الشاعر الكبير بشارة الخوري، فعرفت فيه كما جلته المجالس والمنتديات الحميمة ومنابر الملتقيات والندوات أديبًا رقيقًا سمحًا، ومحدّثًا ظريفًا لبقاً، وتاريخًا مشرقًا ألقًا، مع ما عُرف به من الحافظة التي تختزن من خلال قراءاتها ونضالاتها آلاف المواقف والأحداث والشخصيات وذاكرة نشطة تستدعي في غزارة وسرعة عشرات الحالات من الطرائف والمفارقات والأعلام الشرقية والمغربية ومن رجال السلف والخلف على حدٍّ سواء.

إنَّ أول ما يلفتك في هذه الشخصية الأثيرة المحببة – كما لفتني – تلك الجاذبية الآسرة التي يختزنها كيانُها، والتي تحتوي شخصية محدثة – مهما كانت طبقته أو مستواه العلمي أو الاجتماعي – بسهولة ويسر، وتستحوذ على روحه بابتسامة أبي القاسم الطاهرة التي يرسمها دومًا على محياه البريء ، فتفتح قلاع النفوس وحصون الأرواح دون مكابدة.

إنها الإكسير الغامض الرائع الذي صاغته على محياه عبر السنين المتطاولة براءة أهل البادية والصحراء الذين ينتمي إليهم بأصوله وأعراقة ولباقة أهل المدن والحواضر الذين عايشهم في عواصم المشرق والمغرب عهدًا عهيدًا، فإذا قدِّر لعارفه أن يبهر منه بهذه الجاذبية الجذابة الآسرة، فسوف يرى بعد ذلك أنه يطوّق منها أيضًا بجاذبية أخرى هي

جاذبية معارف الأستاذ المتنوعة التي أخذت من كل علم بطرف، والمتجلية في متعة المعرفة التاريخية في ما يسوقه إليك من ذكر الآثار والأخبار، وما يورده من الحديث عن الرجالات والأعلام، وما يتحفك به من التاريخ الذي أهمله التاريخ، وللأستاذ في ذلك باع طويل، كما يجلوها لك في الإتحاف بالنوادر وطرائف الأدب منظومه ومنثوره، وحكايات الأدباء وما يخفى من خصوصياتهم وأسرارهم زيادة على الحديث عن أطوار الأدب العربي قديمه وحديثه، والاسترسال في ذكر ملامح الأدب التونسي والمغاربي ماضيه وحاضره وشكول السياسة والساسة.

بيد أن مجالس الأستاذ أبي القاسم كرو – لا تخلو – في ما عاينته منها في ليبيا وتونس والمغرب من جاذبية مائزة تظهر في ما عرفها فيه جميع الأدباء والكتاب من أهل الجدّ والهزل، تضاف إلى أفضال ما ذكرناه له من العلم والأدب هي جاذبية الطرفة المسعدة، والنكتة الساخرة الساحرة، والدعابة الغامرة التي تستلُّ من أعماق سامعها في تلك المجالس أقوى الضحكات والابتسامات، وتجسد لشهودها في هذا المجلى ما يماثل الأفاكيه التي كتبها الأبشيهي في كتابه «المستطرف في كل فن مستظرف» وما سطره قلم الراغب الأصفهاني في كتابه «محاضرات الأدباء» وما حرّره غيرهما من الظرفاء في كتبهم وتصانيفهم.

وما من ريب في أن هذه الجاذبيات مجتمعة قد جعلت من شخصية العالم الأديب الظريف الأستاذ أبي القاسم كرو شخصية محورية في كل مكان يحلّ به للمشاركة في الملتقيات والندوات، بحيث كنتُ ألحظ دومًا أن الزاوية التي كانت تغص وتكتظ باجتماع الضيوف وأساتذة الوفود في الأَبهاء المختلفة في محافل الندوات وتحفل بكثرة العلماء الظرفاء، إنما هي الزاوية التي يكون الأستاذ أبوالقاسم محمد كرو واسطة عقدها، وجذيلها المحكَّك حيث يتحلق به فيها الأدباء وعاشقو التاريخ وناشدو الدعابة وطرائف الحقائق وروائع الظرف والملح والمعارف.

والحق الذي أريد توكيده في هذه الشهادة العجلى، أنه راقني من هذا العالم الأديب الظريف خلالٌ زاكيةٌ متعددة في المنهج والسلوك، وفي أسلوب حياته ومعاملته، أرى من

الإنصاف أن أنثر في هذا المقام جملة من جواهرها المتألقة، ويكفي من القلادة ما أحاط بالعنق. فقد راقني من هذا الأستاذ الذي طال بحمد الله عمره وحسن عمله؛ اجتهاده الدائم منذ طفولته وصباه، وجلده الذي لا يكلُّ ولا يمل في التحصيل والأخذ والقراءة والكتابة الموصولتين، وما عرفناه فيه من التنظيم الدقيق في احترام العمل والوقت، الذي يحرص في صرامة على استثمار دقائقه وساعاته، وربما كان هذا المظهر الحضاري سرّاً من أسرار نجاحاته الكثيرة في كثرة التأليف وتحرير المقالات والبحوث حتى لقد بلغت مصنفاته أكثر من خمسين كتابًا، كما جعله مكتبة حافلة متنقلة، زيادة على ما اشتهر به من تبريزه في ما أسند إليه من مهام ومسؤوليات، وشرف به من عضويات وفاعليات، وراقتني فيه هذه السماحة والتلقائية المحبَّبة التي أسرت قلوب عارفيه من الأودّاء في المشرق والمغرب. فهو مع المعهود من علمه وأدبه ومكانته، وما اختزنته حافظته وذاكرته من حقائق ورقائق، يتألف ولا يتكلّف، يتحدث بصوت طبيعي خفيض، ولا يؤثر التصعيب ولا يحدث نفسه بالتصنع في السلوك، وبالتوعّر والتقعر في الكلام، وراقني فيه كما راق لغيري من خلائقه حبُّهُ بناء الجسور لتواصل الأجيال، فقد عهدناه يحدبُ أشد الحدب على شُداة الأدب، وناشئة الكتّاب والمثقفين، يفسح المجال لظهورهم وبروزهم، ويعمل على تزكية النابهين منهم، وتمهيد السبل أمامهم ليكونوا فسائلَ جديدة نافعة واعدة في حقول الثقافة العربية والإسلامية، وليس بخافٍ أن ثمة عشرات من العلماء وأساتذة الجامعات والكتّاب والصحافيين اليوم في تونس والبلاد العربية، كان الأستاذ أبوالقاسم كرو وراء شهرتهم من قبل ومن بعد.

ونحن إذا سلَّمنا جدلاً بما قرَّره أستاذنا الناقد الكبير الدكتور خليفة محمد التليسي – صديق الأستاذ كرو من أن الشاعر المبدع أبا القاسم الشابي كان أول من أسكن الشعر في تونس وفي شمالي أفريقيا بعامة[1]، فإننا ينبغي أن نسلم أيضًا بأن أبا القاسم كرو كان بلا ريب من وراء شهرة هذا الشاعر التونسي العظيم والتعريف بحياته وشعره وأدبه في بلاده والبلاد العربية منذ أن كتب عنه في سنة ١٩٤٩ إلى الآن كتبه الخمسة المعروفة،

(١) لا خلاف في أن أستاذنا الدكتور التليسي كان من أوائل من عرفوا الشاعر التونسي أبا القاسم الشابي في سنة ١٩٥٠م.

وأكثر من مائة وخمسين مقالة وبحثًا ومحاضرة، وختمها بإشرافه المشرِّف على إصدار موسوعة الشابي في مجلدات برعاية مؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين البابطين للإبداع الشعري.

ولا أختم كلمتي الشهادة هذه، وأنا أجلو أيادي الأستاذ في مساعدة الأدباء وناشئة الأدب وشداته ومساندته لإبراز مواهبهم قبل أن أذكِّر بآخر أياديه وأفضاله التي تؤَّج بها خواتيم حياته المباركة والمتمثلة في سخائه النادر حينما أهدى بأريحيته مكتبته الحفيلة ورصيدها الضخم الذي جمعه طوال حياته «والجود بالروح أقصى غاية الجود» كما قال الشاعر، إلى جامعة منوبة لتنتفع بها الأجيال الحاضرة والقادمة وتفيد من مظانها المختارة، ووثائقها المنتخبة المفيدة.

حقّاً لقد كان الأستاذ أبوالقاسم محمد كرو كما ذكرنا في طالعة هذه الكلمة كالشجرة الطيبة المباركة الوارفة الظلال الوفيرة الأزهار المكسوة بالخضرة والثمار، وهذا ما أكبر الأستاذ كرو في نفسي التي ملأها إعجابًا بعلمه وأدبه وتواضعه وحبِّه الدائم الحاني على الأجيال العالمة الواعدة، فإلى مقامه الكريم وهو يحتلُّ من الإعزاز المكان الأرفع. تحيتي وتقديري وتمنياتي له بالسعادة والهناء.

****

مع الأديب المغاربي الأستاذ أبوالقاسم كرو

أ. د. نجاة المريني(*)

يبدو أن الحديث عن بعض الأعلام ممن لهم حضور في الساحة الثقافية له أبعد حضارية، ولمسة وفاء خلقية في عصر الشغل والانشغال والفتنة والاضطراب، إذ لوّنت العولمة الفضاء بزخارفها وكست بأرديتها مجالات اقتصادية وثقافية، لتفيد بجدواها وحضورها وضرورة اعتبارها كونية في عصر القهر والاستبداد والظلم والاستعباد.

منحى حضاري يسعى إلى تكريم نخبة من الأدباء والمفكرين، ويلم شمل كلمات باحثين في الاعتراف بما لهؤلاء الأدباء من عطاء، حيث ساهموا بكتاباتهم في تنوير الأذهان وتفتيق الأفكار وتعبيد الطريق لمن سيأخذون المشعل فيما بعد، ويساهمون بما سيحبرون من كلمات وكتابات في الارتقاء بالفكر العربي وفي الاعتزاز باللغة العربية لغة القرآن ولغة الأمة العربية منذ قرون بعيدة.

الأستاذ أبوالقاسم محمد كرو من الأدباء المغاربيين الذين زوّدوا المكتبة العربية بمؤلفات عديدة في ميادين مختلفة منها ما تعلق بالكتابة عن الأعلام ومنها ما تعلق بالكتابة عن الأوطان واستقلالها، وعن اليقظة السياسية وأدوارها في تحرير البلاد والعباد، ومنها ما تعلق بالمواقف الإسلامية أو غيرها من الموضوعات الشائكة التي تناولها قلمه بجدية ووضوح، وهدوء وبيان.

تتميز كتابات الأستاذ كرو وهي تتناول تراجم الأعلام الرواد أو الأعلام المنسيين بالدقة والعمق، وإن كان يعتذر في بعض الأحيان بقلة المصادر وشحّ المعلومات، وبهذا

(*) أكاديمية مغربية من مواليد عام ١٩٤٧، تدرِّس بكلية الآداب بجامعة محمد الخامس في الرباط، ولها عدة مؤلفات.

العمل يقدم خدمات كبيرة للفكر العربي وللإنتاج الأدبي، فلا نراه إلا مكبّاً على العمل مستحثّاً ذاكرته على الاستيعاب والتحصيل وقلمه على التسجيل والتحبير، هدفه تخليد ما علق بالذهن سنوات، وما رسمه القلم وهو يناضل بحمية الشباب ورباطة جأش العقلاء في سوح الكتابة والتأليف، فأمتعنا وأفادنا وأطلعنا على نبضات فكر وقبسات قلم، فالثقافة هي المرفأ الذي ترسو عنده سفن الباحثين والأدباء وغيرهم ممن يشغله أمرها من العامة والخاصة في الوطن العربي والعالم الإسلامي، وكما يقول الأستاذ كرو في كتابه «حصاد العمر ٦/٢٢٤: الثقافة هي الميدان الوحيد الذي يساعد على تحقيق الوحدة بأوسع مما تستطيعه الميادين الأخرى».

وعندما يسعى الأستاذ كرو إلى المساهمة الجادة في الحياة الثقافية العربية، فإنه لا يغفل توثيق معلوماته أو كتاباته المتنوعة أو حواراته في المجلات مما يدعو إلى الإعجاب بقدرته على المتابعة والتوثيق فلا يفوته سنة ١٩٩٨ أن يقدم لنا في ستة مجلدات ضخمة عنوانها: «حصاد العمر» عصارة فكره ونتاج قلمه في طباعة أنيقة مغرية بالاستفادة والمتعة، ففي هذا الحصاد يكتشف المرء الأستاذ كرو صاحب الاهتمامات المتعددة والكتابات المتنوعة، كاتبًا حريصًا على تقديم نفسه للقارئ أينما كان وكيفما كان، لقد بذل جهدًا كبيرًا وهو يجمع مقالاته وحواراته باعتبارها شاهدًا على فترات حياته منذ أن امتشق القلم سلاحًا في حياته الأدبية، ومنذ أن اختار الخوض في غمارها مساهمًا في تطويرها وفي الارتقاء بها منذ سنوات الدراسة والتحصيل.

يتميز الأستاذ كرو بالاهتمام بالقارئ كلما أراد خط كلمة أو طبع كتاب، ليساعده على القراءة، ويغريه بالمتابعة، ويشحذ ذاكرته لتسجيل المعلومات منبهًا، بطريقة ذكية، إلى أن القارئ هو هدف كل كتابة، وأن نجاح الكاتب يكمن في حسن التلقي، بجميل الأداء وحسن التبليغ، ففي المجلد الأول من «حصاد العمر» ص ٨ يتحدث الأستاذ كرو عن موضوعات مؤلفه بمجلداته الستة وكأنه يساعد القارئ على الإقبال على المادة التي يرغب في قراءتها، ولعل ما يثير الإعجاب هو الحرص على تدوين كل الموضوعات بما لها وما

عليها، ففي المجلد الأول من هذا المؤلف وعنوانه «حصاد الكفاح» ص ٨ يقول عن موضوعاته: «أما الجزء الثاني من «حصاد الكفاح» فهو ينشر لأول مرة ويحتوي على «إضمامة الذكريات» كما كتبها أصحابها عني، وإن سميتها «كلمات للذكرى» من هذه الكلمات شهادةُ باحثةٍ كتبتها سنة ١٩٥٠ منوهة بالأستاذ كرو جاء فيها: «عرفت الأخ روحًا ونفسًا دون أن أراه، ثم مرّت الأيام ثانية، وقربتني من هذا الفيض الأدبي، وتعرفت به، فماذا وجدت؟ وماذا رأيت فيه؟ وجدته فكرًا متوقد المعرفة واسع الثقافة في كل مناحيها، فكرًا إذا استمعت إليه وجدت البعد عن فيضه صعبًا ووجدت شيئًا يدفعك للاستزادة».

لا شك في أن أبا القاسم كان معتزًا بما كتب عنه في سنوات بعيدة، وهو بعد في أول الطريق، فلملم شتات هذه الكتابات، تقديرًا لأصحابها وإن اختلفت آراؤهم في كتاباته بين مؤيدٍ ومعارض، نوه به الأستاذ دعبل محمد جواد سنة ١٩٥٢ في كلمات مختصرة لكنها أدت معاني كثيرة، يقول: ٣٧٨/١: «يعجبني في أبي القاسم – أخي – شيئان قلَّما وجدتهما مجتمعين في سواه: جهاده وصبره من جهة وحسه الأدبي المرهف من جهة ثانية: ففي هذا التنويه ما يدعو إلى البحث عن شخصية أبي القاسم في مؤلفاته العديدة: نجده باحثًا متتبعًا متقصيًا الأخبار في مصادرها، صبورًا على مشقة البحث والتنقيب، وهي ذات ألوان وطعوم لا يعرفها إلا من أصابته حرفة الكتابة وحرفة الأدب، كما نجده صاحب حسٍّ أدبي مرهف في أخيلته وتعابيره، في صوره وأساليبه، يقول موجهًا الخطاب إلى الشاعرة العراقية مقبولة الحلي ١٥١/٣: «إن السعادة ليست حلمًا تحققه الأيام، وتضعه الأقدار بأيدي ناشديه بل السعادة مثل أعلى ننشده، ومسعى نبيل نهدفه وغاية نمشي لها بنفس تتدفق حيوية وتزخر ثباتًا وبقلب يطفح بشرًا، ويفيض جَلَدًا وإيمانًا، فعلام إذن تتركين نفسك – في زهرة العمر – طريحة اليأس فريسة للأحزان؟ ولماذا تنوحين بأنغام الألم والحرمان بدل أن تغني أنغام الشباب المرحة، وأناشيد الفتوة الضاحكة؟ ألأن الخداع شريعة الوجود؟ والغدر دستور البشر؟ أم لأن النفاق والرياء، والكذب والخيانة، عملة رائجة عند الأدنياء، يبتاعون بها القلوب الخافقة والميول الهائمة».

لقد أبدع أبوالقاسم نصّاً جميلاً أبان فيه عن حسِّه الأدبي المرهف وعن تفاؤله بالدعوة إلى جهاد النفاق والخداع والصبر على كيد الأعداء ورياء الأغبياء بلغة واضحة وصور قريبة.

ولعل جهاد الكلمة ورقة الإحساس عنصران كما أشار إلى ذلك الكاتب العراقي منذ ما يقرب من ستين سنة، وقد بقي وفيّاً لهذين العنصرين في كل كتاباته على تنوعها وتعدُّدها. وأما الأستاذ فيصل حسون فقد كتب إليه سنة ١٩٥٢، ٣٦٨/١ يقول: لقد كنت أجادلك، وألج في الجدال، حتى لتحسبني أخالفك الرأي، وأسفِّه ما تذهب إليه، ولكن الواقع هو غير ما كنت تظن، فقد كان يروقني كثيرًا أن أجدك تندفع في محاججتي وإفحامي، وبذلك وحده كان قلبي يعرف الطمأنينة إلى أن في أبناء هذه الأمة من لا تزال آمالنا وأمانينا أمانة في أعناقهم، وأنهم سيناضلون عنها ويكافحون من أجلها».

وجاء في قصاصة جريدة الحرية التونسية بتاريخ فبراير ١٩٩٥ في ركن «ملامح» ٤٩٨/١: «يتعب الكل، ولا يتعب هو.. رجل نذر نفسه وحياته للقلم والفكر والذاكرة.. راحته يجدها في إبداعه وفي تحقيق الإضافة... أحب الشابي كما لم يحبه أحد غيره، وكان أول من كتب عنه ولحن آثاره وأحب قفصة، مسقط الرأس ومرتع الصبا والشباب، فنقب عن كل تاريخها وأحب ابن خلدون، فكان أول تونسي يكتب عنه .. أصدر سلسلة (كتاب البعث) فخدم بها الثقافة التونسية كما لم يخدمها أحد سواه ثم أصدر مجلة الثقافة فكانت صوتًا مختلفًا عن السائد».

وعندما يعنى الأستاذ كرو بالكتابة عن المرأة تنتصب المرأة العراقية شامخة بقامتها في التحرر من قيود الجهل والتحرر من قيود التبعيّة، وسيبهره فترة إقامته ببغداد أواخر الأربعينيات ما للمرأة العراقية من حضور لافت للانتباه لا يفوقه إلا حضور المرأة المصرية في الساحة الفكرية والأدبية والسياسية، فكانت هذه المرأة صورة مشرقة للمرأة العربية وهي تخط طريقها نحو التألق في الحياة العامة.

يشغل الحديث عن بعض الشاعرات العراقيات الجزء الأول من المجلد الثالث من (حصاد العمر) ويختار لهذا المجلد عنوانين: شاعرات عراقيات، وفي الشعر والشعراء،

يقول الأستاذ كرو ٨/٣: «في العراق شواعر نابغات يقفن بحق إلى جانب عدد ليس بالقليل من شعراء العرب المعاصرين.. وعدد الشاعرات العراقيات لا يقل عن عشرة يمكن للدارس أن يقف على آثارهن وأن يجد فيها متعة رفيعة للنفس والقلب والشعور».

من الشاعرات العراقيات سلمى الملائكة أم نازك، يعجب بها الأستاذ كرو ويثني على جرأتها وشجاعتها في توجيه اللوم إلى الضمير العربي الغائب بعد أن استعمر المستبد الأراضي الفلسطينية، وينوه بانصرافها إلى تصوير الواقع المفجع لأبناء فلسطين، فهي «تبكي في أشعارها مصير شعب كامل قضت عليه المؤامرات والدسائس وأيضًا السلبية والاتكال، ويجد في قصيدتها «جراحنا الدامية» روحًا عالية من الإحساس القومي المستنير ومن الشاعرية الفياضة التي تلتقي مع الاتجاه السديد الذي ينبغي أن يسير عليه شعرنا الحديث» ومن الشاعرات اللائي خصهن بحديث مثمر نازك الملائكة ولميعة عباس ومقبولة الحلي، مستشهدًا بنماذج مختارة من أشعارهن، فمن شعر نازك الملائكة في تصوير معاناة المعذبين في الأرض أو الأشقياء في الكون: ٤٥/٣

أنـــا من غـــنّت دمـــوعَ الأشـــقـــيـــاء
وبـــكت أشـــعـــارهـــا.. لـلأبـــريـــاءِ
كَمْ صـــريعٍ قَـــبْـــرُهُ ثـــلجُ الـــشَّـــقَـــاءِ
ويـــتـــيمٍ مَـــهْـــدُه شـــوكُ الـــعَـــراءِ
وصَـــبـــايـــا كَـــرَعَتْ سُمَّ الـــقـــضـــاءِ
قـــبلَ أنْ تـــرشفَ كـــأسًـــا من هَـــنـــاء
صُـــغْتُ أحـــزانَـــهُمُ لحنَ شـــقـــاءٍ
هـــو أحـــزاني .. وحـــبِّي ووفـــائي

ويقول عن لميعة عباس «شاعرة شابة، في شاعريتها طاقة فنية ومقدرة فائقة للتعبير عن آلام النفس وأحزان الحياة، في شجاعة نادرة وصبر قوي، في شعرها عمق الإحساس وحرارة العاطفة، وقوة الاحتمال ومأساة الإنسان، في مصائبه ومحنه، وهذا ما يضفي على شعرها عذوبة مفعمة بالروح الإنسانية والتشوف المثالي النبيل» ١٢٨/٣.

ويحضر المغرب العربي في كتاباته بصورة واضحة وبدفاع مستميت عن حرية

الأوطان وتقدير لجهود المناضلين في المغرب والجزائر وتونس يندد بالمستعمر وجبروته، ومكره وطغيانه يقول ١٨٣/١: «إن العربي الذي يهتف باستقلال تونس أو الجزائر أو مراكش يلقى به في غياهب سجون مظلمة، ويلاقي شتى أصناف التعذيب والتنكيل، وقد حاولت حكومة فرنسا في السنة الماضية إصدار تشريع يحرم (التلفظ) بكلمتي (الحرية والاستقلال) في أقطار المغرب العربي (فقط) وعلى العرب (وحدهم).

ويتحدث الأستاذ كرو عن نضال حرب الاستقلال في المغرب فيقول: ١٩٦/١: «ورغم حركات التنكيل والاضطهاد والعدوان والبغي التي قام بها الفرنسيون ضد أعضاء حزب الاستقلال وضد قادته، إذ أبعدوا القادة إلى الصحارى وإلى جزيرة كورسيكا، وكان (علال الفاسي) يومئذٍ لا يزال سجينًا في الغابون، وقامت السلطات الاستعمارية بحملات إجرامية فظيعة ضد أبناء الشعب الذين أخذ هياجهم وتأييدهم لحزب الاستقلال ووثيقته يزداد قوة وعنفًا، كلّما ازداد الاضطهاد والطغيان، مما شكل خطر الثورة التي دامت متأججة جامحة مدة شهرين كاملين» ويختم حديثه قائلاً: «الحياة لك يا مراكش والخلود لأبنائك والموت للاستعمار واللعنة على المستعمرين».

أما الجزائر التي احتلت سنة ١٨٣٠ فهي حاضرة في كتابات الأستاذ كرو يتابع أخبارها ويندد بالمستعمر الظالم يقول ١٤٢/١: «لقد قاوم الشعب الجزائري في كل مكان الغزو الفرنسي ببسالة نادرة وشجاعة لا مثيل لها... إن ثورة الجزائر مثل عشرات الثورات السابقة واللاحقة كرد فعل عما ارتكبه الاستعمار من اضطهاد وتنكيل بالشعب العربي في الجزائر، ولما يفرضه من ميز عنصري في سياسة العباد وإدارة شؤون البلاد».

أما عن احتلال تونس فهو كما يقول: «١٥٠/١: «مأساة فظيعة أخرى، نكبة جديدة حلّت بالمغرب العربي بحلول شهر مايو من سنة ١٨٨١ حيث أجهز الاستعمار الفرنسي على الشعب التونسي، لكن الشعب التونسي لم يخلد إلى السكينة ولم يخضع للواقع المفروض والأوضاع الذليلة بل قاومها جميعًا وثار عليها كلها».

لقد أكد الأستاذ كرو بكتاباته المتنوعة انفتاحه على عالم الكتب وعلى عوالم الأدباء

والشعراء قارئًا وباحثًا ومشاركًا، لم تصرفه الأحداث السياسية التي عرفها الوطن العربي عن الكتابة والتأليف، ولم تصرفه الكتابة عن الانشغال بهموم الوطن العربي بل والمشاركة في الحركات التحررية التي كانت تندد بالاستعمار في تونس والمغرب والجزائر ومصر وسورية والعراق، فناضل كغيره من الشباب الثائر في واجهات متعددة أهمها توعية الشعوب العربية بأخطار الاستعمار وويلاته، داعيًا إلى الصمود والمقاومه، عاملاً على خدمة أمته وبلاده من المحيط إلى الخليج، معتزّاً بمواقفه النضالية عبر مراحل حياته، مؤمنًا بانتصار الحرية والعدالة مهما طال الزمن، متحديًا بإرادة صلبة ما يقوم به المستعمر من استغلال للبلاد واستعباد للعباد إذ يرى بأن تغيير الواقع الفاسد هو أبرز محطة لبناء واقع سليم «ينبض بالحياة ويفيض بالخير والرفاه، ويحقق للمواطن العربي حريته وكرامته، ومستوى رفيعًا من الحياة السعيدة، في ظل دولة عربية واحدة» ١/٢٠٥.

لقد شكلت كتابات الأستاذ أبي القاسم محمد كرو في مجملها أنماطًا من فنون القول وألوانًا من الأجناس الأدبية فهي تتناول المقالة الوطنية والسياسية والاجتماعية وتراجم الأعلام المنسيين والمعروفين، وما سجله قلمه تعريفًا بمؤلفات أعجب بها فقدمها لقرائه إغراء لهم بقراءتها والاستفادة، منها، وما كتب عن مدن زارها وأعجب بها، وهي ذات بصمات متميزة في التاريخ الإسلامي إضافة إلى ما كتبه دفاعًا عن الثقافة العربية في عصر الاستبداد والطغيان إلى غيرها من الموضوعات. وبصفة عامة فالأستاذ كرو من الأعلام العرب والمغاربيين الذين ناضلوا بأقلامهم وكتاباتهم في سوح ممتدة من المحيط إلى الخليج بروح وطنية صادقة وحب دافئ يعطران الأجواء في كل مكان وزمان.

أما الأستاذ كرو الإنسان فلا يمكن للمرء إلا أن يحتفي به في وطنه وخارج وطنه، فهو ذو شخصية منفتحة على الآخر، يبدي استعدادًا لمعرفة كل من التقى به في ندوة علمية أو مؤتمر أدبي، اجتماعي بطبعه، متواضع في تعامله، أخلاقه دمثة وهمته عالية يفيدك بهدوء ويبدي النصح برفق، يبني علاقاته مع الآخر بسرعة كلما توسم فيه خيرًا ومروءة وعلمًا وإفادة فيقبل عليه بمرح وانشراح، ويسأل عنه إن بعدت المسافة كتابة أو مهاتفة، أسعدني الحظّ بالتعرف إليه في المغرب وفي تونس في ندوات علمية وأدبية

فاستفدت من تجربته وعلمه وحرصت على مداومة الاتصال به كلما أتيحت الفرصة لذلك، وكان لدماثة خلقه لا يبخل بالسؤال ولا بإهداء كتاب، ومن ثم كان تبادل إهداءات الكتب متصلاً بيننا مباشرة أو عن طريق البريد، خاصة وأنه صاحب مؤلفات أثارت نقاشات حادة أحيانًا ولقيت قبولاً طيبًا حينًا آخر، وقد عملت على تقديم بعض إنتاجه إلى القارئ المغربي في جريدة العلم المغربية، فلقيت استحسانًا عنده مما يؤكد تواضعه وحسن تشجيعه لكل كتابة اتفقت معه أو اختلفت، وهذا سلوك حضاري يُحلِّه مكانة متميزة في الأوساط الثقافية وغيرها، وبذلك يدعو إلى التعارف بطريق أو بآخر، وتكسير الفجوة بين الكتاب والمبدعين في المشرق أو المغرب.

كيف نجح الأستاذ كرو في اختراق المسافات مع مجايليه وأصدقائه وطلبته، كيف نجح في الحفاظ على علائقه الممتدة في كل قطر عربي؟ يصعب تحديد جواب لتعدد الأجوبة، فهو يجهد في ربط علاقاته مع أصناف عديدة من الباحثين والمثقفين. مع كبار السياسيين والزعماء مع الطلاب النجباء والصحفيين اللامعين، يحرص على الحفاظ عليها وعلى تمتينها في كل وقت، ومن ثم اكتسب عالمًا متميزًا من الأصدقاء المتعددي المشارب والمختلفي الانتماءات في وطنه تونس أو خارجه في أقطار عربية كثيرة منذ فترة الشباب الأولى وهو طالب بالعراق مرورًا بالمناصب الثقافية التي تقلدها إلى أن أحيل على التقاعد اليوم.

وخلاصة القول فالأستاذ كرو ممن التأم حوله شمل أصدقائه ومريديه، وطلبته ومحبيه، ومن ثم دعت مؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري في دولة الكويت إلى تكريمه والاحتفاء به، والحديث عن خصاله الخلقية وأعماله الأدبية، ولملمة ما سيخصُّ به من دراسات وشهادات في كتاب تكريمي يبعث الدفء في أوصال المحتفى به ويزيد تنويهًا بالمؤسسة وصاحبها وما له من أياد بيضاء على نشر الثقافة العربية، وتشجيع المثقفين في الوطن العربي على الكتابة والتأليف، فللمؤسسة خاص التقدير وجزيل الشكر، ولمؤسسها وراعيها الأستاذ عبدالعزيز سعود البابطين المزيد من التوفيق والسداد في مشاريعه ومنجزاته، وأدام الله عليه نعمه ظاهرة وباطنه، لينتظم عقد جهوده قلادة في جبين المشروع الثقافي العربي من المحيط إلى الخليج.

لمحات عن العلامة:
«أبــو القاسـم محمــد كــرُّو»

أ. هلال ناجي(*)

(١)

ولد العلامة أبوالقاسم محمد كرو بمدينة «قَفْصَة» التونسية في الأول من تموز عام ١٩٢٤. وقَفْصَةالمدينة العربية الأصيلة الموغلة في أعماق «الجريد» التونسي، كانت ومنذ القديم موطن الشجعان المتمردين على السلطان.

قال ابن حوقل: قفصة مدينة حسنة ذات سور ونهر أطيب من ماء قسطيلية.. قال وأهلها وأهل قسطيلية والحمَّة ونفطة وسماطة شُراة متمردون من طاعة السلطان.

ويقول ياقوت عنها: هي بلدة صغيرة في طرف أفريقية[١] من ناحية المغرب من عمل الزاب الكبير بالجريد بينها وبين القيروان ثلاثة أيام... يشتمل سورها على ينبوعين للماء؛ أحدهما يسمّى الطرميذ والآخر الماء الكبير، وخارجها عينان أخريان إحداهما تسمى المطويَّة والأخرى بيّش، وعلى هذه العين عدة بساتين ذوات نخل وزيتون وتين وعنب وتفاح، وهي أكثر بلاد أفريقية فُستقًا ومنها يحمل إلى جميع نواحي إفريقية والأندلس وسجلماسة وبها تمر مثل بيض الحمام. وتميز القيروان بأنواع الفواكه.. وقد قسم ذلك الماء على البساتين بمكيال تُوزَنُ به مقادير شربها معمولة بحكمة لا يدركها الناظر لا يفضل الماء عنها ولا يعوزها، تشرب في كل خمسة عشر يومًا شربًا، وحولها أكثر من مائتي قصر عامرة آهلة تطرد حواليها المياه تعرف بقصور قفصة، ومن قصور قفصة مدينة طرَّاق وهي مدينة حصينة أجنادُها أربابها لها سور من لبن عالٍ جدًا طول اللبنة عشرة أشباب، خرّبه

---

١ - أفريقية: الاسم القديم لتونس.

٢ - يوسف بن عبدالمؤمن: إمبراطور الموحدين.

٣ - معجم البلدان: ياقوت بن عبدالله الحموي - بتحقيق فردينان وستنفيلد - لايبزغ ١٨٦٩ ١٥١/٤ - ١٥٢.

(*) محقق وشاعر وباحث عراقي من مواليد القرنة عام ١٩٢٩م، انتخب رئيسًا لاتحاد الكتاب العراقيين عام ١٩٧٣، له العديد من الدواوين الشعرية والأعمال الإبداعية والمؤلفات تقارب المائة عمل إبداعي، فاز بالعديد من الجوائز. وكتب عنه وعن آثاره أكثر من (١٠٠) دراسة جمعت في كتاب تذكاري.

يوسف بن عبدالمؤمن[٢] حتى ألحقه بالأرض لأن أهلها عصَوْا عليه مرارًا..[٣].

والعلماء في القرون الحديثة يؤكدون أثر البيئة الكبير في تكوين شخصية الفرد وسيرته، وحين يكون هذا الذي نحتفي به قد ولد ونشأ وترعرع وشبَّ عن الطوق حتى بلغ العشرين من سنيه حين غادر «قفصة»، ندرك على الفور واحدًا من أسرار ثوريته وتأبّيه وطموحه.

فموطنه موطن «الشُّراة» وهم من أشد الخوارج صلابة في التاريخ، كذلك فإن مسقط رأسه هذا ثار مرارًا على امبراطور المغرب السلطان يوسف بن عبدالمؤمن رافضًا السلطة المفروضة عليه من خارج تونس.

وبعد أربعة أعوام قضاها في الدراسة بالزيتونة في العاصمة تونس، نرى هذا الشاب الطموح الثائر يبحث عن بلد يستكمل فيه علومه، فيقصد مصر أولاً في بواكير عام ١٩٤٨ ثم ينتقل في أواخر العام ذاته إلى العراق في أول بعثة تونسية أرسلها مكتب المغرب العربي في القاهرة.

وإذ دخل هذا الشاب العربي المتمرد الطموح وطنه الثاني – العراق – وجد فيه ما يوافق هواه، فبغداد تغلي كالبركان، كانت هناك محاولة لربط العراق بعجلة الامبراطورية البريطانية بمعاهدة سميت معاهدة «بورتسموث»، استطاع الشعب العراقي بمظاهراته المتلاحقة وتضحياته الجمة وتكاتف الأحرار فيه، إسقاطها وإسقاط الوزارة التي جاءت بها[١] وكان قرار تقسيم فلسطين وما تبعه من أحداث وهزيمة الجيوش العربية وفضائح الأسلحة الفاسدة، وراء غليان شعبي عارم، لم تجد السلطة سبيلاً لكتمه إلا بإعلان الأحكام العرفية العسكرية وفتح أبواب السجون والمعتقلات، في تلك الظروف الرهيبة حين كانت هناك معارضة منظمة لها صحفها وأقلامها وشعراؤها وكتابها وخطباؤها وقادتها، في تلك الظروف الرهيبة، جاء هذا الثائر التونسي إلى بغداد، فاعتنقت في نفسه ثورتان، ثورة جرت في دمائه وحملها معه في أعماقه من «قفصة» المتمردة عبر التاريخ، وثورة جارفة تموج بها الساحة العراقية يعيشها ويحياها كل يوم، التحق بدار المعلمين العالية التي كان يدرس فيها جمهرة من أعلام الأدب والفكر ممن ظلَّت أسماؤهم أعلامًا مضيئة في تاريخنا الفكري المعاصر أمثال الدكاترة: مصطفى جواد ومحمد سليم النعيمي وطه

١ – هي وزارة صالح جبر التي أسقطتها وثبة كانون.

الراوي وكمال إبراهيم وجميل سعيد وعبدالرزاق محيي الدين، بل إنها الكلية التي درَّس فيها علمان مصريان شامخان هما: زكي مبارك وأحمد حسن الزيات قبل ذلك بسنوات.

وبسبب من حدة ذهن صاحبنا ونشاطه الدؤوب وثوريته التي لا تعرف كللاً ولا مللاً، فقد شدَّته إلى جمهرة نابهة من شعراء الشباب القوميين الثائرين آنذاك صلات مودة وتآلف، بعد إذ ضمهم مسار فكري واحد يتلخص في إيمانهم بوحدة الأمة العربية وبوحدة الوطن العربي الكبير، وكان كاتب هذه السطور من بينهم.

ولست أعدو الحقيقة إذا قلت إن نشاطه لوحده – في ما كتب للصحف العراقية والعربية والإذاعات، وفي ما ألقى من محاضرات – خلال أربعة أعوام، كان بحق يوازي عمل سفارة للمغرب العربي الكبير في بغداد، بل يزيد عليها، يوم لم تكن لدول المغرب العربي سفارات في بغداد، إذ لم تكن قد نالت استقلالها بعد، فمن خلال ما كتب وأذاع وحاضر، كان يجلو الحقائق بذهنه الوقَّاد ويحشد المشاعر ويعبئ القوى لنصرة قضايا التحرير في المغرب العربي الكبير، وليطلع العراقيون وهم في أقصى المشرق على المآسي التي كانت تجري في المغرب العربي الكبير على يد جلاديه من المستعمرين الفرنسيين.

لقد نجح ثائرنا الشاب رغم طراوةِ عوده إلى عرض صور من تاريخ الكفاح القومي في المغرب العربي الكبير وكشف ألوانًا من الظلم والعسف والإرهاب والوحشية التي قام عليها الوجود الاستعماري الفرنسي في جناح العروبة الأيسر – على حدّ تعبيره – وكانت محاضرته التاريخية الشهيرة المعنونة «ماي شهر الدماء والدموع في المغرب العربي» والتي ألقاها في نادي البعث العربي ببغداد مساء الخميس الموافق العاشر من مايس ١٩٥١ من أخلد محاضراته عندنا[١].

وحين أعاد طبع الكتاب بعد خمسة أعوام في تونس، كانت الأوضاع السياسية في

١ – طبعت هذه المحاضرة في بغداد سنة ١٩٥١ ثم طبعت في كتاب مستقل في تونس في ماي ١٩٥٦.

تونس ومراكش (المملكة المغربية) قد تغيرت ونالا استقلالهما، لكن الثورة الجزائرية كان قد بزغ فجرها في جبال الأوراس، فكان لثائرنا المحتفى به موقف جدير بالإشادة أكده في مقدمة الطبعة الثانية، إذ دعا إلى دعم ثورة الجزائر لأنها تشكل مع تونس ومراكش وحدة تامة تاريخيّاً ودينيّاً وثقافيّاً واقتصاديّاً، «ومن هذه النظرة الواقعية للمستقبل والمصير وتلك العوامل القومية التي تجمع أقطار المغرب العربي كشعب واحد له تاريخ وآمال وأهداف ومصالح واحدة تتكون واجبات جسيمة ومسؤوليات كبرى، وأنه لا يجوز التفرج على حرب دموية يشنها الاستعمار على جزء من شعبنا العربي ليبيده وينفيه، فالتاريخ لن يرحمنا».

ولقد عبرت مقدمته للطبعة الثانية عن إيمانه العميق بحتمية انتصار الثورة في الجزائر واندحار الاستعمار.

إن هذا الحس القومي الصادق وهذه النظرة المستقبلية المتماثلة كانتا من ملامح شخصية أبي القاسم محمد كرو المتميزة.

وعاد ثائرنا إلى تونس بعد أن أمضى أربعة أعوام في العراق وعامين في ليبيا. عاد ليواصل نشاطه بشكل يثير الإعجاب والدهشة معًا، لقد أدرك بثاقب فكره أن أبرز الثغرات في نهضة المغرب العربي كائنة في عدم انتظام حركة النشر فيه، وأن نتاج أدبائه ومفكريه مجهول ومغمور، فعمد إلى النهوض بمشروع ضخم عُدّ أول مشروع من نوعه في المغرب العربي وهو إصدار سلسلة كتب بعنوان «كتاب البعث» وتحت شعار «فكر وحياة أفضل» صدر أول كتاب منها بقلمه وعنوانه «نداء للعمل» في أكتوبر ١٩٥٥، والكتاب في جوهره ضم محاضرتين أولاهما عن النوادي والجمعيات في العراق ألقاها في تونس العاصمة بإشراف جمعية قدماء الصادقيّة، وعنوان الثانية إمكانياتنا الاجتماعية ألقاها في بنزرت، وكلتا المحاضرتين ألقيتا في شباط ١٩٥٥.

أما المحاضرة الأولى فهي تلخيص لواقع النوادي والجمعيات في العراق الذي ارتسم في ذهنه خلال أيام دراسته الجامعية في العراق، وأما الثانية فقد عرض فيها لمخلفات الاستعمار وعرض للمشاكل التي تواجه التونسيين بعد الاستقلال وأبرزها معالجة

مشكلة البطالة وتوزيع الأراضي على الفلاحين وتوطين البدو الرحل وتأميم الشركات الكبرى وكافة مصادر الثروة العامة وتعديل نظام الضرائب وإحياء الأرض وتعمير البادية في الوسط والجنوب التونسي ومعالجة مشكلة الأمية ومشكلة الطفولة والتشرد والعناية بمشكلة التعليم وخاصة التعليم الثانوي، والدعوة الى تعريب البرامج التعليمية ومعالجة فساد الجهاز الإداري وغير ذلك. إن الذين تسلموا الحكم في تونس بعد إلغاء حكم «البايات» الوراثي، كانوا لا يؤمنون أساسًا بتعريب التعليم، وكانوا يؤمنون بالفرنكفونية وهي اتخاذ اللغة الفرنسية أداة علم وعمل في الدواوين وكل مؤسسات الدولة، وأما العربية فمكانها الشارع والمنزل، وكان بورقيبة الذي تولّى السلطة على رأس هؤلاء الفرنكفونيين، ومن هنا بدأت معاناة الداعين إلى تعريب التعليم في تونس.

السلطات الفرنسية من جهتها سعت إلى أن يكون لها وجود ثقافي ولغوي دائم في مستعمراتها السابقة، ولن يكون ذلك إلا بإبقاء لغتها لغة علم في المدارس والجامعات ولغة عمل في الدواوين والمؤسسات الحكومية، ومن أجل ذلك سنَّت تشريعات من بينها اعتبار الخدمة التعليمية للغة الفرنسية التي يقوم بها فرنسي في تونس لمدة عامين مجزية عن الخدمة العسكرية في وطنه، وهكذا بقي عشرات الآلاف من الفرنسيين في تونس بعد الاستقلال وكانت مهمتهم تدريس اللغة الفرنسية، وظلت هذه اللغة مسيطرة على الأوساط الجامعية في تونس عقودًا بعد ذلك.

إن دعوة العلامة أبوالقاسم محمد كرو إلى تعريب التعليم في تونس حفرت خندقًا بينه وبين ذوي الأمر في تونس منذ ذلك التاريخ.

إن دعوة أبي القاسم إلى تعريب التعليم في تونس والتي أطلقها في بنزرت في (فيفري شباط ١٩٥٥) بشكل بالغ الاختصار والتركيز، عاد إلى توضيحها في محاضرة ألقيت في صفاقس في (أيلول – سبتمبر ١٩٥٥) واستعيدت في بنزرت في شمالي تونس في الشهر ذاته، ثم نشرها في كراس عنوانه «التعليم التونسي بين الحاضر والمستقبل». وفي مقدمة هذا الكراس جاهر بالقول: «بأن السير في تيار الآراء والبرامج الفرنسية خطر على شعبنا وعلى مثله العليا في الحياة، وعلى كيانه وشخصيته. ودعا إلى تعريب التعليم بمراحله الثلاث:

الابتدائي والثانوي والعالي. وإعطاء اللغات الأجنبية مكانة ثانوية في البرامج بعد اللغة القومية، أي أن تكون لغات إضافية يستكمل بها الطالب عناصر ثقافته، وتساعد على مواصلة تعليمه العالي في أوربا، أما جميع مواد الدراسة فيجب أن تكون باللغة العربية».

وعالج في بحثه مشاكل تعريب التعليم بأسلوب موفق من حيث المدرسين والكتب والمصطلحات، وانتهى إلى الدعوة بتأسيس الجامعة التونسية، وبإمكانية ذلك في العام الموالي عن طريق دمج المعاهد العليا القائمة آنذاك ودمج كلية الفلاحة العليا معها. لقد كانت تلك الدعوة القومية في ذلك الوقت المبكر شيئًا خطيرًا يثير الوجود الثقافي الفرنسي في تونس ويؤرقه. وكان أيتام الثقافة الفرنسية أشد الناس عداءً لهذه الدعوة ولصاحبها.

☆☆☆☆☆

وأعود للحديث عن سلسلة (كتاب البعث)، فأقول إن هذه السلسلة واصلت الصدور بمعدل عشرة كتب في العام الواحد حتى دخلت عامها الرابع.. وقد أسهم فيها كبار الكتّاب التونسيين والمغاربة والجزائريين والكاتب المصري المهاجر أحمد زكي أبو شادي (مؤسس جماعة أبوللو) بمصر، ونزيهة الدليمي الكاتبة العراقية. ومواصلة صدور هذه السلسلة في الظروف التي أحاطتها كان يمثل عملاً ثقافيّاً ضخمًا هدفه بعث الثقافة العربية في المغرب العربي، وإذكاء عروبة الجماهير وشدها إلى روح حضارتها وقيم العصر مع الاعتزاز بالتراث العربي الخالد.

وفي هذه الأعوام كانت لأبي القاسم وقفات عند أربعة من أعلام تونس عبر التاريخ: ابن خلدون – الشابي – الطاهر الحداد – خير الدين التونسي.

«خلدون» الابن الثاني لأبي القاسم محمد كرو. وهذه التسمية تعكس مدى حب علامتنا لابن خلدون وإكباره له ولما قدمه لأمته والفكر العربي والعالمي بعامة، وهو يجاري في هذا صنيع المرحوم المفكر القومي الكبير ساطع الحصري. الذي سمى ابنه «خلدونًا» والذي أنصف ابن خلدون من أمته ومن التاريخ، في كتابه الرائد «دراسات عن مقدمة ابن خلدون».

وأبوالقاسم صنف كتابه «العرب وابن خلدون» ونشره عام ١٩٥٦ وأهداه إلى الأستاذ

ساطع الحصري، منصف ابن خلدون. ثم أعاد طبعه ثانية في بيروت سنة ١٩٧١ وثالثة في تونس سلسلة ١٩٧٧ بعد أن ألحق بالطبعتين الأخيرتين ثلاثة فصول تناولت ثلاثة كتب خصَّت ابن خلدون مما صدر بعد الطبعة الأولى.

حدّد أبوالقاسم دوافعه إلى كتابة كتابه هذا، بأن في مقدمتها رغبته في رفع الظلم عن مظلوم ظلمه أعلام أمته قبل غيرها نتيجة الخطأ في فهم تعابيره ومدلول بعض الكلمات في زمنه. ومن دوافعه تألمه البالغ من أقوال «سامي شوكة»[1] في جمهور حاشد ببغداد دعا فيه إلى نبش قبر ابن زيدون وحرق «مؤلفاته!!» وثالثها محاولته ردّ تهمة تتناول تاريخ المغرب العربي كله باتهام البربر بالشعوبية وأن ابن خلدون نشأ بينهم متأثرًا بهذه الأفكار!!

وجوهر الكتاب هو تصويب الخطأ الذي وقع فيه كتاب عرب كثيرون حين فهموا أن كلمة عرب التي استخدمها ابن خلدون في (مقدمته) تعني الأمة العربية، على حين أنه وبقرائن كثيرة كان يعني الأعراب سكان البوادي، وكلمة (التوحش) التي استعملها بمعنى (التبدّي) أو الإيغال في التبدّي وظنها الطاعنون فيه أنها تعني (الوحشية).

لقد ناقش ابو القاسم المطاعن التي وجهها طه حسين وسامي الكيالي وأحمد أمين وسلامة موسى وغيرهم إلى ابن خلدون نقاشًا مفصلاً ودحض غالبية التهم التي وجهوها، وقد كان موفقًا في ذلك غاية التوفيق.

ولي ملاحظات تدعم وجهة نظر أبي القاسم:

أولها: أن ابن خلدون استخدم كلمة (عرب) وهو يقصد (الأعراب البُداة) وأضاف إليهم أمثالهم من بدو المغرب من قبائل زناتة وصنهاجة ومن في معناهم (أي من كانوا بدوًا

---

١ - وللأمانة التاريخية أقول إن (سامي شوكة) هذا من أسرة غير عربية توطنت في العراق، ومع ذلك حاول أن يتزعم حركة الشباب القومي فيه، حتى قال شاعر عراقي فيه:

قل للاكارم من مَعَدٍّ شيخ العروبة «كولمندي»

وكولمند مدينة آسيوية.

مثلهم) من الأكراد والتركمان، فالأعراب وبدو المغرب وبداة الأكراد والتركمان كلهم أقدر على التغلب والاستبداد واستعباد الطوائف لقدرتهم على محاربة الأمم سواهم ولأنهم يتنزلون من الأهلين منزلة المفترس من الحيوانات العجم، (فهم) ليس لهم وطن يرتزقون منه ولا بلد يجنحون إليه فنسبة الأقطار والمواطن إليهم على السواء..»

ابن خلدون دونما شك كان يتكلم عن البدو من العرب والبربر والأكراد والتركمان، ولم يكن يعني بلفظة (عرب) الأمة العربية إطلاقًا، بل (الأعراب) الذين وصفهم الله تعالى بقوله في محكم كتابه: «الأعراب أشد كفرًا ونفاقًا وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله»، يؤكد ما ذكرناه قول ابن خلدون في مقدمته (وذلك أنهم بطبيعة التوحش الذي فيهم أهل انتهابٍ وعبث ينتهبون ما قدروا عليه.. ويفرون إلى منتجعهم بالقفر).

ومعلوم لغةً أن المنتجع هو مكان النجعة أي المكان الذي تسرح فيه إبلهم، والقفر تعني البادية، ولا يمكن أن تعني المصر أو المدينة أو حتى الريف.

وثانيها: أن ابن خلدون على الرغم مما ذكره من صفات هؤلاء (الأعراب) وإدانته لها، عاد في مقدمته فأنصفهم بقوله نصّاً «وهم مع ذلك أسرع الناس قبولاً للحق والهدى لسلامة طباعهم من عوج الملكات وبراءتها من ذميم الأخلاق إلا ما كان من خلق التوحش القريب المعاناة المتهيئ لقبول الخير ببقائه على الفطرة الأولى وبعده عما ينطبع في النفوس من قبيح العوائد وسوء الملكات، فإن كل مولود يولد على الفطرة»[1] فهل رأيت إنصافًا لهؤلاء (الأعراب) البداة أصدق وأجمل من هذا الإنصاف الذي أسبغه عليهم ابن خلدون في تجرد العالم ونزاهة أعلام القضاة؟!

وثالثها: أن لفظة (التوحش) التي وصف بها ابن خلدون (الأعراب) لا تعني الوحشية والتجرد من الإنسانية بمعناها المعاصر عندنا. إنه استخدمها مرادفة للتَّبدِّي أي الإيغال في البداوة، فالذين ألفوا الفلوات والعيش فيها والتنقل في أجوازها تغدو (الوحشة) من الإنس جزءًا من طباعهم، وإلى هذا أشار الحطيئة يصف أعرابيّاً جوادًا صاحب صيد

١ - مقدمة ابن خلدون - المكتبة التجارية الكبرى بمصر ص ١٥١.
٢ - ديوان الحطيئة - تحقيق نعمان أمين طه - مصر ١٩٥٨ - ص ٣٩٦ - ٣٩٧.

ألوفًا للفلوات[٢]:

وطــاوي ثلاثٍ، عــاصبِ الــبَــطْنِ، مُــرْمِلٍ
بــبــيــداء لم يَــعْــرفْ بــهــا ســاكنٌ رَسْــمــا
أخـي جَــفْــوَةٍ، فــيـه من الإنس وَحْــشَــةٌ
يــرى الــبُــؤسَ فــيــهــا، من شــراسَــتِه نُــعْــمَى
تــــفــــرد في شــــعبٍ عــــجــــوزًا إزاءهــــا
ثلاثــةُ أشــبــاحٍ تــخــالُــهمُ بَــهْــمــا
حــفــاةٌ، عــراةٌ، مــا اغــتــذوا خــبــز مَــلَّــةٍ
ولا عــرفــوا لــلــبُــرِّ مــذ خُــلــقــوا طــعــمــا

يقال: أرض وَحْشَةٌ أي قفر، وتوحَّش المكان: خلا وذهب عنه الناس، وبات وحَشْاً وَوَحِشًا أي جائعًا لم يأكل شيئًا فخلا جوفه والوحش والموحش: الجائع من الناس لخلوِّه من الطعام. وتوحَّش جوفُه: أي خلا من الطعام. ويقال للجائع الخالي البطن: قد توحَّش الوَحشَةُ: الخلوةُ والهمُّ[١].

فالتوحش الذي وصف ابن خلدون به الأعراب، هو العيش في الأرض الوحشة أي في البوادي والقفار بعيدًا عن الإنس والأمصار والحواضر، وكثيرًا ما يكون هذا التوحش مرافقًا لخلو البطن، فالتوحش عند ابن خلدون هو التبدي والعيش في الفلوات بعيدًا عن الأمصار، هذا لا يكون إلا للأعراب البدو.

ورابعها: إن لفظة (عرب) تطورَّ معناها عبر الزمن، ففي عراقنا العربي ومنذ قرون تطلق هذه الكلمة في استعمالنا اليومي بمعنى سكان الريف والبادية.

ومعروف أن العراق زاخر بالقبائل العربية التي ما تزال – حتى اليوم – تحمل أسماءها الجاهلية القديمة، فعندنا: الأوس والخزرج وربيعة وطيء وكعب وخفاجة وكِلاب وزبيد وقيس وحِمْير وأسد وتميم وباهلة وخزاعة وشيبان وغيرها كثير.

---

١ – ينظر لسان العرب مادة (وحش).

فكل هؤلاء وسواهم وأبناء المدن عندنا يستعملون كلمة (عرب) بمعنى سكان الريف والبادية وعندما أقول: ذهبت إلى (العرب) فإنما أعني أنني ذهبت إلى الريف أو البادية أو جئت منها، فإذا كان الأمر كذلك في تطوّر معاني الكلمات. فلماذا ننكر على ابن خلدون استخدامه في زمنه كلمة (عرب) وهو يقصد الأعراب سكان البوادي؟! ولماذا نصمه بالشعوبية وهو يصف حتى (الأعراب) بسلامة الطباع وبراءتها مذ ذميم الأخلاق وأنهم أسرع الناس قبولاً للحق؟! وثمة ملاحظات جانبية وددتُ الإشارة إليها استكمالاً لعمل العلامة أبي القاسم، وألخصها في الآتي:

١ – إن كتاب «نقد النثر» الذي حققه ونشره طه حسين وعبدالحميد العبادي منسوبًا إلى قدامة بن جعفر، قد ثبت علميّاً أنه ليس لقدامة، فاسم الكتاب الحقيقي «البرهان في وجوه البيان» ومصنفه أبو الحسين إسحاق بن إبراهيم بن سليمان بن وهب الكاتب من رجال القرن الرابع الهجري، وقد نشر كاملاً في بغداد سنة ١٩٦٧ بتحقيق الدكتورين أحمد مطلوب وخديجة الحديثي بعد الظفر بنسخة كاملة منه، فيستحسن الرجوع إلى النص الكامل الجديد وتصحيح اسمه وتسميته في الطبعة القابلة.

٢ – رأيت الأخ العلامة يثبت نُقولاً من أقوال الثعالبي في فقه اللغة وابن الأثير في «المثل السائر» بالرجوع إلى كتاب المرحوم ساطع الحصري «دراسات عن مقدمة ابن خلدون» وكان الأوثق علميّاً الرجوع إلى هذه النقول في مظانها الأصلية وهي مظان مطبوعة ومعروفة.

وهذه كما قلت ملاحظات جانبية، لا تؤثر في جوهر كتابه الذي أتحف به المكتبة العربية وكشف غاشية الظلم عن عالم جليل هو من الأعلام الراسخين في تاريخ أمتنا وبعد: فما زلت أذكر – أنني في أيام جاهليتي في شبابي – التقيت بشابة فرنسية قادمة من بياريتز – في جنوب فرنسا – وضمنا مقصف من مقاصف لندن، كانت الشابة الفرنسية عميقة الثقافة، من النوع العقلاني الذي يستجيب لعقل الرجل قبل مظهره فسألتني عن قمم الفكر في قومي، فذكرتهم لها وكان من بينهم – ابن خلدون – وفصلت القول في إبداعاتهم وعبقرياتهم، فأعجبها الحديث عن هؤلاء العمالقة وكانت ليلة لا تنسى،

وقد سجلت ذلك في ديواني «مرفأ الذكريات» إذ قلت من قصيدة عنوانها «نيكول كستان»:

ومـــضـــيـــنـــا لمـــشـــربٍ وغـــرقـــنـــا
في حـــــديثٍ عن مـــــوطنِ الأحـــــبـــــاب
ســـألـــتـــني عن قـــمـــة الـــفـــكـــر في قَـــوْ
مِي ذكـــرتُ الـــكـــنـــديَّ والـــفـــارابي
والـــغـــزاليَّ والـــرئـــيسَ ابْنَ سِـــيـــنـــا
وابنَ خـــلـــــدون كـــوكب الأعـــــراب
والمـــعـــري الـــذي تحـــدث جَـــهْـــرًا
قـــبل دانـــتي عن ثـــورة الأقـــطـــاب
في جـــحـــيمٍ مُـــعَـــفَّـــرٍ بـــلـــهـــيبٍ
ونَـــعِـــيمٍ مـــزخـــرفِ الأكـــواب
فـــتـــراءَتْ جَـــذْلى وذابتْ يـــداهـــا
بـــين كَـــفِّي كـــنـــفْـــحَـــةِ الأطـــيـــاب

☆☆☆☆☆

حَـــدِّثـــيـــني يـــا حـــلـــوتي حـــدثـــيـــني
عن عـــيـــون الاشـــعـــار عن الـــفـــرنجَةْ
حـــدثـــيـــني فَـــحـــدَّثتْ عن «دوڤـــيـــني»
رَدَّدَتْ شـــعـــرَه بـــأعـــذبِ لَـــهْـــجَه
تـــرجـــمي لي يـــا حـــلـــوتي تـــرجـــمي لي
وغـــرقـــنـــا مـــا بـــين كـــأسٍ وبـــهـــجه
ولحـــونٍ مـــنـــغَّـــمـــاتٍ وَجَـــوٍّ
شـــاعـــريٍّ يـــثـــيـــرُ في الـــصَّـــخـــرِ مُـــهْـــجَه

☆☆☆☆☆

ويبقى بعد هذا تعقيب موجز على ما ذكره «برنارد لويس» أستاذ تاريخ الشرقين الأدنى

---

١ - العرب وابن خلدون ص ٣٨ - ٣٩.

والأوسط في جامعة لندن في كتابه «العرب في التاريخ» إذ قال: «وأصل كلمة «عربي» ما يزال غامضًا على الرغم من أن علماء اللغة قد قدموا تفسيرات تختلف جودة وقبولاً.. حتى قال: والاشتقاق العربي المأثور الذي يشتق الاسم من فعل (أعرب) ومعناه: أبان وأفصح يكاد يكون بالضبط قلبًا للتطور التاريخي»[1] وأقول: إن بعض اللغويين أرجع كلمة عرب إلى يعرب جد القحطانية، وبعضهم قال إنها مشتقة من وادي عربة في تهامة.

واذكر أنني قرأت رأيًا في تفسير هذه الكلمة، ملخصه: أنها منحوتة من لفظتي (على الربْ)، لأنهم كانوا بدوًا يعتمدون في عيشهم على الله منزل الغيث. وفسر لفظة (عجم) بأنها مشتقة من لفظتي (على الجمّ) أي على الماء، أي يعتمدون في عيشهم على مياه الأرض، وهذا التفسير على كل حالٍ موضع نظر. وتعقيب آخر حول ما قاله برنارد لويس أيضًا ونصه[1]: وقد «ولد استعمال جديد تحت تأثير الغرب، وأصبح في السنوات الخمسين الأخيرة يتزايد أهمية، وهو الاستعمال الذي يعتبر الشعوب الناطقة بالعربية «أمة» أو مجموعة من الأمم الشقيقة بالمفهوم الأوروبي، توحدها بلاد مشتركة ولغة مشتركة وثقافة مشتركة وتشوق مشترك إلى الاستقلال السياسي».

يقول هلال بن ناجي: إن هذا الكلام مردود، ذلك إن استعمال كلمة (أمة) للعرب، ليست استعمالا جديدًا وجد تحت تأثير الغرب!! فالقرآن الكريم استعمل هذه اللغة عشرات المرات وصفًا لأمة العرب: قال تعالى «كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر»[2] وقال جلَّ من قائل: «وكذلك جعلناكم أمة وسطًا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا»[3]، وقوله تعالى: «كذلك أرسلناك في أمة قد خلت من قبلها أمم لتتلو عليهم الذي أوحينا إليك»[4]، ونعتقد أن المعني (بأمة) في كل الآيات الكريمات السابقات هي أمة العرب وليس غيرها.

---

١ - العرب وابن خلدون ص ٤٠.

٢ - الآية رقم ١١٠من سورة آل عمران.

٣ - الآية رقم ١٤٣من سورة البقرة.

٤ - الآية رقم ٣٠من سورة الرعد.

٭٭٭٭٭٭

أبوالقاسم وطه حسين

إن موقف طه حسين المنتقص من علم ابن خلدون وقدره وشخصيته، ترك أثرًا سيئًا في نفس أبي القاسم، وحدث أن زار عميد الأدب العربي تونس بدعوة من حكومتها للإشراف على امتحانات «دار المعلمين العليا» وقد ألقى بعض المحاضرات والأحاديث، وكان التونسيون والجزائريون يعتقدون أن الدكتور طه حسين سيتعرض في محاضراته لمأساة الجزائر وما يعانيه شعبها على يد الفرنسيين من إبادة وتشريد، ولكن الدكتور صمت! فاستنكروا سكوته، وضجَّت الصحف التونسية بالتنديد بموقف عميد الأدب العربي، وقد أثار هذا الموقف المتخاذل اللامبالي الأديبَ المغربي محمد الصباغ، فكتب كلمة قاسية عنوانها – قف عن الحديث – وقد اغتنم أبوالقاسم هذه الفرصة ليثأر لابن خلدون في شخص العميد طه حسين فنشر هذه المقالة ومجموعة مقالات ثائرة غنت لأقطار المغرب العربي أيام محنته وثوراته كتبها الأديب محمد الصباغ ونشرها في سلسلة البعث بعنوان – شلال الأسود –، وما من شك أن هذا الكتاب وموقف الصحف التونسية آنذاك كان من أقسى ما واجهه طه حسين في حياته، افتتحه بقوله: قف عن الحديث أيها العميد فالقول منك رماد وتبن، قف عن الحديث! أقولها لك بعويل آلاف الأيتام وصراخ آلاف الثكالى، ومحراث النار يشق حنجرتي في أرض الجزائر، المفروشة بالموت والرهبة والجزع والهلع... لعل جملة واحدة كنت توجهها إلى إخوانك الجزائريين الملهوفين، أولئك الذين أتوا إلى منبرك لتكون بلسمًا لجراحهم العميقة، وتعزية في مصائبهم الجريحة، ولكنك أسفًا أحجمت، ولست أدري، أهو الجبن، أم لأمرٍ أنت تعلمه!

موقف أبي القاسم من ثورة الجزائر:

لعل واحدًا من أروع المواقف القومية التي اتسم بها تاريخ أبي القاسم السياسي هو وقوفه بصلابة إلى جانب ثورة الشعب العربي في الجزائر فأصدر كتابه «صوت الجزائر» في ديسمبر – كانون الأول – ١٩٥٦، وعُدّ إسهامًا في الذكرى الثانية لاندلاع ثورة التحرير الجزائرية، وصدرت منه طبعة ثانية بعد عامين من ذلك، وكان الكتاب في جوهره صورة

مصغرة لبعض جوانب الثورة وحقائقها، اقتبسها أبوالقاسم من مراجع متعددة، أبرزها بلاغات جبهة التحرير الوطني الجزائرية، وكان هدفه من ذلك: إيصال صوت الثورة الجزائرية إلى كل مكان، والدعوة إلى مساندتها قولاً وعملاً، وإيضاح كثير من حقائقها التي حاول الاستعمار تشويهها، وتسجيل بعض خطوات تلك الثورة الخالدة، وعرض أبوالقاسم نماذج من وحشية المستعمرين وجرائمهم ضد الآمنين من أهل الجزائر، وما يقابلها من مواقف الرجولة والشرف التي وقفها المجاهدون الجزائريون وقيادتهم، وكان أبوالقاسم شديد الإيمان بحتمية انتصار الثورة الجزائرية على الاستعمار، وهكذا كان.

أبوالقاسم محمد كرو وأبوالقاسم الشابي:

لم يحظ شاعر عربي في القرن العشرين بعناية مفرطة من عالم جليل كما حظي الشابي بعناية أبي القاسم محمد كرو، ولم يتفرغ كاتب وأديب عربي لأبي القاسم الشابي كما تفرغ أبوالقاسم محمد كرو له.

كانت تشد صاحبنا إلى الشابي وشائج تاريخية وعاطفية غير منظورة وأحسب أن في مقدمتها انتماؤهما معًا إلى بلاد الجنوب التونسي، وثورية الشابي التي عرف بها منذ صباه الباكر، ونبوغهما المبكر معًا.

فَعلاًّمتنا صنف كتابه الأول عن الشابي وعنوانه «الشابي: حياته وشعره» سنة ١٩٥٠، ولما يزل بعد طالبًا لم يستكمل دراسته في الجامعة العراقية، ثم طبعه عام ١٩٥٢، وكانت له طبعة ثانية في بيروت سنة ١٩٥٤، ثم طبعه طبعة ثالثة في بيروت سنة ١٩٦٠، فأبوالقاسم كان يرى «الشابي نسيجًا من العبقرية وحده، مجددًا بكل ما في هذه الكلمة من معانٍ ومفاهيم...، بل زعيمًا جريئًا بين المجددين..».

تناول علامتنا حياة الشاعر بتفصيل دقيق جزم فيه بأنه ولد في ربيع عام ١٩٠٩م بالشابية إحدى ضواحي مدينة توزر التونسية في بيئة ساحرة الطبيعة، وجلا الوهم الذي علق بنوع مرضه فهو لم يمت بالسلّ بل بضيق أذين القلب، معززًا ذلك بالوثائق الرسمية،

---

١ - انظر نص كلمة ابي شادي في مجلة الأديب اللبنانية عدد أغسطس ١٩٥٣، وأعاد نشرها الأستاذ (كرو) في مقدمة الطبعة الثانية من كتابه «الشابي: حياته وشعره» (ص ١٨ - ٢٥).

وتحدّث عن تأثير شخصية الأب – الذي كان قاضيًا – على تفكير ابنه ونفسيته ثم أثر وفاة أبيه عليه. وأن آلام الاستعمار وآلام الركود والاستسلام وآلام جسده تعاورت عليه ودفعته إلى نهايته المحتومة دون أن يتم السادسة والعشرين من عمره. ثم عقد فصلاً للأدب المهجري وأثره في شاعرية الشابي، وهو رأي خالفه فيه عميد (مدرسة أبوللو) الشاعر المصري الكبير أحمد زكي أبو شادي، الذي رأى أن الشابي تأثر بشعراء المشرق وبشعراء (مدرسة أبوللو) بوجه خاص وبدواوين رائدها أبي شادي قبل كل شيء[1]، وأضاف علاّمتنا عوامل أخرى تأثر بها الشابي هي: الأدب الغربي المترجم – لأنه لم يكن يحسن لغة أجنبية – وأسلوب طه حسين وتفكيره – والأدب العربي القديم – وأكد أن شاعرية الشابي تنماز بصدق في التعبير ودقة في التصوير، لكنه ارتفع بشعره عن الأغراض الصغيرة والشؤون العابرة. حتى قال: «إن الشاعر حين نكب بوفاة والده، وكان لديه أعز شيء في الوجود لم يستطع أن يرثيه بشيء مما اصطلح عليه في عالم الأدب بشعر الرثاء»[1] يقول هلال بن ناجي: إن قدرات الشعراء تختلف باختلاف الأغراض الشعرية، فهنالك من يحسن الوصف ولا يحسن الرثاء، وهناك من يحسن القول في فنون شعرية كثيرة ولكنه لا يحسن الهجاء، ومن النادر جدًا أن نجد شاعرًا يحسن القول في كل أغراض الشعر. وعندنا مثل عايشناه فقد كان السيَّاب شاعرًا موهوبًا وشاءت الصدف أن يخاصم شاعرًا موصلياً هو المرحوم «حازم سعيد»، فاستطاع حازم أن يهزم بدرًا السياب ويبكيه، بما يملكه من قدرة في الهجاء ورسم الصورة الساخرة، واضطر بدر أن يذل ويقرّ بالهزيمة.

ومثله حصل للشاعر الكبير «نزار القباني» فنزار شاعر المرأة دون منازع لكنه لا يحسن الهجو، وحين اختصم مع أحد شعراء عصره هجاه الأخير بقصيدة ساخرة جعلته يسيخ في الأرض، وعجز عن الردّ عليه.

الشعراء إذن يختلفون في قدراتهم باختلاف الأغراض الشعرية، والذي يبدو لنا أن الشابي كان لا يحسن الرثاء رغم قدراته الفنية العالية.

---

١ – الشابي: حياته وشعره – ط الثالثة ص ١٠٨.

٢ – نفس المصدر ص ١١٢.

ورأى أبوالقاسم أن الشابي تزوج ولم يكن موفقًا في حياته الزوجية، إذ لم يجد في زوجته تلك الصورة الشعرية الرائعة التي كان يرسمها للمرأة في أشعاره ويتغنى بها في قصائده، لذلك لم يلبث أن وقع في شراك حب عنيف.. حيث رتل (صلواته في هيكل الحب)...[٢].

وصديق الشابي ورفيقه محمد الحليوي يؤكد أن الموصوفة في قصيدة (صلوات في هيكل الحب) هي سائحة أجنبية كانت تلتقط الصور في أرياف تونس، لم تربطها بالشاعر أية صلة.

ويقول هلال بن ناجي عن تجربة حقيقية: إن قصائد الحب الحقيقي هي في الأعم الأغلب وليدة الحرمان، فإذا نال الشاعر ما اشتهى انصرف عن التغني بمحبوبه، وقصيدة (صلوات في هيكل الحب) وليدة الحرمان، ولو أن الشاعر نال من المصورة الأجنبية ما اشتهاه، لعزف عن كتابة رائعته هذه.

ثم عرض لمؤلفات الشابي فذكر عشرة منها، وقد طُبع من هذه المؤلفات كتابان: الخيال الشعري عند العرب، طبع أول مرة في تونس سنة ١٩٢٩.

ويقول هلال بن ناجي: إن هذا الكتاب قد أعيد طبعه من قبل الشركة القومية للنشر والتوزيع في تونس سنة ١٩٦١، والكتاب في جوهره دراسة نقدية مقارنة بين الخيال الشعري عند العرب وعند الأوروبيين، انتهى فيه الى تفضيل خيال الغربيين.

وأما الكتاب الثاني فهو ديوان شعره «أغاني الحياة» وقد طُبع في مصر سنة ١٩٥٥ ووجّه أبوالقاسم نقدًا مرّاً لهذه الطبعة الشوهاء الناقصة.. وكان محقّاً في ذلك للأسباب المفصلة التي ذكرها.

ويمكن أن نضيف إلى هذين الكتابين كتاب صدر بعنوان «رسائل الشابي» ضمَّ الرسائل المتبادلة بين الشابي وصديقه محمد الحليوي، وأضاف محمد الحليوي إليه الرسائل المتبادلة بينه وبني محمد البشروش، وقد طُبع هذا الكتاب في جانفي ١٩٦٦ على

---

١ - الطبعة الثالثة ص ٢٣ - ٢٤.

نفقة أبي القاسم محمد كرو ضمن منشورات دار المغرب العربي في تونس.

لقد كان أبوالقاسم يؤكد في أكثر من موضع أن تمجيد الشابي لا يتم إلا بنشر مؤلفاته المخطوطة المتناثرة بين الناس.

وقد ختم العلاّمة أبوالقاسم كتابه عن الشابي بمختارات مبوبة من ديوانه «أغاني الحياة» ثم بنماذج من نثره.

يقول هلال بن ناجي: أن كتاب «الشابي: حياته وشعره» سدَّ فراغًا في موضوعه، وجلا حقائق مهمة، غير إني وجدت الأخ العلاّمة يقتبس بتصرف[1] كلامًا للمرحوم عثمان الكعاك نشره في مجلة المباحث التونسية، ذكر فيه أعلام تونس عبر التاريخ وفيه أوهام عدة منها قوله: (أما... ابن خلدون فهو أول من وضع علم التدريس وخصَّه بالتأليف، أما الملك المعز بن باديس فهو أول من ألفّ في فن الخطوط وأنواعها وصناعة الرق والورق والتجليد وأما.. إبراهيم الرقيق القيرواني (فهو) من عظماء المؤلفين في فن الموسيقى في تاريخ الثقافة العربية).

والذي نعرفه أن ابن خلدون مؤسس علم الاجتماع، ولا نعرف أنه أول من صنف في علم التدريس، ولم يصنف المعز بن باديس كتابًا في الخطوط وأنواعها وصناعة الورق والرق والتجليد. وإنما هو مما صُنِّفَ برسمه. وهذا الكتاب قد طُبع بتحقيق الدكتور عبدالستار الحلوجي وعلي عبدالمحسن زكي وعنوانه «عمدة الكتَّاب وعدة ذوي الألباب» ونشر في مجلة معهد المخطوطات العربية – الجزء الأول – المجلد السابع عشر – مايو ١٩٧١ ص ٤٣ – ١٧٢. وأما الرقيق القيرواني – الذي كان حيّاً سنة ٤٢٣هـ حسبما تحقق لنا ذلك في مخطوطة باريس من كتاب قطب السرور – فلم يُصَنِّف في فن الموسيقى مطلقًا. لقد كان الرجل مؤرخًا من كبار المؤرخين في زمنه، فهو صاحب كتاب تاريخ إفريقية والمغرب في عشر مجلدات، وقد نشر قطعة بقيت منه «المنجي الكعبي» في تونس سنة ١٩٦٨، ومن مصنفاته المفقودة أخبار بني زيري الصنهاجيين، ونظم السلوك في مسامرة الملوك، والراح والارتياح، والأغاني نحا فيه نحو أبي الفرج الأصفهاني، والنساء، والمتيّمين،

والاختصار البارع في التاريخ الجامع، وكلها مفقودة.

ووصلنا من مصنفاته كتاب ضخم عنوانه «قطب السرور في وصف الأنبذة والخمور»، نشر أحمد الجندي الجزء الثاني منه في دمشق – ضمن مطبوعات مجمع اللغة العربية فيها، وما زال جزؤه الأول غير منشور، وكانت نشرة الجندي غير علمية لاعتمادها مخطوطة المتحف البريطاني وحدها، رغم وجود مخطوطات عدة للكتاب ذكرها بروكلمان، فالرقيق القيرواني لم يصنف في فن الموسيقى كما توهم الكعاك رحمه الله، فهذه أوهام تقضي أمانة العلم بعدم الأخذ بها.

ثم أصدر العلامة أبوالقاسم كتابه الثاني عن الشابي وعنوانه «كفاح الشابي»، وقد طُبع الكتاب ثلاث طبعات أولاها في بيروت سنة ١٩٥٤ والثانية في تونس سنة ١٩٥٧ والثالثة في بيروت سنة ١٩٦٠، والمؤلف في المقدمة يصرح إنه أحب الشابي كأقوى ما يكون الحب، ولذلك اعتبره أعظم شاعر أنجبته الأمة العربية في عصرها الحديث[١].

يقول هلال بن ناجي: إن الاتجاه الرومانسي الذي ضم الشابي في تياره، هو المفسّر لكثير من قصائده، وأن رومانسية الشابي كانت رومانسية ثورية، فالشاعر الرومانسي يتصف شعره بعدم الرضا عن الواقع والثورة عليه، قال الشابي:

وبـــــقـــــيتُ في وادي الـــــزمـــــا
ن الجـــــهم أدأب في المـــــســـــيـــــرْ
وأدوس أشـــــواك الحـــــيـــــا
ة بـــقـــلـــبِيَ الـــدامي الـــكـــســـيـــر
وأرى الأبـــــاطـــــيل الـــــكـــــثـــــيـ
ـــــرةَ والمـــــآثمَ والـــــشُّـــــرور
وتـــــصـــــادمَ الأهـــــواء بـــــالـ

١ – الطبعة الثالثة ص ١٩ من كتاب «كفاح الشابي».

أهـــــــــــواء فـي كـلِّ الأمـــــــــــور
ومـــــذلّـــــةَ الحـقِّ الـــــضـــــعـــــيـ
ـفِ وعـــــزَّةَ الـــــظُّـــــلـمِ الـــــقـــــديـــــر

وقوله:

أنتَ يـــــا كـــــاهنَ الـــــظلام حـــــيـــــاةٌ
تـــــعـــــيـــــدُ المـــــوتَ، أنتَ روحٌ شـــــقـــــيٌّ
كـــــافـــــرٌ بـــــالحـــــيـــــاةِ والـــــنـــــورِ لا يـــــصْـ
ـــــغي إلى الـــــكـــــون قـــــلـــــبُهُ الحـــــجـــــريُّ
أنتَ دنـــــيـــــا يـــــظـــــلُّـــــهَـــــا أفُقُ المـــــا
ضـي ولـــــيلُ الـــــكـــــآبـــــة الأبـــــديُّ
والـــــشَّـــــقـــــيُّ الـــــشَّـــــقـــــيُّ في الأرضِ شـــــعبٌ
يـــــومُهُ مَـــــيِّتٌ ومـــــاضـــــيـــــهِ حـــــيٌّ

وقوله:

لـــــو كـــــان هـــــذا الـــــكـــــونُ في قَـــــبْـــــضَـــــتي
ألـــــقـــــيْـــــتُه في الـــــنـــــار: نـــــارِ الجـــــحـــــيم
مـــــا هـــــذه الـــــدنـــــيـــــا وهـــــذا الـــــورَى
وذلك الأفْـقُ وتـــــلـــــك الـــــنـــــجـــــوم
الـــــنـــــار أْوَلـى بـــــعـــــبـــــيـــــد الأسى
ومـــــســـــرحِ المـــــوتِ وعُشُّ الـــــهـــــمـــــوم

كما يتصف شعر الشاعر الرومانسي بالشعور العميق بالوحدة[1] والسعي للهروب من الحياة: قال الشابي:

١ - خير مثل على هذه الوحدة والغربة ما كتبه في يومياته بتاريخ ١٩٣٠/١/٧، انظر كفاح الشابي ص ٧٠.

لـــيت لي أن أعـــيش في هـــذه الـــدُّنْ
ـــيـا بـعـيـدًا بـوحـدتي وانـفـرادي

وقال:

وتـغـشَّى الـضـبـابُ نـفـسي فـصـاحتْ
فـي مَـلالٍ مُـــــرٍّ إلـى أيـن أمـــــشـي
قـلـتُ: سـيـري مع الحـيـاةِ، فـقـالتْ:
مـا جـنـيـنـا تُـرى من الـسَّـيـر أمس؟
فَـتَـهـافتُّ كـالـهـشـيم عـلى الأرْ
ضِ ونـاديتُ: أين يـا قـلبُ رفْـشِي
هـاتِـةِ، عـلَّـنِي أخُطُّ ضـريـحي
في سـكـون الـدُّجى وأدفنُ نـفـسي

*****

ثم مـاذا؟ هـذا أنـا صـرت في الـدنـ
يـا بـعـيـدًا عن لـهـوهـا وغـنـاهـا.
فـي ظـلامِ الـفَـنـاء أدفُنُ أيّـا
مِي ولا أسـتـطـيعُ حـتى بـكـاهـا
وزهـورُ الحـيـاةِ تـهـوي بـصَـمْتٍ
مـحـزنٍ مُـضْـجـرٍ عـلى قـدمـيَّـا
جفَّ سـحـرُ الحـيـاة يـا قـلـبيَ الـبـا
كي فـهـيَّـا نُـجـرِّبُ المـوتَ هـيَّـا

وانظر قصيدته «الأشواق التائهة».

كذلك يتسم شعر الشاعر الرومانسي بإضفاء الطابع الرومانتيكي على الطبيعة وعلى الماضي. أما إضفاؤه على الطبيعة فواضح كل الوضوح في رائعته (النبي المجهول) وقصيدته الجميلة «من أغاني الرعاة»، وغيرهما، وأما إضفاؤه الطابع الرومانتيكي على الماضي فيتجسد في قصيدته «أغاني التائه».

وكما قلنا فإن مظاهر التيار الرومانسي كانت واضحة كل الوضوح في شعر الشابي، لكنها كما قلت رومانسية ثورية، وليست رومانسية تقليدية.

ولست أدري ما الذي دفع علاّمتنا إلى تجريح «المتنبي» وهو في مقام إعلاء شأن الشابي؟، الموازنة بين الشعراء تكون بين شاعرين عاشا في زمن واحد أو أزمان متقاربة، كالموازنة بين الطائيين: أبي تمام والبحتري.

ولكنها لا تصح أن تقوم بين شاعرين تفصل بينهما عشرة قرون، لاختلاف المعايير الاجتماعية والخلقية والنقدية.

ولست أدري لِمَ لمْ يوازن – أخي أبوالقاسم – بين الشابي وبين معاصريه من شعراء تونس الذين لم يخجل عشرات منهم من الوقوف كل عام بين يدي بورقيبه يمدحونه وينشدون عكاظياتهم التي طبعت منها أجزاء خمسة، أليس موقف هؤلاء أولى بالتجريح والنقد وهم يحجون إلى – المنستير[1] – ليلقوا قصائدهم بين يدي طاغوت تونس، وكثير منهم ممن أدرك الشابي وعاصره؟!

إن السبب الرئيسي في خلود شعر الشابي هو أنه من الشعر الصافي الذي لم يرتبط بشخص ولا بمناسبة، وقصيدته «إرادة الحياة» الخالدة، جسَّدت الثورة على الواقع الفاسد.

والشابي بعد يرى أن الشعر فيض العواطف، وليس نتاج العقول:

عشْ بالشعور وللشعور فإنما
دنياكَ كونُ عواطفٍ وشعور
شِيدَتْ على العطفِ العميق وإنها
لتجفُّ لو شيدَتْ على التفكير
والعقلُ رغمَ مشيبهِ ووقاره
ما زال في الأيامِ جِدُّ صغير
وهو المهشَّمُ بالعواصف يا له

١ – المنستير: مسقط رأس بورقيبة.
٢ – تنظر قصيدته (فكرة الفنان).

من ســـاذجٍ مُـــتَـــفَـــلْـــسفٍ مـــغـــرور[٢]

خلافًا للمتنبي وكل الشعراء الحكماء الذين يرون أن الشعر وليد العقل.

وقد سئل أحد النقاد القدامى فقال، أبو تمام والمتنبي حكيمان، والشاعر البحتري فالمتنبي خَلَدَ بِحِكَمِه التي جسَّدت ضمير الأمة، والشابي خَلَدَ بشعره الصافي البعيد عن الأشخاص والمناسبات المستوحى من عواطفه الصادقة المشبوبة.

وقد شدَّ نظري ما كتبه الأخ العلاّمة من أن مؤرخي الأدب العربي «يتجاهلون تمامًا هذا الشمال الأفريقي من حدود مراكش إلى حدود مصر الغربية، كأن هذه الرقعة الكبيرة من الأرض ليست داخلة في خريطة العالم العربي قديمًا وحديثًا[١]» ويقول هلال بن ناجي: إن مؤرخي الأدب العربي القدامى لم يبخلوا بتوفير مادة البحث لمؤرخينا المعاصرين، فأنت واجد في «يتيمة» الثعالبي (ت ٤٢٩هـ) ودمية الباخرزي (ت ٤٦٧هـ) وخريدة العماد (ت ٥٩٧هـ) ومعجم ياقوت (ت ٦٢٦هـ). مادة وفيرة تخص المغرب والأندلس وصقلية، وقد استقى العماد خاصة من مراجع مغربية بعضها مفقود كان له الفضل في حفظ ما حفظ من نصوصها.

ويخيّل إليّ أن السبب ليس في انصراف المشارقة عن أدب المغاربة، وإنما السبب في عدم توافر النصوص المغربية للباحثين في بواكير هذا القرن. حتى إذا ما صارت المصادر في متناول الباحثين والمؤرخين، نَهَدوا الى تَوْرَخَةِ الحركة الأدبية في هذا الجزء الغالي من وطننا العربي الكبير، وأعمالهم اليوم أكثر من أن تحصى أو تحصر.

وفي فصل عنوانه «شاعر جبار» نقف عند قول المؤلف: «إن تونس الخضراء لم تعرف في تاريخها الأدبي شاعرًا يقف بحقّ بين الشعراء الكبار ويحتل مكانة سامية في

١ - كفاح الشابي ص ٣٦.
٢ - المصدر السابق ص ٤٣.
٣ - ديوان محمد بن هانئ الأندلسي بتحقيق محمد اليعلاوي - ص ١٨١.

عالم الخلود بعد شاعرنا ابن هانئ إلا الشابي»[٢].

لقد أعادتني هذه الفقرة إلى المتنبي مرة ثانية. فالمؤلف يعتز بابن هانئ الأندلسي ويعدّه ممن يحتل مكانة سامية في عالم الخلود، وهو شاعر كبير حقّاً في رأينا أيضًا.

يقول هلال بن ناجي: ومحمد بن هانئ الأندلسي هذا كانوا يلقبونه بمتنبئ المغرب، وجلّ شعره نظمه في مدح المعز لدين الله الفاطمي واستجدائه، أليس هو القائل في مطلع مدحة له[٣]:

مـــا شِـــئتَ لا مـــا شـــاءتِ الأقـــدارُ
فـــاحـــكمْ فـــأنت الـــواحـــدُ الـــقـــهَّـــارُ
وكـــأنمـــا أنتَ الـــنـــبيُّ مـــحـــمـــدٌ
وكـــأنمـــا أنـــصـــارُكَ الأنـــصـــار

وأتساءل هل انحدر المتنبي إلى هذا المستوى في مدائحه؟ فلماذا رضي أبوالقاسم أن يبقي ابن هانئ المداح محتلاً مكانة سامية في عالم الخلود، في حين أسقط المتنبي – بسبب مدائحه لسيف الدولة – عن مكانته؟!

إنني أعتقد أن هذه العبارات كتبت في فورة الشباب وأبوالقاسم دون الثلاثين، وبقيت على حالها دون تغيير، ولو أنه أعاد قراءتها في ضوء علمه وفضله الذي بلغه لشطبها جملة وتفصيلاً، ودليلنا على ذلك ما كتبه بعد عشرين عامًا عن ابن هانئ.

ولقد كان أبوالقاسم موفقًا غاية التوفيق في عرض وإيضاح مفهوم الشعر ووظيفته عند الشابي، مستشهدًا بشعره ونثره[١].

وفصَّل القول في وطنية الشابي ومحاولاته الدائبة لإيقاظ شعبه من سُباته، وكانت قصيدته «أيها الشعب» من أروع النماذج أسلوبًا ومعنى وفي بيت من أبيات هذه القصيدة ضمَّن الشابي شطرًا للمتنبي تضمَّن حكمة من حكمه الخالدة قال الشابي:

---

١ – ينظر الفصل المعنون «قمة الشابي».
٢ – كفاح الشابي ص ٧٧.

أيُّ عـــــيشٍ هـــــذا وأيُّ حـــــيـــــاةٍ
رُبَّ عـــــيش أخَفُّ مـــــنه الحِـــمَـــامُ!

وعجز البيت من شعر المتنبي القائل:

ذلَّ من يـــغـــبطُ الـــذلـــيلَ بـــعـــيشٍ
رُبَّ عـــــيشٍ أخفُّ مـــــنه الحِـــمَـــامُ

وكانت محاولات الشابي الشعرية لإيقاظ شعبه مخلصة وصادقة ومؤثرة، ولقد جوبهت هذه المحاولات بالعداء والرفض من قبل بعضهم وكانت مجلة (النديم) التونسية الأسبوعية مسرحًا لهؤلاء الخصوم[٢]. وحين قوبلت دعوات النهوض التي أطلقها الشابي بالجحود والنكران واتهم بالكفر، ثار على خصومه فكتب رائعته الخالدة المعنونة (النبي المجهول) وأولها:

أيـــهـــا الـــشَّـــعبُ لـــيـــتـــني كـــنتُ حـــطّـــا
بًـــا فـــأهـــوي عـــلى الجـــذوع بـــفـــأسي!
لـــيـــتـــني كـــنتُ كـــالـــســـيـــولِ إذا ســـا
لَتْ تـــهـــدُّ الـــقـــبـــورَ رمـــسًـــا بـــرمس
لـــيـــتـــني كـــنت كـــالـــريـــاح فـــأطـــوي
كلَّ مـــا يـــخـــنق الـــزهـــورَ بـــنـــحـــسي
لـــيـــتـــني كـــنت كـــالـــشـــتـــاء أُغَـــشِّي
كلَّ مـــا أذبلَ الخـــريفُ بـــقـــرسي
لـــيت لي قـــوةَ الـــعـــواصف يـــا شَـــعْـ
ـــبي فـــألـــقي إلـــيك ثـــورة نـــفـــسي
لـــيت لي قـــوَّةَ الأعـــاصـــيـــر إنْ ضَـــجْـ
جَتْ فـــأدعـــوك لـــلـــحـــيـــاة بـــنـــبـــسي
لـــيت لي قـــوَّةَ الأعـــاصـــيـــر! لـــكن
أنتَ حيٌّ يـــقـــضي الحـــيـــاة بـــرَمْس!
أنت روحٌ غـــبـــيـــةٌ تـــكـــره الـــنـــو

رَ وتـــقـــضـي الـــدهـــورَ في لـــيل مَـــلْس
أنتَ لا تُـــــدرك الحـــــقـــــائـق إن طـــــا
فَـتْ حـــــــــوالـــــــــيـكَ دون مَـسٍ وجَـسٍّ

والقصيدة من عيون شعرنا المعاصر الداعي إلى إيقاظ الشعب من رقدة الكهف، وقد كان الشاعر موفقًا فيها غاية التوفيق في اختياره السين الهامسةِ قافية، وفي سلاسة ألفاظها، وفي التعبير بصدق عما جال في نفسه من ثورة على غطيط شعبه في نومه، وعدم استجابته لدعوات النهوض وكسر الأغلال التي أطلقها الشاعر ورواد النهضة، ثم صوَّر لنا بأسلوب أخاذ كيف مضى هذا الشاعر النبي المجهول الى الغاب ليمضي أيامه وحيداً في أحضان الطبيعة.

كم كان بودي لو أن علاّمتنا حاول في طبعة من طبعات الكتاب، تحليل هذه القصيدة الجميلة الخالدة، وإبراز عناصر الجمال الفني فيها، بل كم كنت أتمنى لو أنه كرَّس فصلاً في كتابه للحديث عن القيم الفنية في شعر الشابي، فهو موضوع جدير بالوقوف عنده طويلاً.

لقد أحسست وأنا أقرأ القصيدة أن القوافي كانت تضيق بالشابي فيعمد الى تكرارها مما أوقعه في عيب من عيوب القافية هو الإيطاء. ومثاله: تكراره القوافي التالية: نفسي – كأسي – يأس – رمس – أمس – قدس – جنس – رجس – تمسي، وغيرها.

وقصور هذه القوافي عن التعبير عما في جوانحه دفعه إلى اختيار بضعة قوافٍ وحشيَّةٍ مستوعرة غير مألوفة، تشعر وأنت تقف عندها أنها قلقة غريبة على أسلوبه. اضطر الى استعمالها بحثًا عن كلمة (رويّ). ومثالها: بقرسي – مغسي – ملس – حرسًا بحرس – المغسِّي – قنس.

فهي كلمات قاموسية معجمية حقّاً، لكنها غريبة على أسلوب الشابي السلس المطواع وغريبة على العصر دفعته إليها القافية.

---

١ – نسبة إلى «نيتشه» الفيلسوف الألماني الشهير.

لكن هذا كله لا يسلب الشاعر إيمانه بمستقبل شعبه وحتمية انتصاره ويقظته ومن هذا المنطلق حَبَّر قصيدته «إلى طغاة العالم».

ختم المؤلف كتابه بفصل عن الطبيعة عند الشابي، ووقف عند مصطلح «يقظة الإحساس وأثرها في الفرد والجماعة» وافتتان الشابي به، وكيف كان يرى أن يقظة الإحساس هي روح الحياة المنتجة الولود التي تصقل العبقرية وتؤجج نيران النبوغ، وأنه ظل يردد هذا السر سرّ الحياة العميق حتى عزف نشيده الخالد في رائعته «إرادة الحياة».

وقد أشار الأخ المؤلف إلى ما ذكره الدكتور علي سعد من وجود نَفَس نيتشي[1] في هذه القصيدة المتضمنة فكرة العودة الدائمة والحياة المتجددة.

وكان بودي لو أن علامتنا عقد مقارنة عميقة بين أفكار نيتشه في العودة الدائمة وأفكار الشابي في خالدته «إرادة الحياة»، لأن ذلك يساعدنا على معرفة بعض روافده الثقافية، ومواطن الإبداع والاصالة والتفرد في شعره. فعسى أن يكون لديه مستقبلاً من الصحة والوقت ما يسمح بولوج هذا الباب.

☆☆☆☆☆

إنّ اهتمام علاَّمتنا بالشابي وإيلاءه ما هو جدير به من وقت وجهد ومال، باعتباره نسيج وحده في ديوان الشعر التونسي الحديث، دفعه إلى إصدار كتاب موسع عنوانه «آثار الشابي وصداه في الشرق» وقد صدر هذا الكتاب في بيروت سنة ١٩٦١ متضمنًا فصولاً عن حياة الشابي وآثاره وصداه في الشرق وباقة من شعره ونثره ومنتقى مما كُتب عنه، ثم ألحق به فصلاً ببليوغرافيًا مهمًا سماه «دليل الباحثين».

إن الفصل المعنون «صدى الشابي في الشرق ١٩٣٣ – ١٩٦٠» كشف فيه المؤلف أن اتصال الشابي بمجلة أبوللو المصرية وتوثق صلته بصاحبها المرحوم الدكتور أحمد زكي أبو شادي، كان المنطلق لشهرة الشابي في المشرق، وهو أمر فصل القول فيه في ما بعد عدد ممن صنفوا الدراسات الأدبية عن «مدرسة أبوللو» الشعرية.

ويقول هلال بن ناجي: إن هذا الانتماء الأبوللي، يفسر سرّ الأسى العميق الذي شعر

به شعراء مدرسة أبوللو من المصريين حين فجعوا بوفاة الشابي المفاجأة فرثوه من أعماقهم بقصائد أشار إليها مؤلفنا ومنها مراثي المرحومين: أحمد زكي أبو شادي ومختار الوكيل وصالح جودت وحسن كامل الصيرفي ومحمد فوزي العنتيل. ثم مراثي شعراء كبار لم يعاصروا الشابي – ما زالوا أحياء بيننا مثل: سليمان العيسى ومحمد الفيتوري.

وأجد من الأمانة العلمية القول بأن مؤلفنا ذكر أسماء ستة وثلاثين شاعرًا رثوا الشابي ينتمون إلى أقطار متعددة من الوطن العربي الكبير.

وهذا ما أحسب الشابي قد تفرَّد فيه بين شعراء العربية، وهو يعكس من جهة أخرى المكانة الرفيعة التي احتلها هذا الشاعر المبدع بين إخوته من شعراء العربية.

وأما المنتقى مما كتب عن الشابي فقد ضَمَّ كتابات أبي شادي ومختار الوكيل ومحمد فهمي وصالح جودت وبديع حقي وسعاد أبوشقرا وعبدالقادر القط ومحمد مندور وإبراهيم ناجي وعزيز أباظه وعبدالفتاح غبن وعيسى الناعوري.

ولأبي القاسم محمد كرو فضل كبير في جمع هذه الدراسات المتناثرة ولها في كتاب واحد، لقد أعاد علاّمة تونس طبع هذا الكتاب مرة ثانية في بيروت في خريف عام ١٩٨٨ لنفاد الطبعة الأولى وتكريمًا للشابي.

☆☆☆☆☆☆

ويجيء الكتاب الرابع الذي كرسه علاّمة تونس لأبي القاسم الشابي بعنوان دراسات عن الشابي[١] ليضيف بحوثًا جادة كثيرة صنّفها المؤلف صنفين: دراسات مغربية ودراسات مشرقية، فأما الدراسات المغربية فقد ضمت أبحاث السادة: الشاذلي القليبي وأبوالقاسم محمد كرو ومحمد فريد غازي والعمروسي المطوي وخليفة التليسي – عميد أدباء ليبيا – وعامر غديرة ومحمد بدرة وعبدالله شريط – الكاتب الجزائري – ومحمد

١ – صدرت طبعته الأولى في تونس في شباط – ١٩٦٦.

البشروش وإبراهيم بورقعة والبشير الفورتي.

وأما الدراسات المشرقية فقد ضمت أبحاث السادة: محمد مندور ومصطفى بدوي وحسن محمد محمود ونظمي خليل وكلهم من مصر، وعبدالمجيد عابدين من السودان وشوقي أبو شقرا من لبنان. وبعض هذه البحوث كان قد ألقي في حفل الأربعين التأبيني الذي أقيم بتونس، وبعضها الآخر نشر في شتى المجلات العربية على امتداد ثلث قرن من الزمن، وليس ثمة شك في أن جمع هذه الدراسات المتناثرة وإصدارها في كتاب كان يمثل

---

١ - خير الدين التونسي (١٨١٠ - ١٨٨٩) جركسي جاء به أحمد باي تونس من الآستانة وعني به عناية خاصة حتى تخرج ضابطًا في الفرسان ثم صار أميراً للخيالة. عين وزيراً للحربية سنة ١٨٦٢ وأصلح شؤون وزارته وعمر ميناء حلق الوادي وأنشأ مصنعًا للسفن ونظم الطرقات وبسعيه اعلن الدستور التونسي وانبثق عنه مجلس تشريعي، وتحت ضغط دسائس القناصل الأجانب والرجعية في تونس اضطر للاستقالة واعتزل وانصرف للتأليف فصنف كتابه الجليل «أقوم المساك في معرفة أحوال الممالك»، وهو كتاب إصلاحي قيم، ثم غرقت تونس في الديون فعينه الباي رئيسًا للجنة المالية المكونة من أعضاء انكليز وفرنسيين وطليان مهمتها حماية الديون الأجنبية، ثم عينه الباي رئيسًا للحكومة سنة ١٨٧٣ فقام بإصلاحات جبارة في ميادين الاقتصاد والتعليم والتشريع، ثم اضطر للاستقالة سنة ١٨٧٧ ورحل إلى الآستانة وعين صدراً أعظم ثم استقال بعد عام واحد، وأمضى حياته الباقية في الآستانة حتى توفي سنة ١٨٨٩م. انظر بعض إصلاحاته في الصفحات ٤٠ - ٤١ من كتاب أبي القاسم عنه وهو العدد ٣١ من كتاب البعث.

٢ - الطاهر الحداد (١٨٩٩ - ١٩٣٥) زعيم نقابي، وحامل لواء الدفاع عن حقوق المرأة التونسية وشاعر وكاتب، له موقف وطني مشهود من قضية التجنيس التي سعى إليها الاستعمار الفرنسي في تونس فقاومها المخلصون وباءت بالفشل. تنكرت له الرجعية في تونس وجعلت سنواته الأخيرة مليئة بالمرارة والأحزان أصدر عنه العلامة أبوالقاسم محمد كرو العدد الحادي والعشرين من سلسلة (كتاب البعث) وكانت له الريادة في ذلك وبعد سبعة أعوام أصدر الكاتبان التونسيان محمد المرزوقي والجيلاني بلحاج يحيى كتابهما المعنون «الطاهر الحداد: حياته تراثه».

٣ - عبدالرزاق كرباكة (١٩٠١ - ١٩٤٥) شاعر وناثر وصحفي وقاص تونسي، وكان كاتبًا للأغاني العامية ومؤلفًا مسرحياً أيضاً، وكتاب أبي القاسم عنه نشر سنة ١٩٦٥ بتونس.

٤ - محمد الخضر حسين (١٨٧٦ - ١٩٥٨) جزائري الأصل تونسي المولد، ولد في نفطة بالجنوب التونسي، أصدر أول مجلة تونسية سنة ١٩٠٤ باسم «السعادة العظمى» كان مدافعًا عن الحرية وداعية للإصلاح وتنقل في البلدان العربية وبعد سقوط دمشق بيد الفرنسيين هاجر إلى مصر واستقر بها واحتضنه العلامة أحمد تيمور وكان من أسباب اشتهاره تصنيفه كتاباً في الرد على الشيخ علي عبدالرزاق اسمه (نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم) وكتاباً آخر في الرد على طه حسين اسمه (نقض كتاب في الشعر الجاهلي)، ثم منح الجنسية المصرية وعين مدرساً بالأزهر الشريف ثم عضواً في مجمع اللغة العربية بمصر وفي سنة ١٩٥٢ صار شيخًا للأزهر الشريف ثم استقال سنة ١٩٥٤ وتوفي في القاهرة سنة ١٩٥٨، له ديوان شعر مطبوع عنوانه «خواطر الحياة» وكتب كثيرة ذكرها الأستاذ أبوالقاسم في كتابه المعنون «محمد الخضر حسين شيخ الأزهر السابق» تونس - ١٩٧٣.

جهدًا عَصيّاً تنوء به عصبة من الرجال، لأن هذه الدوريات تغدو نادرة بعد مضي سنوات على صدورها، فكيف يكون الأمر وقد مرّت عقود ثلاثة على بعضها. لكن علاّمتنا استطاع إنقاذها من الضياع والتشتت وبذل من ماله الكثير حتى يسَّرها للقراء ومحبي الأدب.

وحين نفدت الطبعة الأولى، أعاد نشر الكتاب في طرابلس الغرب سنة ١٩٨٤، وكان صنيعه هذا لا ينسى.

لم تقتصر عناية أبي القاسم محمد كرو على العلمين التونسيين الشامخين: ابن خلدون والشابي، بل امتدت عنايته لتشمل أعلامًا آخرين مثل خير الدين التونسي الذي كان مصلحًا إداريّاً[١]، ومثل الطاهر الحداد الذي كان مصلحًا اجتماعيّاً كبيرًا[٢]. كما عني بعلمين تونسيين آخرين هما: عبدالرزاق كرباكة[٣] ومحمد الخضر حسين[٤].

كما صنف كتابًا عن ابن هانئ الأندلسي صدرت طبعته الأولى في تونس سنة ١٩٦٧ وهو كتاب صغير صدر في سلسلة أعلام المغرب العربي، وأعادت طبعه الدار العربية للكتاب (ليبيا – تونس سنة ١٩٧٧)، وأجود ما في هذا الكتاب الفصل الذي عقده لأوجه الشَّبه وأوجه الاختلاف بين المتنبي وابن هانئ، وهو فصل فيه ملاحظات قيمة جديرة بالتأمل لا يتسع المقام لذكرها فاكتفينا بالإشارة، وثمة كتاب صدر بعنوان «شخصيات أدبية» – تونس ١٩٥٨، شاركه فيه الأستاذ الجزائري عبدالله شريط، وهو كتاب مدرسي تناولا فيه الأدب العربي في عصوره المختلفة، يجري مجرى الكتب المدرسية المعروفة.

وأرى لزامًا عليَّ وأنا أقترب من نهاية هذا البحث أن أشير إلى اهتمام علامة تونس الأخ أبوالقاسم محمد كرو، بالعلامة التونسي الكبير ابن منظور مؤلف (لسان العرب)، لقد انعكس هذا الاهتمام بِبَلَدِيِّه، في الملتقى الأول والملتقى الثاني اللذين عقدا في (قفصة) في عامي ١٩٧١ و١٩٧٢ وسميا باسم (ملتقى ابن منظور الأفريقي) وقد طبعت بحوث الملتقى الأول عام ١٩٧٢، كما طبعت بحوث الملتقى الثاني عام ١٩٧٤ في تونس، إنّ المتأمل المدقق في البحث العلمي الدقيق الذي قدَّمه أبوالقاسم بعنوان «حقائق جديدة عن ابن منظور»

يكشف أمرين أساسيين:

أولهما: مقدار الدقة العلمية التي تحلَّى بها كاتب البحث.

وثانيهما: الجهد الضخم في تتبع المخطوطات والمطبوعات المتناثرة للوصول إلى النتائج العلمية التي توصل إليها الباحث. وهذا البحث في نظري هو أرْصَنُ بحثٍ قدِّم للملتقى كشف بعض الغوامض من حياة ابن منظور وتاريخ أسرته.

وقد سعدت حقّاً بالدقة العلمية التي تحلَّى بها البحث. وبعد:

وإذ أضع القلم بعد رحلة ممتعة في آثار صديقي وأخي علاّمة تونس الأستاذ (أبوالقاسم محمد كرو) - الذي شدتني إليه روابط أخوة موغلة بجذورها عبر السنين - أرى ضرورة الوقوف عند جملة حقائق:

أولها: أن أبا القاسم كان في كل آثاره يرفض تعبير «الأمة التونسية» ويؤكد أن الشعب التونسي جزء من أمة عربية لها وطنها الكبير، ومن هذا المنطلق فهو بحق رائد الفكر العربي القومي الوحدوي في تونس في القرن العشرين.

وثانيهما: أن حبه للعلم وهي خِلَّة إنماز بها، جعلته يمد يد العون إلى الباحثين والمحققين ممن كانوا يحتاجون إلى مصورات بعض المخطوطات الثاوية في دار الكتب الوطنية في تونس، فكان يسارع الى مدهم بها، وقد أشار غير واحد من هؤلاء إلى هذه الأفضال العلمية ومن بينهم مُحبِّر هذه المقالة والدكتوران يحيى الجبوري وعلي جواد الطاهر وسواهم.

وثالثها: رفضه الخيانة العلمية والسطو على جهد الآخرين، وله في ذلك مواقف مشهودة من بينها كشفه لصوصية د. حاتم صالح الضامن على كتاب «مواد البيان» الذي نشر في ليبيا سنة ١٩٨٢ بتحقيق الدكتور حسين عبداللطيف، فسطا عليه المذكور متنًا وتحقيقًا ونشره منجَّمًا في مجلة «المورد» العراقية الشهيرة عام ١٩٨٧.

فكان للرسالة التي كتبها العلامة أبوالقاسم إلى مجلة «المورد»، وقع الصاعقة في أوساطنا العلمية العراقية.

ورابعها: خلّة الوفاء للراحلين ممن أحبهم وعرفهم في حياته أمثال: ساطع الحصري وعبدالسلام محمد هارون وسواهم، فكتب ما كتب مؤبنًا لهم، أو مهديًا لأرواحهم الطاهرة بعض آثاره.

إن الحديثَ عن علم شامخ كأبي القاسم قصير وإن طال، ثم إنني أكتب هذا وفي البال بلبالٌ، مما يحيط بنا، والهمُّ يلقي بجرانه على الخاطر المكدود فيعنق في درب ويغفل دروبًا، وإنني اسأل الله – جلّت قدرته – أن يمنح أخي الصحة وطول العمر، إنه السميع المجيب.

****

لمحات عن العلامة:
«أبـو القاسـم محمـد كـرُّو»

أ. هلال ناجي

(٢)

يمثل أبوالقاسم محمد كرو الوجه المشرق الأصيل للأدب المعاصر في تونس العربية. وشخصيته الأدبية متعددة الجوانب، فعلى امتداد عشرين عامًا وزيادة، رفد «كرو» الأدب العربي بعشرين مصنفًا من مصنفاته.

البعد الحقيقي للمعركة الثقافية في مغربنا العربي ليس صراعًا حول الشكل بين قديم وجديد، وليس نزاعًا بين رجعية وتقدمية، وإنما هو معركة عميقة وواسعة بين دعاة التعريب ودعاة التغريب.

دعاة التعريب الذين يريدون إبراز الشخصية العربية لتونس ولسائر المغرب العربي في ثقافته وفكره. ودعاة التغريب الذين يريدون اعتبار الفرنسية لغة علم وعمل، لغة تدريس ولغة دواوين وهي جوهر الدعوة للفرنكفونية.

وصاحبنا أبوالقاسم من أعلام التعريب في تونس، هذه الدعوة التي جرت عليه كثيرًا من المتاعب، حتى وصفه بعض أذناب الفرنسة بأنه من دعاة التبعية للمشرق. تلك ميزة أولى من ميزات كرو.

والميزة الثانية أنه في عمله الثقافي استطاع أن يستقطب أبرز الاقلام الخيّرة على امتداد المغرب العربي الكبير، في مجلته «الثقافة» التي صدرت بتونس. ثم في مشروعه القيم «كتاب البعث» الذي صدر من أجزائه نحو الستين جزءًا، وأسهم فيه كل ذوي القدرات الخلاقة في ذلك الجزء الغالي من وطننا.

وهذا المشروع الثقافي الذي عجزت حكومة تونس عن القيام به، استطاع أن ينهد به فرد واحد هو «كرو». والذين يعرفون تكاليف الطباعة الخيالية في تونس يدركون أية أعجوبة صنع أبوالقاسم بمشروعه هذا أداءً لرسالة ثقافية وقومية هدفها الإسهام في نهضة المغرب العربي، وتسجيل تاريخه الحديث فكرًا وأدبًا ونضالاً ومنع تراثه الحديث من التلاشي والإهمال.

كل الأقلام الكبيرة التي اشتهرت في ما بعد عرفت طريقها أولاً عن طريق هذه السلسلة التي أصدرها أبوالقاسم.

إن الحديث عن مصنفات «كرو» لا تتسع له هاته الصحائف المحدودة، لكن مالا يدرك كله لا يترك جله.

فأبوالقاسم منح «الشابي» اهتمامًا خاصًا وأفرد له ثلاثة من مصنفاته هي:

١ – الشابي: حياته وشعره. ٢ – كفاح الشابي. ٣ – آثار الشابي وصداه في الشرق.

كما كرس بعض مصنفاته لعدد من الأعلام التونسيين مثل كتبه التالية: ١ – الطاهر الحداد. ٢ – خيرالدين التونسي. ٣ – العرب وابن خلدون. ٤ شوقي وابن زيدون في نونيتهما. ٥ – عبدالرزاق كرباكة. ٦ – ابن هانئ المغربي الأندلسي.

وهناك بعض مصنفاته التي واكبت معارك التحرير في المغرب العربي وأبرزها:

١ – ماي شهر الدماء والدموع في المغرب العربي. ٢ – هتاف للجمهورية. ٣ – الشهيد أحمد رضا حوحو.

وله في أدب الخواطر والمقالة كتابان: ١ – كفاح وحب. ٢ – حصاد القلم.

ومن كتبه التعليمية: ١ – دروس في التاريخ الابتدائي. ٢ – شخصيات أدبية. ويبقى بعد هذا كتاباه: حديث رمضان. والتعليم التونسي بين الحاضر والمستقبل.

ثم كانت انعطافته نحو التراث حدثًا مهمًا في تاريخه الثقافي بعكوفه على تحقيق كتاب «الأنموذج» لابن رشيق.

إن كتابه الصادر مؤخرًا بعنوان «محمد الخضر حسين» هو إضاءة أخرى للتعريف بعلم من أعلام العربية أنجبته تونس وتقلبت به الأحداث وكان شعلة من نشاط وولي مشيخة الأزهر.

والشيخ محمد الخضر حسين، جزائري، رحلت أسرته إلى الجريد التونسي بعد الاحتلال الفرنسي للجزائر واستقرت بـ «نفطة» حيث ولد الشيخ سنة ١٨٧٦.

وقد تتبع المؤلف مراحل حياته المختلفة تلميذًا وأستاذًا وصحفيًّا فقاضيًا. ثم عرض لاستقالته من الوظيفة وعودته للتدريس بالزيتونة والصادقية والخلدونية.. وأشار إلى بروز نزعاته الإصلاحية والوطنية في محاضراته وفي مساندته لإصلاح التعليم الزيتوني وتأييده للجهاد الليبي ضد الغزو الإيطالي. وذكر الأسباب التي دعته إلى السفر إلى الآستانة حيث كان رجال الدين يرون فيها رمزًا للخلافة الإسلامية ومركزًا للإشعاع الديني والفكري.

وقد ارتأى المؤلف أن السبب الأساسي الذي دفع المترجم له إلى هجرة تونس هو حرمانه ظلمًا وعدوانًا من النجاح في مناظرة للتدريس من الطبقة الأولى بجامع الزيتونة، وكان هو في الطبقة الثانية من المدرسين.

وقد كان حرمانه – على رأي المؤلف – بسبب سياسة المحاباة المسيطرة على الحياة العلمية في تونس آنذاك.

لقد كان هذا الحرمان من العوامل الحاسمة في هجرته من تونس مع إخوته الأربعة عام ١٩١٢ وبهذه الهجرة افترق عن زوجته التونسية.

في المرحلة الثانية من حياته التي ابتدأت بعد الهجرة زار عددًا كبيرًا من الأقطار واستقر بدمشق مدرسًا في المدرسة السلطانية بها حتى عام ١٩١٧ وفي هذه المرحلة كان يدعو إلى تضامن عربي – تركي في ظل الخلافة العثمانية. وأصاب المؤلف إذ قال: إنه كان «في ذلك يدعو عن عقيدة صادقة أساسها ثقافته الدينية من ناحية، وإحساسه الخاص من

ناحية أخرى والبيئة الفكرية والسياسية التي نشأ وترعرع فيها بتونس من ناحية ثالثة».

ومع ذلك ألقى به جمال باشا السفاح في السجن مدة تجاوز الستة شهور بتهمة العلم بالحركة السرية المعادية للأتراك. وقد قدم للمحاكمة وثبتت براءته. فعاد إلى عمله التدريسي، ثم ألحق منشئًا عربيّاً بوزارة الحربية في الآستانة، حيث استطاع هناك التعاون مع بعض الزعماء التونسيين والجزائريين وعلى رأسهم (علي باش حانبة) لتنظيم الكفاح المسلح ضد الاستعمار الفرنسي مستغلين وجود عدد ضخم من المجندين المغاربة في الجيش الفرنسي وفي واجهات القتال بالخصوص. كان هدف (علي باش حانبه) ورفاقه بثّ الدعاوة في صفوف هؤلاء المغاربة داخل الجيش الفرنسي وبين أسراهم في ألمانيا لحملهم على القتال ضد فرنسا وليس معها لأن مصلحة بلادهم في ذلك. وكانت الدولة العثمانية تساعدهم في هذا الأمر ماديّاً ومعنويّاً. وقد حل الشيخ الخضر في ألمانيا مع بعثة من العلماء المسلمين بينهم الشيخ التونسي صالح الشريف وتعلم الألمانية وأدى مهمته، وظلك يتردد بين الآستانة وبرلين إلى أواخر الحرب العالمية الأولى وبعدها نزح الى دمشق ومحنة الاغتراب تلح عليه فقال يصف حاله:

أنـــا كـــاسُ الـــكـــريم والأرضُ نـــادٍ
والمـطـايـا تـطـوفُ بي كـالـسـقـاةِ
رُبَّ كـــاسٍ هـــوت إلى الأرض صـــدعًـــا
بـــين كفٍّ يـــديـــرهـــا والـــلـــهـــاة
فـاسـمـحي يـا حـيـاة بي لـبـخـيلٍ
جـفنَ سـاقـيهِ طـافحٍ بـالـسـبـات

وفي منتصف عام ١٩١٩ تأسس المجمع العلمي العربي بدمشق وعين الشيخ الخضر عضوًا عاملاً فيه، لكنه اضطر إلى الرحيل عن دمشق منتصف عام ١٩٢٠ بعد الاحتلال الفرنسي لها، خوفًا من معاقبة الفرنسيين له لسبق تعاونه مع الألمان ضدهم، وبثه التمرد بين جنودهم المغاربة. وبرحيله إلى مصر بدأت المرحلة الثالثة من حياته.